أوليات الإسلام

من عالم الذر إلى يوم القيامة

المؤلف

آية الله هادي المدرسي

دار الشهيد

أوَّليَّاتُ الإسلام

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۞ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۞

مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۞ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ

نَسۡتَعِينُ ۞ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۞

صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ

ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۞

مقدمة الناشر

مما لا ريب فيه أن التخلف عاد الواقع المعاش لأمتنا منذ أمد ليس بالقريب . . .

لكن الغموض يكتنف ويلف ماهية و 'نوع التخلف الذي نعانيه على وجه التحديد ، وهذا يبدو جلياً حين الإنتقال في الحوار من الكليات والعموميات إلى التفاصيل ، لوضع النقاط على الحروف سعياً وراء تعيين الداء للتمكن والإقتدار على قمعه بتعيين الدواء المناسب والفعال . . .

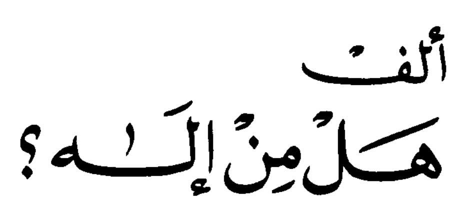
الأخطر من ذلك أنه يُراد تجنيد تلك الحالة الضبابية النظرية ، للخروج باستنتاجات أساسها تراكم المغالطات والإفتراق عن الحقيقة ، لاستفراغ الأمة حتى من مقوماتها في البقاء والوجود ناهيك عن التقدم ودحر التخلف المرير ، فأين الحلقة المفقودة في حوار التخلف !؟ .

أجل لا بد من علم تفصيلي بالتخلف ، فإذا كنا متخلفين فذاك مدنياً في الصناعة والزراعة والعمران و . . . . ، وليس حضارياً نظرياً إطلاقاً ، وما أدل على ذلك سعي الأمم والمجتمعات الأخرىٰ لدراسة القوانين والتشريعات والأنظمةوالمفاهيم والأخلاقيات الإسلامية ، وفرض الأخيرة نفسها بصورة تدريجية تلقائية عليهم في غير مجال ، سواء اعترفوا بمصدر ذلك أم لم يعترفوا فإذن تخلفنا مدني من ناحية وحضاري عملي من ناحية أخرى ، وهذا يكمن في عدم التطابق بين النظرية والممارسة للأزدواجية التي تهدد كل أمل بالنهوض والتقدم المدني والحضاري بالمعنىٰ الأخص المتقدم .

وعليه فسر التخلف المرير هو عدم فهم نوع التخلف على وجه التحديد والوقوع في شرك التآمر والتحايل على محاولات الفهم والتحديد الجادة على هذا الطريق . . المتمثلة في تصوير تخلفنا بأنه شامل يلف المدنية بجانبها : الحضاري العملي والنظري . . لانتزاع روح وجودنا وصمودنا في مكافحة الموت الذي يُراد لنا . . . المتمثل في الإيمان بالله عز وجل والإعتقاد برسالتنا السماوية ؛ فهو الحجر الأساس لوجودنا وألفباء الإسلام .

والكتاب الذي بين يديك محاولة جادة ويتيمة لتسليط الأضواء والتعريف بأوليات الإسلام بأسلوب علمي وعصري رصين كمساهمة للإلتفاف والتصدي الفكري الفعّال لمحاولات استئصال عناصر الوجود الإيمانية الخالدة ، فإليك عزيزي القارىء هذا السفر القيم .

الناشر


ألف
هل من إلـه ؟

من عالم الذر حملنا معنا « الإيمان بالله » .

ولهذا فإن الجميع ـ رغم إختلاف الثقافات ـ يجد في أعماقه برد هـذا الإيمان الذي مهما حاول الإنسان القضاء عليه فإنه في الأخير يكشف عن نفسه في مـظهر من المظاهر .

لأنّ أيّ أنسان يجد :

أولاً ـ إن كل موجود لا بدّ له من موجد ، وكل مصنوع لا بدّ له من صانع . . فالكتاب الذي بين يديك لا يمكن أن لا يكـون له مؤلف ولا طـابع ولا نـاشر ، فلو فرضتَ أنْ لا مؤلف للكتاب فلا بدّ أن تفرض أن لا وجود له ، بدليـل أنك لا تستـطيع أن تفـرض كتابـاً بلا مؤلف إلا إذا فـرضت أنه غـير مـوجـود إلا في الوهم ، إذ بمجرد أن تفرض له وجوداً خارجياً فلا بدّ أن تفرض له مؤلفاً خارجياً كذلك .

وإذا كان كتاب بسيط لا يحتـاج إلى أكثر من تـرصيف الكلمات المفهـومة ، غير ممكن الحدوث إلا عن طريق مؤلف قادر ، فكيف يمكن للعـالم كله أن يكون قد وجد بلا خالق ؟

إنّ كـلاًّ من « العالم » و « الكتـاب » موجـود فلا بـد أن يكـون لكـل منهـما موجِد ، ولا يمكن أن تقول ان الكتاب يحتاج إلى مؤلف ، أما الكـون فلا يحتـاج إلى خالق ، لأنه لو جاز أن يكون الكون العظيم بلا خالق ، فلا بـد أن يجوز أن يكون الكتاب البسيط بلا مؤلف ايضاً .

- فهل نستطيع أن نؤمن بوجود كتاب لا مؤلف له ؟

- طبعاً لا .

- لماذا ؟ لأنّ الكتاب لم يكن موجوداً قبل مدة ، وهذا يعني أن شخصاً ما قد أوجده . وإذا كان الكون ايضاً غير موجود قبل مدة ، ونحن نراه موجوداً الآن فلا بدّ أن نؤمن أنّ خالقاً أوجده من اللا شيء .

وها هي البحوث العلمية تؤكد أن للكون بداية وتحدّد هذه البداية بما قبل ٥,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠ عاماً . وبهذا تثبت تلقائياً وجود الله تعالى لأن كل شيء ذي بداية يحتاج إلى « موجد » .

إننا إذا نظرنا إلى أصغر بناء وسألنا أنفسنا السؤال التالي :

- هل هذا البناء بُني من غير بنائين ؟ فإن الجواب سيكون حتماً : لا . إن البناء لا بدّ له من بنائين .

فشعورنا الفطري بأن لكل موجود موجد ، ولكل بناء بانٍ ، هو الذي يحملنا على أن لهذا الكون الذي هو على أقل التقادير مجرد بناء ضخم موجِداً حكيماً هو الله سبحانه .

لقد سئل أمير المؤمنين (عليه الصلاة والسلام) عن أثبات الصانع ؟ فقال : «البعرة تدل على البعير ، والروثه تدل على الحمير ، وآثار القدم تدل على المسير ، فهيكل علوي بهذه اللطافة ، ومركز سفلي بهذه الكثافة كيف لا يدلان على اللطيف الخبير ؟! » [1] .

ثانياً - إن كل واحد منّا إذا راجع نفسه يجد أنه موجود ، وأنه كان في وقت ما غير موجود ﴿هل أتى على الانسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً﴾ . فأنا

---

(١) البحار ج ٣ ص ٥٥ .

وأنت لم نكن موجودين في زمان أجدادنا ، فمن الذي خلقنا ؟

هل إننا خلقنا أنفسنا ؟

أم خلقنا آباؤنا ؟

أم خلقنا الله ؟

١ ـ لا شك أننا لا نستطيع أن ندَّعي أننا خُلقنا بلا خالق ، إذ لو لم يكن لنا خالق لم نكن موجودين ، والمفروض أن كل واحد منا يعرف أنه موجود .

٢ ـ ولا شك أننا لم نخلق أنفسنا ، **أولاً** ـ لأن كل واحد منا يعرف أن غيره هو الذي خلقه . **ثانياً** ـ لأننا لم نكن موجودين في فترة من الزمن وهذا يعني أننا لم نكن نملك وجوداً . . فكيف إذن أعطينا الوجود لأنفسنا مع العلم « أن فاقد الشيء لا يعطيه » .

يقول الله تعالى : **﴿أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون* أم خلقوا السماوات والأرض﴾**[1] .

٣ ـ وآباؤنا لا يمكن ان ندعي أنهم خلقونا ، لأن آبائنا لا يعرفون أي شيء من أعضائنا واجزائنا فكيف ندعي أنهم خلقونا ؟ كيف يمكن أن لا يعرف صانع السيارة اجزائها ، وكيفية تركيبها ؟

ثم إذا كان الآباء هم الخالقون ، فكيف يموتون ؟ لماذا لا يعطون الوجود لانفسهم ؟

إن الأب ليس في الواقع إلا واسطة للخلق ، وليس خالقاً تماماً كما أن العامل الذي يشغّل مصنعاً للسيارات ليس أكثر من واسطة لنقل تيار الكهرباء إلى الاجزاء والاجهزة ، وليس خالقاً .

---

(١) سورة الطورالاية ٣٥ ـ ٣٦ .

بالاضافة إلى أنّ الأب لو كان هو الخالق فان لنا أن نتساءل : من خلق الأب ؟

تقول : أباه . ونتساءل : ومن خلق أباه ؟ تقول : جده ونتساءل : ومن خلق جده ؟ وهكذا إلى أن ينتهي الأمر إلى الأب الاول أو الانسان الأول الذي لا يمكن أن نفترض له أباً .

وهنا . . لا بدّ من الايمان بالله .

عن أبي الحسن علي بن موسى الرضا (عليه الصلاة والسلام) : أنه دخل عليه رجل فقال له : «يا ابن رسول الله ما الدليل على حدوث العالم ؟ فقال : أنت لم تكن ثم كنت ، وقد علمت انك لم تكوِّن نفسك ولا كونك من هو مثلك »[1] .

ثالثاً ـ إنّ كل واحد منا لا بد أن يمر بلحظات قاسية يرى خلالها الله بقلبه وعقله وضميره ، بحيث لا يستطيع ـ وإن حاول ـ التشكيك في وجوده .

لنتصور أنفسنا راكبين في السفينة ، وفجأة تهب رياح عاصفة ونحن وسط البحر ، فتثير الامواج بشكل تؤدي إلى تحطم السفينة أو تقاذفها بين الامواج . ولنتصور أننا لا نملك زوارق نجاة في هذه الحالة ، فما الذي سنحس به عند ذاك ؟

فجأة نجد أنفسنا تحت رحمة قدرة غيبية عُليا ، نؤمن إيماناً قلبياً صادقاً بقدرتها على إنقاذنا من الموت .

وهذه القدرة هي قدرة الله ، التي تكشف عن نفسها بين الحين والحين بحيث لا تدع للشخص مجالاً للشك والتردد .

---

(١) البحار ج ٣ ص ٣٦ .

سئل الامام الصادق (عليه الصلاة والسلام) مرة عن الله فأجاب :

- يا عبد الله هل ركبت السفينة ؟

أجاب : بلى .

قال الامام : فهل كسرت بك ، حيث لا سفينة تنجيك ولا سباحة تغنيك ؟

أجاب : بلى .

قال الامام : فهل تعلق قلبك هناك أنّ شيئاً من الاشياء قادر على أن يخلصك من ورطتك ؟

أجاب : بلى .

قال الامام : فذلك الشيء هو الله القادر على الانجاء حين لا منجي ، وعلى الاغاثة حيث لا مغيث .

والمشكلة التي يعاني منها الافراد ، هنا هي انهم بعد أن يكشف لهم الله عن نفسه في لحظات الالم ، ينسونه بسهولة بمجرد ان تعود اليهم حالتهم الطبيعية .

يقول القرآن الكريم :

﴿هو الذي يسيركم في البر والبحر حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرِحوا بها جاءتها ريح عاصف ، وجاءهم الموج من كل مكان ، وظنّوا أنهم أُحِيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين* فلما أنجاهم اذا هم يبغون في الارض بغير الحقّ يا أيها الناس انما بغيكم على أنفسكم ، متاع الحياة الدنيا ثم الينا مرجعكم فننبئكم بما كنتم تعملون﴾[1] .

---

(١) سورة يونس الآية ٢٢ ـ ٢٣ .

رابعاً ـ إننا نجد أنّ الحيوانات والاشجار تقوم بأعمال رائعة يعجز عن القيام بها حتى الانسان . ولا يمكن تفسير ذلك إلا بوجود يد هادية حكيمة لأنّ الحيوانات والأشجار لا تتمتع بالفكر والعقل ،ومادامت أعمالها مشحونة بآثار التعقل والفهم فلا بد أن يكون ذلك من الله تعالى .

وهاك بعض الأمثلة على أعمال الحيوانات الخارقة :

١
الكتكوت ـ المفكر

ما أن تجد البيضة الحرارة الكافية حتى تتحول إلى « معمل » . حيث تجري فيها عمليات واسعة ، بعضها كيماوية وبعضها انتقالية ، وبمرور الزمن يتكون داخل « الصفار » الخلايا التي تتحول أخيراً إلى الفرخ ـ الكتكوت . وداخل قشرة البيضة يجد الكتكوت كل المواد والاطعمة اللازمة له حتى يستطيع الخروج من القمقم ، حينما يطلع له في اليوم الحادي والعشرين عادة قرن صغير على منتهى منقاره ، وباستعماله كوسيلة لكسر جدار القشرة ، عند أضعف اجزائها يطلع الكتكوت من داخل البيضة كجندي منتصر يبحث عن الغنيمة . ثم يختفي القرن إلى غير رجعة !

ترى من يعطي الكتكوت هذا القرن المؤقت ؟ ومن يعلمه كيف يستعمله ومتى ؟ هل هناك تفسير آخر لعمل الكتكوت البارع هذا غير وجود الله ؟

٢
الطيران من أجل الماء

هناك بعض الأشجار الصحراوية لا تستطيع أن تعيش إلا على حافة بركة ماء ، ولأن بركات المياه معرضة دائماً للجفاف فقد زود الله هذه الأشجار ببذور

مجنحة لتطير فيها إذا جفت مياه بركة ماء الأم . وتقطع آلاف الأميال من الصحارى الجرد لتجد فرصها القليلة في الماء .

ترى من أعطى هذه الأشجار القدرة على انتاج بذور مجنحة تطير إلى منابع المياه ، وهي ليست سوى بذور؟

٣

الحشرات : وافراز المواد الكيماوية

بعض الحشرات تستعمل طريقة إفراز المواد الكيماوية للتفاهم فيما بينها . حيث يقوم الواحد منها بنشر مواد كيماوية فيفهمها الثاني ويقوم بتصرف معين ، أو يتخذ موقفاً معيناً .

فالنحل مثلاً يقوم بافراز مواد معينة في الهواء فيتلقاه الآخر عن طريق اللحس للدلالة على مكان معين كتحديد مركز للاكل بحيث لو تنتقل احدى عاملات « النحل » إلى حقل تكثر فيه الازهار فانها تضع على بعض هذه الازهار ، أو تنشر في الهواء كمية من المواد الكيماوية . وتصل رائحتها إلى بقية العاملات فيتركن الخلية ويتوجهن إلى المصدر .

ترى من أعطى النحل هذه المواد ؟ ومن علمه كيفية ، ووقت استعمالها ؟

٤

العثة تستعمل التلكس

تقول بعض البحوث ان بعض الحيوانات تتمتع بقوة « الاشراق » فلو أنت وضعت حشرة « العثة » وهي حشرة مجنحة ، على نافذة مفتوحة ، فستحدث صوتاً يسمعها زوجها على مسافة بعيدة جداً ولسوف يجيبها هذا الزوج أيضاً بطريقته .

وهناك نوع خاص من هذه الحشرات يدعى « الجندب » يحك رجليه وجناحه ويصوت بطريقة غير عادية . ويسمع على بعد ثلاثة آلاف متر تقريباً ، وهو يحرك في هذه العملية ستمائة طن من الهواء ليدعو زوجته ، والزوجة ترسل أيضاً ، وهي ساكنة بلا حراك ، جواباً لا نعرفه نحن ولكن يعرفه الذكر ، الذي يلحق بها أينما كانت بعد إتمام هذه المراسلة التلكسية .

من . . ترى علم هذين الزوجين هذه الطريقة غير العادية لتبادل رسائل الحب ، بحيث لا يستطيع العدو مهما كان شرساً التقاطها وفك رموزها ؟

٥
التخفي عن طريق تغيير اللون

هناك حيوانات تعيش في أوساط مختلفة ، وتتعرض نتيجة ذلك لمحاولات صيدها من قبل الحيوانات الأخرى ، ونظراً لأنها لا تملك أية وسيلة فعالة للدفاع عن النفس ، فقد زودت بجهاز خاص لتغيير اللون بشكل سريع مما يساعد على إخفائها بسرعة .

وعملية تغيير اللون هذه تحدث عن طريق خلايا دقيقة تقع تحت الجلد مباشرة وتسمى « حاملات اللون » وهي مملوءة بصبغ أسود ، ، أو أصفر ، أو أحمر .

فحشرات « الحرباء » و « النطاط » تغير ألوانها بسرعة فائقة حسب لون المحيط ، فتغير لونها لكي يتلائم مع الوسط . ونظراً لأن الكثير منها يعيش على الأشجار والشجيرات فأغلب وسائلها للتخفي تتمثل في تقليد الأوراق والاغصان وقلف الاشجار . وقد يكون التخفي دقيقاً جداً في بعض الأمثلة حتى أنه يُحتاج إلى فحص دقيق للكشف عن الحشرة التي من غرائزها أن تظل ساكنة تماماً إلا في حالة المشي الحقيقي أو التغذية .

وطريقة التخفي في حالات التعرض للهجوم من قبل الأعداء نوع من الاستراتيجية الجديدة التي تمارسها الجيوش اليوم بعد مرور قرون عديدة على إشعال الحروب وخوضها من قبل الانسان فمن ترى علم تلك الحشرات قبل ملايين السنوات اتباع هذه الطريقة للتخلص من الأعداء ؟

٦

دودة القز وتغيير الجنسية :

دودة القز هي أول كائن يقوم بتغيير هويته الخاصة من دودة إلى حشرة ، فهي تنسلخ من ثوبها مرة بعد مرة ، ثم تنزوي في ركن لتبني لنفسها شرنقة من حرير تنام فيها ليال طويلة ، مثل أهل الكهف ، ثم تخرج منها فراشة بيضاء جميلة . .

هذا الانتقال المنظم الدقيق من نمط من الخليقة إلى نمط آخر . . وهذا التطور من دودة إلى حشرة الذي يتم بلا مختبرات ولا عمليات جراحية ولا ما شابه ذلك من يقوم به ؟

إن الدودة لا تعرف هي لماذا ؟ وكيف ؟ تتحول إلى فراشة فهي إذن ليست ذات إرادة في ذلك ، وإنما هناك « مَن » يقوم بذلك .

وهذا الـ « مَن » ليس بالطبع إلا الله ، العليم القدير . .

٧

الاسفنج : الحيوان المتجدد دائما :

« الاسفنج » حيوان بحري يتعرض في كل لحظة لعملية تمزيق ولكنه بالرغم من ذلك . . لا يموت .

فهو عندما تمزقه الدوامات البحرية والأسماك المتوحشة يتحول إلى ألف قطعة وقطعة ، ولكن ما تلبث كل قطعة فيه حتى تسبح مع الماء وتنمو اسفنجاً جديداً كاملاً .

وأنت لا تستطيع أن تتصور إلى أي مدى يستطيع حيوان الاسفنج أن يتحمل التمزيق ، ولكن أحد اساتذة علم الحيوان قام باجراء تجربة بديعة ، مزق فيها الاسفنج فتافيت صغيرة بابرة ، ثم سحقه بمطرقة ، ثم طحنه ، وهرسه ، وعصره في قماش دقيق الثقوب ، ثقوبه أدق من ثقوب المنخل ، ومن النخالة التي سقطت بعد هذا التمزيق والهرس والطحن الرهيب استطاع الاسفنج أن يتخلق من جديد . . من كل نقطة . . ومن كل ذرة وينمو إلى صورته السوية ، وكأنه لم يحدث أي شيء !

ترى من أعطى لحيوان ضعيف الجثة ، عديم السلاح قدرة التخلق . . والتخلق . . والتخلق بلا كلل ؟

إنك إذا سمعت أن مهندساً استطاع أن يصنع منديلاً من البلاستيك ، لا يتعرض للتمزيق إلا ويتحول إلى منديل كامل من جديد . . فانك ستعتبره من أقدر ، وأفهم ، وأذكى المهندسين الذين عرفهم التاريخ ، إذ كيف يمكن للمنديل أن يرجع منديلاً ؟ إن العملية ليست سهلة . .

إذن فكيف يمكن أن لا نعترف بعلم ، وقدرة من صنع الاسفنج مع أن الفرق بين الاسفنج والمنديل ليس ضئيلاً ؟

٨
الحشرات : براهين الله أيضاً . .

قديماً قال الشاعر .

وفي كل شيء له آية

تدل على أنه . . واحدُ

لاحظ . . ما هو أضعف كائن يدب على الارض ؟

إنّـه بالطبـع « الحشرة » . هذا الحيوان العجيب الذي يقف الانسان بكل عظمته وجبروته خاشعاً أمام أعماله الخارقة المعجزة . .

إن الإنسان لا يستطيـع ان يتكيف إلا على الـطعـام الـذي ينسجم معـه ، ولكن الحشرات قادرة على التكيف على أي طعام موجود . .

وان الانسـان يخلف كل سنـة ما لا يـزيد عـلى ثـلاثـة أولاد . ولكن بعض الحشرات يزيد انتاجها السنوي من « الأولاد » على عشرين ألف مليارد . .

أليس كل ذلك دليلاً على قدرة الخالق ؟

إننـا قد نـدهش اذا سمعنا أن العلم يصنـع نوعـاً من اللحم من البترول ، ونعتبر ذلك من أبرز الادلة على تقدم البشرية وقـدرتها ، وفهمهـا ، ولكننا نجـد ان بعض الحشـرات وهي التي تسمى بـ « ذبـابـة البتـرول » اكتشفت « لحم » البترول وأخذت تستفيد منه قبل آلاف السنوات . .

واننا قد ندهش إذا سمعنا أن ساحراً يبلع الرصاص ، بينما نجد أن« خنفساء الدائرة الكهربائية » تعيش كل حياتها على الاستفادة من أسلاك الرصاص .

وبالاضافة إلى ذلك ، فإن الحشرات تتحرك ، كما تتحـرك عربـة مصفحة ، تحيط بجسمها الرقيق صفائح من مـادة كالصلب إسمهـا « الكيتين » تقـاوم فعل جميع المهلكات الكيميائية وهي تسلح نفسها بحراب وخناجر واشواك . . !

وبعضهم يسلح نفسه بحويصلة من السم متصلة بابرة حامية يـطعن بها أي عدو يقترب منه فيشله أولاً ، ثم يلتهمه . . !

وبعضها يطلق غـازات كريهـة ليطرد أعداءه ، وذلـك مثل حشـرة « قاذفـة

القنـابل » التي تتمخـطر أمام الحيـوانات المفتـرسـة دون خـوف ، حتى إذا فتـح الحيوان الغازي فمه ، ضغطت الحشرة على كيس داخل بطنهـا فيمتزج في لحـظة افرازات ثلاث غدد ، ويؤدي اختلاط تلك الافرازات إلى تفاعل شديـد وخروج غاز لاسع كريه الرائحة فيفر الحيوان المفترس رعباً . .

وبعض الحشرات يحفر لنفسه ـ كجندي في ساحة القتال ـ الخنادق والمخابىء المحصنة . !

وبعضها يحاكي الزنابير الـلاسـعـة ، فيفر منهـا « الغزاة » من دون أن يكـون لها سم . !

وكل حشرة تعيش في أكثر من بيئة خلال حياتها ، فالبعوضة العادية مثـلاً ، تعيش في مرحلة الدودة والشرنقة ، في المستنقعات ، وفي مرحلة الحشـرة الكاملة تعيش في الحدائق ويتغذى ذكورها على رحيق الزهر ، وأناثها على دم الإنسان!

والحشرات تسمع وتحس وتشم وترى أحياناً عن طريق قـرون الاستشعار أو الـوبر الخفيف المـوجود عـلى جسمها وأعجب من ذلـك . . أن الحشرات تخـطط للمستقبـل ، من دون أن تعرف عن هذا المستقبل شيئـاً . فحشرة « أبي دقيق » تختـار أوراق الكرنب لتبيض عليهـا مع أنها لا تتغـذى على الكـرنب ، ولا تحتاج له ، وإنما صغارها التي هي ديدان صغيرة ، هي التي لا تـأكل سـوى الكرنب ، فيجب أن تبيض حشـــرة « ابي دقيق » عـلى ورق الكــرنب ليجـد الصغــار مـا يأكلونه ، ومع هذا فإن حشرة « ابي دقيق » لا تعرف إطلاقاً هذه المسألة . . بـل انها لا تعـرف الصغار التي تفقس عن بيضهـا ، فـلا تعـرف أن هـذه الـديـدان أبناؤها . .

و « زنبـور الطين » . يخـطط للمستقبل أيضـاً فهو يصـطاد « الـدودة » . ثم يبيض عليها بيضة واحدة ثم يضعها في العش ويمضي باحثاً عن حصـاة حتى إذا وجـدها حملهـا بين ذراعيـه ، وأغلق باب العش . . وعنـدما تفقس البيضـة تجد

اليرقة الصغيرة طعامها جاهزاً بين يديها . .

ترى كيف أدرك الزنبور هذه الحاجة المسبقة فخطط لها ؟

وكيف عرف ان الدودة طعام صحي لصغاره ؟

إن الحشرات لم تتلق أي تعليم في جامعات الطب والهندسة ، ولا تملك أية عقول الكترونية كاشفة المستقبل ، ومع ذلك فهي تخطط وتعمل وكأنها تعرف كل شيء .

فمن علمها ذلك ؟ وهي لا تعرف أي شيء ؟

١٠
النملة والتفكير المصيري

هذه النملة الصغيرة التي تعمل في أغلب مناطق الأرض ، وتعمل بصمت واخلاص . وبالرغم مما تتعرض له من عمليات الابادة الجماعية من قبل الانسان ، تشكل هي الاخرى مع باقي مخلوقات الارض ، دليلاً صارخاً على وجود الله .

فهي برغم « لطافة هيئتها وصغر جثتها بحيث لا تكاد ترى بلحظ البصر » تنقل الحبوب إلى منازل تختارها بدراسة وامعان وتعدها في مستقرها . وتجمع - كما قال الامام علي (عليه الصلاة والسلام) - «في حرها لبردها ، وفي ورودها لصدورها » .

ثم هي تقوم بتقسيم الحبوب إلى نصفين في محاولة لمنع تخضرها ونموها لأن ذلك يشكل تهديداً لمخبئها الصغير .

فمن ترى علم هذه « الزميلة » الصغيرة كل هذا التخطيط ؟

يقول الإمام (عليه الصلاة والسلام) :

« ولو ضربت في مذاهب فكرك لتبلغ غاياته (لو فكرت بعمق ودراية باقصى ما تستطيع) ما دلّتك الدلالة إلا على أنّ فاطر (خـالق) النملة هو فـاطر النخلة لدقيق تفصيل كل شيء ، وغامض اختلاف كل حي .

ومـا الجـليل (الكبـير) واللطيف ، والثقيل والخفيف ، والقـوي والضعيف في خلقه (تعالى) إلا سواء »[1].

١١
النبات . العمل الفنّان

عنـدما يضـع الإنسان بـذرة في الأرض ، فـإنها تقـوم بثـلاث عمليـات ، فأولاً ـ تشد موقفها في التراب . وثانياً ـ تخرج سيقاناً تمتد من باطن الارض باتجاه السماء ، وثالثاً ـ تمتد جذورها نازلة في أعماق الأرض .

لانها من دون تركيز نفسهـا لا تستطيـع أن تتحمل السيقـان ، ومن دون ان تمد سيقانها باتجاه السماء لا تستطيع ان تمتص الهواء ونور الشمس ، ومن دون أن تمد جذورها في أعماق الأرض لا تستطيع ان تمتص ما فيها من الأملاح والماء .

ولكن إذا ســألت النبـات نفســه عن الـداعي إلى مــد الجـذور ، ورفــع السيقان ، فانه لا يستطيع بالطبع ان يجيبك على ذلك ، فهو لا يحس بشيء .

ترى من علم النبات ان في السماء يوجد الهواء ؟ ومن علمه ان في الأرض توجد الاملاح والماء ؟

ان الانسان وهو قمة الكائنـات الحية لا يستـطيع أن يعـرف آبار البتـرول . ومصادر الاشعة الكونية ، وهما من مصادر رزقه وحياتـه إلا بعد القيـام بعمليات

---

(١) نهج البـلاغـة ج ٢ ص ١١٧ .

تنقيب واسعة في الارض أو في السماء ، فمن علم النبات مكان مصادر رزقه من دون ان يتكلف التنقيب والبحث ؟

إن الـذي يجري في اجسـام النباتـات ، فيه من التعقـل والتدبـر ومن العلم والفن ما لو وكِّل أمره إلى النبات نفسه ، أو حتى أعظم العباقرة لعجز عن القيام به ، ومن ثم لفسدت هذه الاجسام . إنَّ الذي يجري فيها من أحداث وأعمال وما تكمله من انجازات هي أعمق وأكبـر من أن يستطيـع العقل البشـري القيام بها ، فكيف يمكن أن يقوم بها النبات ، وهو مجرد نبات لا يعقل ولا يفهم ؟

إن المزهرية عندما توضع في حجرة يـدخل عليهـا ضوء الشمس من خـلال جانب خاص ، فان النبات سيميل حتماً بأوراقه ناحية ضوء الشمس .

تـرى : من علَّم النبات علم الكيميـاء الذي يقـول : « إن الشمس مصـدر الحياة فوق هذه الأرض » ؟

إن العلم الحديث اكتشف بعد طـول بحث بعض ما يفعله النبـات وبذلـك اكتشف أن هناك يداً هادية عليا تحمل النبـات على القيـام باعمـاله تلك ، ذلـك لأن النبات لا يفهم شيئاً فمن علمـه مثلاً أن « الجلوكـوز » الذي يصنعـه النبات من « ثـاني أوكسيد الكـربون » والمـاء يحتـاج إلى تخليق ، وأن التخليق لا يتم إلا بضوء الشمس ؟

ان العلم الحديث : يكشف عن حساسية النبات لـلاشعة الشمسيـة بحيث أنه يستجيب بالميـل نحو الأشعـة ، حتى ولو بلغت من حيث الضعف جـزءاً من ألف جزء من القمر في حالة كـونه بـدراً . ان العلم الحديث يكشف عن عـلاقة النبات والشمس والأرض فيقوم بتفسير ظاهرة التمثيل الضوئي ، وتفسير ظـاهرة الانتهاء الضوئي ، وتفسير ظاهـرة الانتهاء الأرضي (وهـو توجـه الساق إلى أعـلى رغم جـاذبية الأرض) ، وبـذلك يكشف عن حقيقـة هـامـة هي : ان من غـير المعقول أن تتم كل هذه الأعمال التي يحتاج مجرد معرفتها إلى دراسة عدة سنوات

في علم النبات وعلم الكيمياء وعلم طبقات الأرض ، إلا عن طريق قدرة حكيمة عليمة لأن النبات لا يعرف العمل الذي يقوم به ، تماماً كما أن المعمل لا يعرف العمل الذي يقوم به ، وإنما الذي وراء « المعمل » هو صاحب الفكر كما أن الذي وراء النبات هو صاحب الارادة في عمل النبات .

١٢
الورق يعمل في كل الظروف :

إذا طلب من المهندسين أن يصنعوا قطعة معقدة من آلة يُعتمد عليها في جميع الظروف والحالات . بحيث تستطيع أن تعمل في العراء تحت أشعة الشمس ، والبرد والثلوج ، فانهم سيعتذرون عن ذلك لأن الأمر صعب للغاية .

ولو استطاع المهندسون أن يصنعوا ذلك لاعتبروا عملهم هذا معجزة من المعاجز ، ودليلاً على قدرة العلم الحديث وتقدمه الفائق .

إذن : فمن هو الذي صنع ورقة النبات الرقيقة ، بكل ما فيها من دقة ومناعة ضد الظروف المتناقضة ؟

إن ورقة النبات نوع من الأليات التي تبقى مكشوفة في العراء وتعمل تحت جميع أنواع الطقس . فهي العضو الذي يؤدي وظيفتين حيويتين للنبات وهما : التغذية ، والتنفس . وبناء عليه فانه يلزم للجزء الداخلي منها والذي يعمل بنشاط أن يتصل بالهواء الخارجي اتصالاً لا يعوقه شيء ، ويتطلب في الورقة أن تكون ـ في نفس الوقت ـ قادرة على تحمل الساعات الطوال في الشمس الساطعة الحارة دون أن تفقد الكثير من الماء عن طريق البخر ، فهي يجب أن تكون مانعة للمطر من النفاذ بدرجة تكفي لمنع السكرات الذائبة التي تحويها من التخفيف الزائد أو من أن يكتسحها ماء المطر ، كما أن الورقة يجب أن تَكون قوية بدرجة

تقيها لفحات الرياح العاصفة .

ورغم أن الورقة بالغة الرقة والتفلطح ، إلا أنها في الواقع تركيب معقد من الخلايا والانسجة يغلفه جلد علوي وآخر سفلي، وفي الجلد وخاصة جلد السطح السفلي توجد ثقوب صغيرة عديدة يمكنها أن تنفتح وتنغلق تبعاً للظروف ، فحينما يتوفر للنبات الكثير من الماء تنفتح الثقوب ، وحينما يصبح الجو جافاً تنغلق كل الثقوب ، وتمر الغازات التي تعتبر أساسية لحياة النبات خلال هذه الثقوب .

ففي النهار يخرج بخار الماء والاوكسيجين من الثقوب بينما يدخل ثاني أوكسيد الكربون ، وفي الليل يخرج بخار الماء وثاني أوكسيد الكربون ويدخل الاوكسجين اللازم لتنفس النبات وانفتاح الثقوب التي تسمى بالثغور وانغلاقها ، يعتبران ضروريين لحياة النبات لانهما ينظمان معدل دخول الغازات ، خصوصاً بخار الماء إلى الورقة والخروج منها .

وإذا لاحظنا الورقة من الداخل فاننا سنجد أنها تتكون من الاجزاء الآتية :

١ ـ السويق ، أو العنق ، وهو الساق الذي يوصل الورقة بالنبات ، والذي ينقل الماء والمحاليل الغذائية من النبات واليه ، وبالاضافة إلى الأنابيب الدقيقة التي تمر فيها هذه السوائل ، فان عنق الورقة يحوي اليافاً قوية تمنعها من التمزق عند تعرضها لهبوب الرياح العاصفة ، ويستمر امتداد العنق عادة في الورقة على هيئة عرق وسطى . وتسمى الورقة التي ليس لها مثل هذا السويق بالورقة الجالسة .

٢ ـ النصل وهو الاسم الذي يطلق على الجزء المفلطح من الورقة والذي يظهر تركيبه الداخلي تحت المجهر ، ويكون النصل سميكا جلدياً في النباتات دائمة الخضرة التي يجب أن تتحمل أوراقها قسوة الشتاء مثل ورقة « البرتقال » و « النارنج » .

٣ ـ العروق . يتكون العرق الوسطي والعروق الأخرى في الورقة جزئياً من حزم من الأنابيب الدقيقة ، وجزئياً من الألياف ، وتتكون في المجموع كله شبكة تتصل بالساق وتحمل الأنابيب الماء ومحاليل السكرات والأملاح فيما بين الورقة وباقي النباتات بينما تكسب الألياف الورقة متانتها وقوتها .

كل هذا . . من صنعه في الورقة البسيطة ظاهرياً ؟

١٣
أجسامنا : من يديرها ؟

إذا استطاع أحد أن يدعي أن النباتات تعرف ما تفعل ، وأن ما تقوم به من عمليات كيماوية نابع من فكر وعقل وفهم ، ترى هل يستطيع أحد أن يدعي أنه هو الذي يقوم بإدارة جسمه ؟

تصوّر جسمك : هذا الذي تعمل فيه عشرات الملايين من الاجهزة المختلفة ، هل تديره انت ؟ هل أنت تحرّك قلبك ؟ هل أنت تدير الدورة الدموية ؟ هل أنت تدفع الكبد إلى العمل ؟ هل الخلايا تقوم بأعمالها حسب ارادتك وقدرتك ؟

ان الكثير منا قد لا يعرف موضع كبده ، أو لا يعرف أن له رئتين أو أعصاباً أو خلايا . . . فكيف اذن يمكن الادعاء بأننا نحن الذين ندير اجسامنا ؟

واذا لم نكن نحن الذين ندير أجسامنا فمن الذي يديرها ؟

هل القلب هو الذي يشغّل نفسه ؟

هل الكبد هو الذي يدفع نفسه بتعقل وتفهم الى القيام بخمسمائة عملية كيمياوية في وقت واحد ؟

ثم من الذي يقول للجسد : قف عن العمل . . عند الموت ؟

لقد دخل رجل من الزنادقة على الرضا (عليه الصلاة والسلام) وكان مما سأل عنه أنه قال : فما الدليل عليه ؟

فقال أبو الحسن (عليه الصلاة والسلام) : «إني لما نظرت الى جسدي فلم يمكنّي فيه زيادة ولا نقصان من العرض والطول ، ودفع المكاره عنه ، وجر المنفعة إليه علمت أنّ لهذا البنيان بانياً فأقررت به .

مع ما أرى من دوران الفلك بقدرته ، وانشاء السحاب ، وتصريف الرياح ، ومجري الشمس والقمر والنجوم وغير ذلك من الآيات العجيبات المتقنات ، علمت لهذا مقدراً ومنشيءً[1] » .

١٤
لغة الحب عند الضفادع

يقول تقرير نشرته احدىٰ الصحف العلمية بأن الضفدعة تنجذب الى مناجاة الحب الرخيمة التي تصدر عن صغار الضفادع الذكور في حين تنفر من الصوت الأجش الذي يتميز به الضفدع الكبير .

وقد أثار هذا الموقف ذكور الضفادع الكبار فراحت تستعمل الحيلة للتمويه. فتقصد المواقع المتميزة ببرودتها ، وعملية الابتراز هذه تؤثر على الحبال الصوتية للضفدع وتجعل صوته خفيضاً رخياً . واذ ذاك يبدأ الغناء من مخبئه فتتصور الاناث ان الصوت لضفدع ناشيء . وكثيراً ما تنجذب الى اتجاه الصوت بعد حلول الظلام ، وخاصة في الليالي العاصفة الماطرة التي تنعدم فيها الرؤية . . وتصبح فرصة الضفدع الكبير مؤاتية للوصول الى مناه !

وثمة تجربة أجراها أحد العلماء وهو مختص بعلم الحيوان ، فقام بتسجيل صوت ضفدع طوله ٢,٧ انش وبتسجيل آخر لضفدع صغير لا يتجاوز سُبْع الانش ، فاسمع التسجيل الاول لأربع عشرة ضفدعة ، فكان ان نفرت من

---

(١) البحار ج٣ ص٣٧ .

الصوت الأجش المرتفع وابتعدت عن ضفة البركة . وبعد فترة اسمعها التسجيل الاخر فانجذبت اليه واقتربت من مصدره .

ونتيجة هذه التجربة دلت على ان الضفدع الكبير يكتسب خبرة مع الزمن ويصبح مدركا لما تفضله انثى الضفدع ، لذلك يعمد الى المكر والحيلة والابتزاز مما يجعل صوته خفيضاً وشبه منحدر .

وفي تجارب مماثلة وجد أحد العلماء ان خمسة من الضفادع الكبار من اصل ثمانية (في احدى برك نورث كارولينا) كانت تقصد الاماكن الباردة في حين تقصد الصغار الاماكن الدافئة المحاذية لضفة البركة .

١٥
مملكة النحل

رائع ومدهش عالم النحل ، انه عبارة عن مجتمع ذي دورة حياتية متكاملة ، اقتصادياً واجتماعياً ، حيث لا تضخم ولا غلاء وعلى الاخص : لا بطالة ! فهنا لكل نحلٍ عمله ، والكل دائماً في حركة : بحيث ان ادق وصف لخلية النحل هو تشبيهها بـ : خلية النحل !

اليست خلية النحل نموذجاً مثاليا تشبه به ورشات العمل البشرية المتواصلة الحركة ؟!

مثلاً مملكة النحل : هذه تخرج لجمع المواد الخام الرحيق . هذه تستلمها وتوضبها . هذه تصنفها . وهذه لتوزيع الغذاء ، وهذه للتمريض ، وهذه للصيانة . . وتلك هي الملكة ، رأس السلطة التنظيمية العليا ، التي بها يبدأ وبها ينتهي كل شيء . . فبعكس المجتمعات البشرية ، والحيوانية لا يوجد تمييز بين الذكور والاناث بل انّ الذكر يموت بعد أن يخصِّب الانثىٰ التي تحبل وتبيض وتفرخ اناثاً جددا ، وذكورا جددا ، ليخصبوا ويموتوا ، ولتستمر حياة المملكة ،

التوازن الديموغرافي !

من المعروف ان عدد سكان الارض يتزايد تبعاً لنظرية مالتوس بنسبة رياضية مركبة (٢ ، ٤ ، ٨) في حين ان كمية الموارد الغذائية تتزايد بنسبة حسابية بسيطة (١ ، ٢ ، ٣) مما يعني حسب تقارير الخبراء الدوليين ، ان البشرية ستقترب من ذروة الانفجار السكاني مع حلول العام ٢٠٠٠ حيث سيقع المجتمع البشري كله فريسة ازمة مجاعة فتاكة .

وفيما البشرية جاهدة في مساع دؤوبه لاحتواء هذه « القيامة » المنتظرة ، تارة بالدعوة الى الحد من النسل ، وتارة بالتفتيش عن موارد جديدة للغذاء ، فان مجتمع النحل قد توصل ـ ومنذ البداية ـ الى حل تاريخي جذري لهذه المعضلة . . . ذلك ان من بديهيات النحل ان تعمل على تأمين الغذاء أولاً ومن ثم ، وعلى اساس كميات الغذاء ، تحدد عدد المواليد الجدد

وهكذا ومع بدايات كل ربيع ، تبدأ الملكة بتنظيم عملية تشييد « المجمعات السكنية » التي هي عبارة عن غرف مبنية بالشهد ومملوءة برحيق الازهار الذي يجمعه الفريق المختص والذي يقوم فريق التصنيع بتحويله الى عسل يوزع على الغرف المشيدة بحيث تكون كل غرفة (من قرص العسل ، حيث مملكة النحل) معدة لاستقبال نحلة جديدة . . . وبالطبع تتوسع مساحة وعدد غرف المملكة ، أو تتقلص ، حسب سخاء الموسم أو جفافه . وبالتالي تقوم الملكة بتحديد عدد بويضاتها على اساس عدد الغرف التي يكون « الشعب العامل » قد فرغ من تشييدها وتجهيزها بالغذاء .

الطلعات الجوية

تبدأ ورشة عمل النحل قبل شهر واحد من حلول الربيع حيث تباشر

النحلات العاملات القيام بطلعاتها الجوية الدورية . تحط النحلة العاملة على الزهرة ، ترشق رحيقها فيما تمزق قوائمها الخلفية الغشاء الشفاف للبرعم ناقلة ذرات اللقاح الى الزهرة التالية . وهكذا ، ففيما تساهم النحلة بدون ان تدري ، بعملية الاخصاب النباتي ، يكون مخزونها من الرحيق قد تزايد بحيث أنها عندما تعود الى قرص المملكة تكون منتفخة متورمة وكأنها حبلى بكمية الرحيق الوافر ، ذلك ان النحلة الواحدة تغير في الطلعة الجوية الواحدة ، على عدد يتراوح ما بين ٤٠٠ و٥٠٠ زهرة .

تعود النحلة العاملة الى قاعدتها إذن ، سالمة ، مثقلة ، تفرغ محصولها في إحدى غرف القرص الشاغرة وهنا تأتي نحلة اخرى ، عاملة في فريق التوضيب ، فتقوم بحركات تحويم معيّنة مستخدمة رأسها في توضيب العسل وحشوه بشكل دقيق داخل الحجرة .

وفي حال امتلاء كافةحجرات المملكة ، عندما يكون الموسم جيداً والرحيق وافر ، تعطي الملكة أوامرها الى فريق الصيانة الذي يقوم بتشييد حجرات اضافية أو بهدم الحجرات الزائدة في الحالة المعاكسة .

خامساً ـ إنّ الحياة ليست ساكنة . ولو كانت ساكنة لكان من الممكن أن يدعي بعض السذج البسطاء انها ليست مخلوقة لاحد . ولكن ما دامت في حركة دائمة كان من المستحيل أن تكون غير خاضعة لارادة خالق .

ان الساعة التي تعمل ضمن أبعاد مجزئة على الزمن لا تعمل إلاّ بعد أن يملأها الانسان . . . ولا يمكن ادعاء ان حركتها ليست نتيجة تحرك ، حتى الساعات الاوتوماتيكية انما تعمل ما دامت متعلقة بيد متحركة ، فاذا انفصلت عن اليد ، فانها ستتوقف عن العمل بعد وقت قصير .

اذن : فلا بد أن يكون للحياة المحركة بشكل دائم ، خالق يضفي عليها

الحركة ، ويأخذها عندما يريد .

لقد سُئلت امرأة بدوية كانت تغزل في مغزل بسيط عن دليلها على وجود الله ، فتوقفت عن تحريك مقبض المغزل وقالت : دليلي هو توقف المغزل .

وعندما قالوا : وكيف ذلك ؟

أجابت : إذا كان مغزل بسيط لا يتحرك إلا بوجود محرّك فهل يمكن أن يتحرك الفلك الدوار بلا محّرك ؟

يقول الامام علي (عليه الصلاة والسلام) : ولو فكروا في عظيم القدرة ، وجسيم النعمة لرجعوا إلى الطريق ، وخافوا عذاب الحريق ، ولكن القلوب عليلة ، والأبصار مدخولة . أفلا ينظرون الى صغير ما خلق ؟ كيف أحكم خلقه ، وأتقن تركيبه ، وفلق له السمع والبصر ، وسوى له العظم والبشر ؟

انظر الى النملة في صغر جثتها ، ولطافة هيئتها لا تكاد تنال بلحظ البصر ولا بمستدرك الفكر كيف دبت على أرضها وضنت على رزقها . . .

لو فكرت في مجاري أكلها ، وفي علوها وسفلها وما في الجوف من شراسيف بطنها ، وما في الرأس من عينها واذنها لقضيت من خلقها عجباً ولقيت من وصفها تعباً . . .

فانظر الى الشمس والقمر ، والنبات والشجر ، والماء والحجر ، واختلاف الليل والنهار ، وتفجر هذه البحار ، وكثرة هذه الجبال ، وطول هذه القلال ، وتفرق هذه اللغات والألسن المختلفات .

فالويل لمن انكر المقدر ، وجحد المدبر ، زعموا انهم كالنبات ما لهم من زارع ، ولا لإختلاف صورهم صانع ، لم يلجؤوا إلى حجة فيما ادّعوا ، ولا تحقيق لما أوعوا ، وهل يكون بناءٌ من غير بان أو جناية من غير جان ؟![1] .

---

(١) البحار ج٣ ص٢٦ .

وقال الله (تعالى) :

﴿هو الذي أنزل من السماء ماءً لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون * ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والاعناب ومن كل الثمرات ان في ذلك لاية لقوم يتفكرون * وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ان في ذلك لآيات لقوم يعقلون﴾[1] .

يقول الله تعالى :

﴿ان في خلق السماوات والارض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما انزل الله من السماء من ماءٍ فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابّةٍ وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والارض لآيات لقوم يعقلون﴾[2] .

سادساً ـ إذا لم نؤمن بالله. فلا بد أن نؤمن بأن الصدفة العمياء التي لا تجد لها أي تفسير معقول هي التي خلقتنا . أي بدل أن نؤمن بان عالماً حكيماً قادراً هو الذي خلقنا ، نؤمن بأن جاهلاً عاجزاً أعمى هو الذي خلق الانسان واعطاه الفهم والقدرة والعقل ؟

وهذا يشبه إلى حد بعيد ان يكفر الواحد منا بأن للسيارة ذات الموديل ٧٢ مصنعاً متقناً ينتجها ، ويؤمن بدل ذلك بأن حماراً وحشياً في غابات أفريقيا هو الذي يصنعها . أو أن يكفر الواحد منا بأن الطعام اللذيذ الذي يجده على المائدة من صنع طباخ ماهر ، ويؤمن بدل ذلك بأن « قطة » البيت هي التي صنعته .

ثم . . ما هي الصدفة ؟

---

(١) سورة النحل الاية ١٠ ـ ١٢ .

(٢) سورة البقرة ـ الاية ١٦٤ .

يقولون : انك وجدت هكذا صدفة . والكون كلّه وجد صدفة . ثم وجد الانسان صدفة ووجدت فيه الغرائز صدفة وبحث عن الزوجة صدفة . . . ووجدت في هذه الأثناء فتاة قريبة منه صدفة . وتزوّجها صدفة . وانعقدت عنده النطفة صدفة . وتناسل الزوجان صدفة . فتزوّج ابوك من أمك صدفة . وخلقت أنت أيضاً صدفة . وبدأت تأكل الطعام صدفة . ونمت جوارحك صدفة . ودخلت المدرسة صدفة . وتعلمت القراءة والكتابة صدفة ، واشتريت هذا الكتاب صدفة . وجلست تطالعه صدفة ، والكتاب هو الآخر قد الف صدفة . والمطبعة التي طبعته وجدت صدفة ، والعامل رتب الحروف صدفة . والورق جاء الى المطبعة صدفة . ووضع إسمي على الغلاف صدفة . . صدفة في صدفة في صدفة . .

هل يقبل العقل ذلك . ؟

إذا كان كل شيء في الحياة يسير حسب الصدفة فلماذا يعاقب المجرمون ؟ ليفترضوا أن الصدفة هي التي جرتهم إلى ارتكاب الجرائم ؟

ولماذا يكرمون العلماء والمخترعين ؟ ليفترضوا أن العلم حصل عندهم صدفة . . وأن أعمالهم جاءت صدفة . وانهم اكتشفوا ما اكتشفوا صدفة . . هل يمكن . ؟

ثم أن هذه الصدفة التي تبدو كشاردة غير منتظرة وغير خاضعة لأية طريقة من طرق الحساب والبحث العلمي ، تخالف تماماً كل العلوم الرياضية .

لنفترض أن معك كيساً تحتوي على مائة قطعة خشبية تسع وتسعون منها سوداء وواحدة بيضاء والآن هزَّ الكيس ، واسحب منه واحدة . أن فرصة أن تسحب القطعة البيضاء في المرة الأولى هي بنسبة واحد إلى مائة . والآن أعد قطع الخشب الى الكيس وابدأ السحب من جديد : انّ فرصة سحب القطعة البيضاء لا تزال بنسبة واحد إلى مائة ، غير أن فرصة سحب القطعة البيضاء

مرتين متواليتين هي بنسبة واحد إلى عشرة آلاف ١ / ١٠٠٠٠

والان جرّب مرة ثالثة : ان فرصة سحب تلك القطعة البيضاء ثلاث مرات متوالية هي بنسبة مائة إلى عشرة آلاف ، أي بنسبة واحد إلى المليون .

ثم جرِّب مرَّة أخرى أو مرتين تصبح الارقام فلكية ، أي بنسبة واحد إلى أربعة « ترليونات » يعني ان تعيش أيها القارىء العزيز مدة خمسين الف سنة تعد الارقام ليلاً ونهاراً بشكل تعد في كل دقيقة ١٥٠ عدداً من دون ان تنتهي !

فهل تقبل الان ان كل شيء رتب في السموات والارض صدفة ؟

ان كل شيء في الحياة يبدو أنّه قد وضع في محله الخاص بحيث لو غيرت مكان أي جزءٍ من جزيئات أصغر ذرة ، أو أصغر جينة لتبدل الشيء الكثير . وهذا يعني ان كل شيء في الحياة له هدف معين وليس صدفة . وواضح أن اللاشيء والفراغ - كما تعنيهما الصدفة - ليسا أحياء ، والميت - فكيف باللاشيء - لا يمكن ان يحمل هدفاً .

وإذا كان كل جُزَيء من جزيئات الكون ذو هدف محدد فهل يمكن أن يكون الكون كله بلا أهداف .

ان من الغريب حقا : ان يؤمن البعض بصدفّية الكون بالرغم من كل آثار التعقل الموجودة فيه ، ولكنه عندما يواجه أصغر شيء يقوم بالبحث عن أسباب وجوده في مكانه الخاص . وهذا يعني انه عملياً مؤمن بهدفية خلق الكون في الاجزاء ، ولكنه نظرياً يؤمن بلا هدفية خلق الكون في مجموعه .

إن الطبيب الملحد قد يحرق عمره كله وهو يبحث عن علة وجود غدة صغيرة معينة في مكان ما من جسم الانسان ، وهذا يعني انه يرفض الايمان بالصدفة في أبسط الاشياء ، بدليل انه يظل يبحث وينقب حتى يكشف أهداف وجود الغدة ولا يقبل أن يؤمن بأنها وجدت عن طريق الصدفة .

فكيف اذن يؤمن بالصدفة في خلق الكون كله ؟

سابعاً ـ ان الطبيعة تنمو عادة نحو البقاء لو لا إرادة الله التي تفرض عليها الموت .

إذ لو لم تكن هناك إرادة عليا تفرض عليها الموت بقي كل شيء حسب الطبيعة على حاله .

فالشجرة التي تنمو في الحقل لا داعي إلى ان تموت لو قلنا انها وجدت على ظهر الارض بنفسها .

والجبل الذي يجثو على صدر التراب يجب أن لا يتغير خلال الاعوام والسنين ، وحتى البيت الذي نحن نبنيه يلزم ان لا يتهدم ، وإن مرت عليه ملايين السنوات .

فالموجود يجب أن يبقى موجوداً .

والمعدوم يجب أن يبقى معدوماً .

وكما ان تبدل « اللاشيء » إلى « شيء » لا يمكن ان يتم إلا عن طريق خالق ، كذلك فان تبدّل « الشيء » إلى « اللاشيء » لا يمكن ان يتم إلا عن طريق الخالق .

وهكذا يكون الموت أحد الأدلة على وجود الله كما أن الحياة هي الأخرى دليل عليه .

يقول الله تعالى :

﴿تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير* الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً وهو العزيز الغفور﴾[1] .

---

(١) سورة الملك الاية ١ ـ ٢ .

ثم ما هي الطبيعة ؟

من حديث المفضل عن الصادق (عليه الصلاة والسلام) . . . قال المفضل : فقلت : يا مولاي ان قوماً يزعمون ان هذا من فعل الطبيعة ؟ فقال (عليه الصلاة والسلام) : « سلهم عن هذه الطبيعة أهي شيء له علم وقدرة على مثل هذه الافعال ، أم ليست كذلك ؟ فان اوجبوا لها العلم والقدرة فما يمنعهم من إثبات الخالق ؟ فإن هذه صنعته ، وان زعموا انها تفعل هذه الافعال بغير علم ولا عمد ، وكان في افعالها ما قد تراه من الصواب والحكمة ، عُلم أن هذا الفعل للخالق الحكيم ، وأن الذي سموه طبيعة هو سنة في خلقه الجارية على ما أجراها عليه »[1] .

وقال الصادق (عليه الصلاة والسلام) أيضاً :

« فأما أصحاب الطبائع فقالوا : ان الطبيعة لا تفعل شيئاً بغير معنىً ولا تتجاوز عما فيه تمام الشيء في طبيعته ، وزعموا أن الحكمة تشهد بذلك فقيل لهم : فمن أعطى الطبيعة هذه الحكمة والوقوف على حدود الاشياء بلا مجاوزة لها ، وهذا قد تعجز عنه العقول بعد طول التجارب ؟ فإن أوجبوا للطبيعة الحكمة والقدرة على مثل هذه الافعال ، فقد أقروا بما أنكروا لأن هذه هي صفات الخالق ، وإن أنكروا ان يكون هذا للطبيعة فهذا وجه الخلق يهتف بأن الفعل لخالق حكيم»[2] .

---

(١) البحار ج ٣ ص ٦٧ .

(٢) البحار ج ٣ ص ١٤٩ .

بــاءُ

اللهُ وَاحِــد ؟

عرفنا أن للكون خالقاً ، ولكن هل الخالق واحد أم أكثر من واحد ؟

والجواب ــ اننا عندما نلاحظ تكوين المجموعة الشمسية نجد أن الشمس تقع في مركز المجموعة بحيث تقع بقية الكواكب في الاطراف وتدور حول الشمس ضمن مدارات خاصة ، ونجد بين الشمس وكواكب المجموعة فراغات محددة .

وعندما نلاحظ تكوين « الذرة » التي تتألف منها أشياء الكون نجد انها تتكون من « كهربائية موجبة » تسمى « البروتونات » تقع في مركز الذرة . ومن « كهربائية سالبة » تسمى « الكترونات » تقع في الاطراف وتدور حول النواة بسرعة ٢٠٠٠ كيلو متر في الثانية الواحدة . ونجد أن بين مركز الذرة « النواة » وبين الالكترونات فراغات محددة . .

وبالمقارنة بين الذرة والمجموعة الشمسية نلاحظ أن نسبة مسافة البعد بين نواة الذرة والالكترونات إلى قطر الذرة تساوي بالضبط نسبة مسافة البعد بين الشمس والارض إلى قطر المجموعة الشمسية . ونلاحظ أيضاً أن نسبة وزن نواة الذرة إلى وزن مجموع الذرة تساوي نسبة وزن الشمس إلى وزن المجموعة الشمسية ، إذ أن كلاً من وزني الذرة والشمس يساوي ٩٩,٩ ٪ من وزن مجموعتها .

وهكذا نجد أن الذرة تشبه من حيث التكوين أو المسافة ، والوزن المجموعة الشمسية ، مع حفظ النسبة طبعاً . وهذا التشابه بين أصغر الكائنات وأكبرها يدل

بوضوح على ان خالق الذرة هو خالق المنظومة الشمسية ، إذ لو كان هناك إلهان خالقان ، لكان قد وقع الاختلاف بين مخلوقاتهما . يقول القرآن الكريم : **﴿إن إلهكم لواحد * رب السماوات والأرض وما بينهما ورب المشارق﴾**[1] .

هذا ومن ناحية اخرى : فإننا نجد ترابطاً كونياً بين كل القوانين الحاكمة ، فالجاذبية كقانون ، تنسجم تمام الانسجام مع التوازن السطحي ، كقانون كذلك ، وكلاهما ينسجمان مع القوانين الأخرى . وهذا يدل بوضوح على وحدة الخالق تماماً كما أن ترابط اجهزة « السيارة » وانسجام بعضها مع بعض دليل على وحدة المصنع الذي ينتجها .

وواضح أن قضية الترابط ليست خاصة بالأرض وحدها وانما تلف العالم كله ، فقوانين الارض تنسجم ولا شك مع قوانين الشمس ، وقوانين الشمس تنسجم مع قوانين الكرات الأخرى . وهكذا الأمر بالنسبة إلى المنظومات والمجرات والمدن النجومية . . الخ .

يقول الامام الصادق (عليه الصلاة والسلام) :

« أول العبر والادلة على الباري جل قدسه تهيئة هذا العالم وتأليف أجزائه ونظمها على ما هي عليه ، فإنك إذا تأملت العالم بفكرك وميزته بعقلك وجدته كالبيت المبني المعد فيه جميع ما يحتاج إليه عباده ، فالسماء مرفوعة كالسقف ، والأرض ممدودة كالبساط ، والنجوم منضودة كالمصابيح ، والجواهر مخزونة كالذخائر ، وكل شيء فيها لشأنه معد ، والانسان كالمملك ذلك البيت ، والمخول جميع ما فيه ، وضروب النبات مهيأة لمآربه ، وصنوف الحيوان ، مصروفة في مصالحه ومنافعه ، ففي هذا دلالة واضحة على أن العالم مخلوق

---

(١) سورة الصافات الآية ٤ ـ ٥ .

بتقدير وحكمة ، ونظام ، ملاءمة ، وان الخالق له واحد »[1] .

يقول القرآن الكريم :

﴿الذي خلق سبع سماوات طباقاً ، ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور﴾[2] .

هل هناك لا انسجام بين القوانين الحاكمة على الحياة ؟

﴿ثم ارجع البصر كرتين ينقلب اليك البصر خاسئاً وهو حسير﴾[3].

كرر الملاحظة ، تجد مخلوقات الله كلها تترفع عن الاختلال ، بينما لو كان هناك إله آخر لأنعدم الترابط ومن ثم وقع الاختلال .

﴿لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا﴾[4] .

ان اختلالاً بسيطاً في نظام الذرة يكفي لتدمير مدينة كاملة بدليل ما تفعله « القنابل الذرية » من تدمير وخراب عن طريق إحداث اختلال في حركة الالكترونات ، وهذا يعني أن الكون كله يخضع لنظام واحد ، ولا يمكن ذلك إلا إذا كان الذي فرضه واحداً أحداً .

يقول القرآن الكريم :

﴿أمن يبدأ الخلق ثم يعيده ؟، ومن يرزقكم من السماوات والأرض ؟ ءأله مع الله .؟ قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين﴾ [5].

---

(١) البحار ج ٣ ص ٦١ .

(٢)،(٣) سورة الملك الاية ٣ ـ ٤ .

(٤) سورة الانبياء الاية ٢٢ .

(٥) سورة النمل الآية ٦٤.

﴿قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا أشهدوا بانا مسلمون﴾(١) .

ويقول الله (تعالى) :

﴿قل يأ أيها الناس ان كنتم في شك من ديني فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله ، ولكن أعبد الله الذي يتوفاكم وامرت ان أكون من المؤمنين * وان أقم وجهك للدين حنيفاً ولا تكونن من المشركين * ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك فإن فعلت فإنك إذاً من الظالمين﴾(٢) .

وبالاضافة الى ذلك فاننا لا نجد أي داع إلى الايمان بتعدد الآلهة ما دام لم نجد أي أثر لغير الله . مع أنه لو كان هناك إله آخر لعرفناه بآثاره وملائكته وكتبه ورسله .

إذا كان في المدينة رئيسان للبلدية ، فلا بد أن يعرف الناس بسهولة وجود شخصين يحكمان قضايا المدينة العمرانية وذلك لسبب ما يقع بين الرئيسين من اختلاف حول كيفية تنظيم الشئون البلدية .

فالآثار التي تترتب على وجود رئيسين للبلدية لا بد أن تكشف عن رئيسين مستقلين في إدارة المدينة .

وهكذا لو فكرنا في أمر هذا الكون فإننا حينما لا نشاهد فيه مخلوقات وآثار تنسب لغير الله تعالى ندرك أن الله واحد لا شريك له ، لأنه لو كان له شريك لعرفناه عن طريق مخلوقات خاصة تنسب اليه ، وآثار معينة تدل عليه . وحيث لم يكن في الكون من المخلوقات ما تنسب إلى غير الله ، ولم يكن فيه من الآثار ما

---

(١) سورة آل عمران الآية ٦٤ .

(٢) سورة يونس الاية ١٠٤ ـ ١٠٦ .

تدل على غير الله ، ندرك أن الله واحد لا شريك له .

يقول الإمام علي (عليه الصلاة والسلام) في وصيته للامام الحسن (عليه الصلاة والسلام) :

« واعلم يا بني أنه لو كان لربك شريك لأتتك رسله ولرأيت آثار ملكه وسلطانه ولعرفت أفعاله وصفاته ، ولكنه إله واحد كما وصف نفسه »[١] .

ويقول القرآن الكريم :

﴿ما اتخذ الله من ولد ، وما كان معه إله . إذن . . لذهب كل إله بما خلق ، ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون﴾[٢] .

ويقول الله (عز وجل) :

﴿لا تتخذوا إلهين اثنين إنما هو إله واحد فإياي فارهبون﴾[٣] .

وقد يتساءل البعض : ما الدليل على ان الله واحد ؟

لقد سبق وان سأل زنديق هذا السؤال من الامام الصادق (عليه الصلاة والسلام) حيث قال : لم لا يجوز أن يكون صانع العالم أكثر من واحد ؟ فقال أبو عبد الله (عليه الصلاة والسلام) : «لا يخلو قولك : إنهما إثنان من أن يكونا قديمين قويين ، أو يكونا ضعيفين ، أو يكون أحدهما قوياً والآخر ضعيفاً ، فإن كانا قويين فلم لا يدفع كل واحد منهما صاحبه ويتفرد بالربوبية ؟ وإن زعمت أن أحدهما قوي والآخر ضعيف ثبت أنه واحد ـ كما نقول ـ للعجز الظاهر في الثاني ، وإن قلت : إنهما اثنان لم يخل من أن يكونا متفقين من كل جهة ، أو

---

(١) نهج البلاغة ج ٣ ص ٤٤ .

(٢) سورة المؤمنون الآية ٩١.

(٣) سورة النحل الاية ٥١ .

مفتـرقين من كـل جهة ، فلما رأينـا الخلق منتظماً ، والفلك جـاريـاً ، واختـلاف الليل والنهار والشمس والقمر ، دل صحة الأمر والتدبـير وايتلاف الأمـر على أن المدبر واحد »[1] .

ولقد سأل رجل من الثنوية أبا الحسن علي بن موسىٰ الـرضا (عليـه الصلاة والسلام) فقال لـه : إني أقول : إن صـانع العـالم اثنان ، فـما الدليـل على أنـه واحد ؟ فقال (عليه الصلاة والسلام) : « قولك: إنه اثنان دليل عـلى أنه واحـد لأنك لم تدع الثاني إلا بعد إثبـاتك الـواحد ، فـالواحـد مجمع عليـه ، واكثر من واحد مختلف فيه »[2] .

وهنا يبرز سؤال : ماذا يترتب على الايمان بوحدة الله ؟

والجواب : الذي يترتب هو لزوم الخضوع المطلق له . إذ لو كان هناك إله آخر غير الله . لأمكن أن يفكر العاصي بالعصيان على أساس أنه يستطيع اللجوء إلى الاله الآخر ، ولكن ما دام هناك إله واحد « الأرض جميعاً قبضته » والمعاد في الأخير اليه ، فان على الانسان أن يضع في حسابه كلما هم بارتكاب المعصيـة أن لا ملجأ من الله إلا اليه ، وأنه « لا يمكن الفرار من حكومته »

يقول الامام علي (عليه الصلاة والسلام) في وصيتـه للامـام الحسن (عليه الصلاة والسلام) :

« . . لا يضـاده في ملكـه أحـد ، ولا يـزول ابـداً ، ولم يـزل . أول قبـل الأشياء بلا أولية (فهو أول الاشياء باعتبار أنه كـان قبلها ، ولكن لا ابتـداء له) وآخر بعد الأشياء بلا نهاية . عَظُمَ عن أن تثبت ربوبيته باحاطة قلب أو بصر .

---

(١) البحـار ج ٣ ص ٢٣٠ .
(٢) البحـار ج ٣ ص ٢٢٨ .

فـإذا عـرفت ذلك فافعـل كما ينبغي لمثلك أن يفعله في صغـر خطره ، وقلة مقـدرته ، وكثـرة عجزه ، وعـظيم حاجتـه إلى ربه في طلب طـاعته والـرهبة من عقـوبته ، والشفقـة من سخطه ، فـإنه لم يـأمرك إلا بحسن ، ولم ينهـك إلا عن قبيح »[1].

(١) نهج البـلاغـة ج ٣ ص ٤٤

نَـاءُ
صفَاتُ اللهِ..!

لماذا لا نستطيع أن نرى الله ؟

الـواقع : أن اعضـاء الانسان محـدودة بوظـائف معينـة لا تستـطيـع أن تتعداها ، وهذه « الوظائف المعينة » لم تـوضع من قبـل الإنسان ، وإنمـا فرضت عليه فرضاً .

فالعين لها وظيفة محـددة هي الرؤيـة ، ولذلـك فانها لا تستـطيع أن تسمـع الأصـوات . والاذن لها وظيفـة معينة هي سمـاع الأصوات ، ولـذلـك فـانها لا تستطيع أن تـرى الأشياء . واللمس هـو الآخر لـه وظيفة محـددة هي الاحساس بالشيء ، ولذلك فانه لا يستطيع أن يرى الأشياء أو أن يسمع الاصوات .

وهكـذا فإن كـل عضـو في الإنسـان محـدد بحـدوده الخـاصـة التي لا يمكن التعـدي عنها ، وهي في ذلـك تشبـه قـطع الغيـار التي تتـركب منهـا السيـارة . فالفرامل مثلاً لا تستطيع أن تقوم بوظيفة المقود ، والعجلات لا تستطيع أن تقوم بوظيفة الفرامل . . وهكذا .

إذن : فكـما أن أجزاء السيـارة لا تستطيـع أن تتعدى الحـدود التي حددهـا صانعها ، كذلك الإنسـان لا يستطيـع أن يتعدى بـأعضائـه الحدود التي حـددها خالقه ، فلذلـك نحن لا نستطيـع أن نرى الله ، أو نلمسـه لأن الله أكبر من أن يرى أو يلمس .

لقد قال بعض الزنادقة لابي الحسن (عليه الصـلاة والسلام) : لم احتجب

الله ؟ فقال أبو الحسن (عليه الصلاة والسلام) : « إنّ الحجاب عن الخلق لكثرة ذنوبهم ، فأما هو فلا يخفى عليه خافية في آناء الليل والنهار ، قال : فلم لا تدركه حاسة البصر ؟ قال : للفرق بينه وبين خلقه الذين تدركهم حاسة الأبصار ، ثم هو أجل من أن تدركه الأبصار أو يحيط به وهم أو يضبطه عقل ، قال فحده لي ، قال : إنه لا يحدُّ ، قال : لم ؟ قال : لأن كل محدود متناه إلى حد فإذا احتمل التحديد احتمل الزيادة ، وإذا احتمل الزيادة احتمل النقصان ، فهو غير محدود ولا متزايد ولا متجزٍ ولا متوهمٌ »[1] .

وقال أبو حمزة الثمالي : قلت لعلي بن الحسين (عليه الصلاة والسلام) : لأيّ علّة حجب الله عزّ وجلّ الخلق عن نفسه ؟ قال : «لأنّ الله تبارك وتعالىٰ بناهم بنية على الجهل فلو أنهم كانوا ينظرون إلى الله عز وجل لما كانوا بالذين يهابونه ولا يعظمونه ، نظير ذلك أحدكم إذا نظر إلىٰ بيت الله الحرام أول مرّة عظمه ، فإذا أتت عليه أيام وهو يراه لا يكاد أن ينظر اليه إذا مرَّ به ولا يعظمه ذلك التعظيم»[2] .

ولكن : هذا لا يعني ان الله غير موجود . تماما كما أننا لا نستطيع ان نرى أو نلمس أو حتى نسمع الأمواج والأشعة الكونية لأن قدراتنا عاجزة عن ذلك بسبب اختلاف المقاييس ، مع أنه لا سبيل لانكارها .

ان الله ليس « مادة » لنطالب بتطبيق مقاييس المادة على وجوده . وانما هو خالق المادة والماديات ، وكلها أدلة بارزة عليه .

ترى كيف هو الله ؟ وأين ؟

لقد طرح هذا السؤال على الامام أمير المؤمنين (عليه الصلاة والسلام)

---

(١) البحار ج ٣ ص ٣٧ .

(٢) البحار ج ٣ ص ١٥ .

فقال :ـ

« لا يكيف بكيف ، ولا يؤين بأين ! » .

فـالله لا يمكن ان يدخـل في تحديـد ، فقط نستطيـع أن ننفي عنه العجـز ، والمـوت ، والجهل . . الـخ لانه تعـالى يختلف من حيث الصفات عن الأشيـاء الأخرى ، فهو « عـين الصفات » وليس خـارجاً عنهـا ، أي أنه ليس لله ذات ، وصفات طارئة عليه كما هو في الانسان والحيوان .

فهو : العدل المطلق ، والقدرة المطلقة ، والكمال المطلق .

أنه ﴿أحد﴾ فليس له ثاني .

وهو ﴿صمد﴾ فليس عاجزاً عما يريد .

وهو ﴿لم يلد ولم يولـد﴾فليس الخلق ـ كما تقـول بعض النظريـات الزائفـة ـ صادراً منه كما يصدر النور من المصباح .

وهـو عالم . وقـادر . وحي . ومريـد . ومـدرك . وقـديم . وأزلي . ولكن ليس بالمعنى الذي قد يتبادر إلى أذهاننا من هذه الكلمات ، وانما بمعنى ان الله لا يتصف بالصفات المضادة لهذه الصفات فإذا قلنا « الله عالم » فـلا نعني « العالم » الذي يتحدد في ذهننا وانما نعني انـه ليس جاهـلاً . وهكذا إذا قلنـا الله « قادر » فاننا نعني انه ليس عاجزاً .

صحيح ان الله عالم . . ولكننا لا نستطيع أن نفهم كيفية علمه إلا بأنه ليس جاهلاً .

ذلك لان كل مقاييسنا زائفـة إذا استعملناهـا في الله لأن مقاييسنـا نابتـة من ذواتنا ، فإذا كانت ذواتنا محدودة فان هذه المقاييس تكون حتماً محـدودة ، بينما الله غير محدود .

يقول الامام علي بن موسى الرضا (عليه الصلاة والسلام) : «إلهي بدت قدرتك ولم تبد هيئتك فجهلوك . وبه قدّروك والتقدير على غير ما به وصفوك ، وإني بريء يا إلهي من الذين بالتشبيه طلبوك ، ليس كمثلك شيء إلهي ولن يدركوك ، وظاهر ما بهم من نعمك دليلهم عليك لو عرفوك ، وفي خلقك يا إلهي مندوحة أن يتناولوك ، بل سوّوك بخلقك فمن ثم لم يعرفوك ، واتخذوا بعض آياتك ربّاً فبذلك وصفوك ، تعاليت ربي عمّا به المشبّهون نعتوك»[1] .

ان الله كما يقول الإمام علي (عليه الصلاة والسلام) « لم يطلع العقول على تحديد صفته » ولكنه ايضاً « لم يحجبها عن واجب معرفته » فهو « الذي تشهد له اعلام الوجود » .

فلا تشوب الله أية شائبة للمادة ولا يمكن تحديده بأية صفات . فقط يمكن التعرف عليه من خلال مخلوقاته ومن هنا كان « كمال الاخلاص له نفي الصفات عنه لشهادة كل صفة انها غير الموصوف ، وشهادة كل موصوف انه غير الصفة » .

ان صفات البشر انما تتحقق باضافتها إلى الأشياء فانا عالم بمعنى ان علمي قد وقع على شيء ما فأصبح ذلك الشيء معلوماً لي وأنا قادر بمعنى أن بامكاني أن أفعل ما أريد بالنسبة إلى الأمر المقدور لي .

ولكن صفات الله باعتبارها عين ذاته تتحقق بنفسها ولا تحتاج إلى اضافتها إلى شيء . فالله عالم لا بمعنى ان هناك معلوماً لأن علم الله أزلي ، وليس طارئاً فهو « عالم إذ لا معلوم » و « قادر إذ لا مقدور » ، كما يقول الامام علي (عليه الصلاة والسلام) .

ان الله « دال على وجوده بخلقه » و « بمحدث خلقه ، على ازليته » و

---

(١) البحار ج ٣ ص ٢٩٣ .

« باشتباههم على ان لا شبه له » . فما دام هناك موجود فلا بد ان يكون له « موجد » وما دام هناك « حادث » فلا بد ان يكون له « محدث أزلي » وما دام هناك تشابه بين الخلق فلا بد أن لا يكون شبه للخالق . لأنه ما دام هناك نقص فلا بد أن يكون إلى جنبه « كمال » تماماً كما ان البيت الناقص دليل على وجود بيت كامل . والحرارة دليل على وجود البرودة ، والضد دليل على الضد .

هكذا تقول فطرة الانسان . فإذا رأينا أن كل انسان ناقص . في قدرته ، وفي حكمته ، وفي حياته ، وفي عدله ، وفي غناه فلا بد أن يكون خالقه ـ تعالى ـ كاملاً في القدرة والحكمة والعدل والغنى .

ولكن كيف . ؟

لا نعرف .

كما لا نعرف الأشياء التي نعيشها . حتى الكتاب الذي بين يديك لا تستطيع أن تعرفه .

قد تقول : اعرف الكتاب ، إنه ورق وحبر .

حسناً ، فما هو الورق ؟

تقول: إنه ذرات .

فما هي الذرة ؟

تقول : الكترونات .

ولكن ما هو الالكترون ؟

لا تعرف .

ليس هذا فقط ، فحتى أمورنا التي نمارسها يومياً لا نعرفها فنحن نفكر ،

ولكن ما هو الفكر ؟

ونحن نمشي . ولكن ما هو العمل العضلي ؟

لا احد يعرف ذلك .

ان الارادة ، هي غير مادية، وان خصائص النفس غير مادية ومع ذلك فمتى اراد الانسان فإن ارادته تحرك اجزائه المادية ، فكيف يحدث ذلك ؟

ما هو الوسيط الذي يتوسط بين القوى العقلية ، وبين النتائج المادية ؟

لا يوجد من يستطيع ان يجيب على هذا . .

وحتى اعمالنا العادية هي غير مفهومة لنا . مثلاً نحن نرى الأشياء عن طريق العين ، ولكن كيف ينقل العصب البصري صور الأشياء إلى العقل ؟ . ثم كيف يدرك العقل هذا ؟ . وأين مستقره ؟ . وما هي طبيعة العمل العقلي ؟ .

لا نعرف .

وإذا لم نستطع أن نعرف انفسنا ، وذواتنا ، وروحنا التي بين جنبنا ، فكيف نريد أن نعرف كنه الله بمقاييسنا وعقولنا الناقصة ؟

يقول الامام علي (عليه الصلاة والسلام) وهو يصف الله :

« لا تستلمه المشاعر . ولا تحجبه السواتر لا فتراق الصانع والمصنوع ، والحاد والمحدود ، والرب والمربوب ، الأحد لا بتأويل عدد ، والخالق لا بمعنى حركة ونصب (تعب)، والسميع لا بأداة ، والبصير لا بتفريق آلة (تفريق الاجفان وتحريكها)، والشاهد لا بمماسة ، والبائن لا بتراخي مسافة (بعد المسافة)، والظاهر لا برؤية ، والباطن لا بلطافة (والخفي لا بسبب كونه دقيقاً) » .

« بان من الأشياء (وامتاز منها) بالقهر لها والقدرة عليها ، وبانت

الأشياء منه بالخضوع له والرجوع إليه » .

« من وصفه فقد حدَّه (جعل له حداً) ومن حدَّه فقد عدَّه ، ومن عدَّه فقد أبطل أزله » .

« ومن قال : كيف ؟ فقد استوصفه » .

« ومن قال : أين ؟ فقد حيزه (جعل له مكاناً معيناً) »[1] .

ويقول أيضاً :

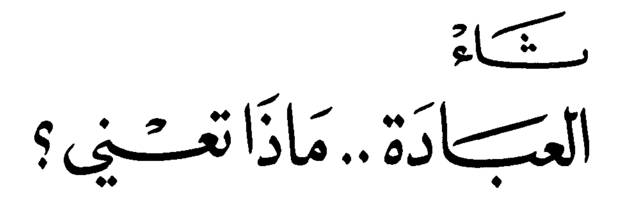
« لا تدركه الحواس فتحسّه، ولا تلمسه الأيدي فتمسه . ولا يتغير بحال ، ولا يتبدل بالأحوال ، ولا تبليه الليالي والأيام ، ولا يغيره الضياء والظلام ، ولا يوصف بشيء من الأجزاء ، ولا بالجوارح والأعضاء . . . ولا يقال له حدّ ولا نهاية ، ولا انقطاع ولا غاية . . . ليس في الأشياء بوالج (داخل) ولا عنها بخارج . . . يقول لمن أراد كونه : كن فيكون ، لا بصوت يقرع ، ولا بنداء يسمع ، وانّما كلامه سبحانه فعل منه »[2] .

هذا هو الله الذي نعبده . ليس مادة ، ولا تشبهه مادة وهو معلوم بآثاره ، ولا يمكن معرفته بذاته وصفاته لان قدرة الانسان أعجز من ذلك .

---

(١) نهج البلاغة ج ٢ ص ٤٠ .

(٢) نفس المصدر ص ١٢٢ .


العبادة.. ماذا تعني؟

عبادة الله لا تعني مجرد الركوع والسجود له . فكم هم الذين ينحنون أمام الله وهم في الواقع ، يعبدون الشيطان ؟

ان العبادة التي يريدها منا الخالق ـ المنزه عن المادة ـ تعني الخضوع المطلق له في كل شيء ابتداءاً من العقيدة ، وانتهاءاً بالسلوك والعمل والنظام .

ويخطىء أولئك الذين يفترضون ان الله سيكتفي منهم بالركوع والسجود إذا كانوا لا يعبدون الله في منهاجه الذي رسمه لهم في الحياة .

يقول الحديث الشريف :

قال الله تعالىٰ في الحديث القدسي :

« يا عبادي الصديقين ! تنعموا بعبادتي في الدنيا ، فإنكم بها تتنعمون في الآخرة »[1] .

ان عبادة الله شرف عظيم لا يسعد به إلا من رفض عبادة الماديات الزائلة والمصالح الذاتية . وهي لا تتم إلا باتقاء الله كما قال الإمام علي (عليه الصلاة والسلام) .

« . . . اتق الله كأنك تراه ، فان كنت لا تراه فانه يراك » .

أي ان نتصور وجوده عند اتخاذ أي قرار ، وعند القيام بأية خطوة . نتقيه في سلوكنا . وفي فكرنا ، وفي نظامنا نتصور اننا نراه ، فان كنا لا نراه ، فعلينا

---

(١) كلمة الله ص ٢٥٧ .

ان نتقيه أيضاً لانه يرانا حتماً .

ولا يعني التقوى هنا الخوف منه ، وانما يعنى الخوف من مخالفته ، ويعني التمسك بمبادئه . والقيام بعبادته .

ولكن كيف ؟

قبل ان نجيب على ذلك لا بد أن نتذكر الحقائق التالية :

واحد ـ إن الله عندما خلق الانسان لم يتركه سدى وإنما وضع له منهاجاً شاملاً في الحياة ، وهو المنهاج الذي لو أخذ به الانسان لم يجد أية حفرة للشقاء في طريقه .

وهذا المنهاج يشمل :

أ ـ خرائط للسلوك الشخصي .

ب ـ خرائط للنظام الاجتماعي .

ج ـ خرائط للنظام العام .

بالاضافة إلى مجموعة مبادىء واقعية عن الكون والحياة تعتبر كأرضية لتلك الخرائط .

فليس الدين مجرد طقوس شكلية ، ولا عدة أمور سلبية ، ولا مجموعة قضايا فكرية .

ان الدين هو الطريقة الافضل للحياة ، ولذلك فانه منهاج عملي ، وفلسفة فكرية في وقت واحد .

يقول الله تعالى :

« إنما أقبل الصلاة لمن يتواضع لعظمتي ، ويكف نفسه عن الشهوات من

أجلي ، ويقطع نهاره بذكري ، وألزم قلبه خوفي ، وكف نفسه عن الشهوات من أجلي ، ولا يتعاظم على خلقي ، ويطعم الجائع ، ويكسو العاري ويرحم المصاب ، ويؤوي الغريب ، فذلك يُشرق نوره مثلَ الشمس ، أجعل له في الظلمات نوراً ، وفي الجهالة علما ، أكلأه بعزتي ، وأستحفظه ملائكتي ، يدعوني فألبيه ، يسألني فاعطيه فمثل ذلك عندي مثل الفردوس لا يسمو ثمرها ولا يتغير ورقها»[1] .

إثنين ـ إن الدنيا بالنسبة إلى الإنسان محطة متوسطة بين عالمي ، الذر ، والآخرة . وعلى الانسان ان لا ينسى حقيقة « مرحلية بنائه » على وجه الأرض . لأنه حينئذ سيخسر مصيره ، وخسران المصير هو في الواقع خسران للحاضر أيضاً ، لأن قيمة الحاضر تتحدد من خلال مدى ما يسفر من نتائج .

فإذا كان مصير الإنسان إلى الموت ، ومن ثمّ مواجهة الله فلا بد ان يضع ذلك في حسابه لدى الاقدام على أي عمل .

والطريق لتذكر المصير هو أن يفكر الأنسان في الذين كانوا قبله ، وماتوا ، على أساس أنه « لو دامت لغيرك ما وصلت اليك » .

وكما يقول الامام علي (عليه الصلاة والسلام) :

« أحي قلبك بالموعظة ، وذلّله بذكر الموت وبصره فجائع الدنيا ، واعرض عليه أخبار الماضين ، وذكره بما أصاب من كان قبلك مَن الأولين . وسر في ديارهم وآثارهم ، فانظر فيما فعلوا وعما انتقلوا ، وأين حلوا ، ونزلوا فإنك تجدهم قد انتقلوا عن الاحبَّة وحلوا ديار الغربة ، وكأنك عن قليل قد صرت كأحدهم . فاصلح مثواك ولا تبع آخرتك بدنياك » .

---

(١) كلمة الله ص ٢٦٤ .

ويقول :

« إعملوا عباد الله انكم وما أنتم فيه من هذه الدنيا على سبيل من قد مضى قبلكم ، ممن كان أطول منكم أعماراً ، وأعمر دياراً ، وأبعد آثاراً . أصبحت أصواتهم هامدة ، ورياحهم راكدة ، وأجسادهم بالية ، وديارهم خالية ، وآثارهم عافية (زائلة) فاستبدلوا بالقصور المشيدة والنمارق الممهدة ، الصخور والأحجار المسندة والقبور اللاطئة الملحدة التي قد بني بالخراب فناؤها (صحنها) وشيد بالتراب بناؤها فمحلها مقترب ، وساكنها مغترب ، بين أهل محلة موحشين ، وأهل فراغ متشاغلين ، لا يستأنسون بالاوطان ، ولا يتواصلون (لا يتزاورون) تواصل الجيران على ما بينهم من قرب الجوار ، ودنو الدار » .

« وكيف يكون بينهم تزاور ، وقد طحنهم بكلكلة (بهيكله) البلى (الفناء) وأكلتهم الجنادل (الأحجار الكبيرة) والثرى (الأرض) . وكأن قد صرتم إلى ما صاروا اليه ، وارتهنكم (أخذكم كرهائن) ذلك المضجع ، وضمكم ذلك المستودع . فكيف بكم لو تناهت بكم الأمور (انتهت بكم الأمور) وبعثرت القبور هنالك تبلو كل نفس ما أسلفت وردوا إلى الله مولاهم الحق ، وضل عنهم ما كانوا يفترون »(١) .

وهنا قد يقول البعض : إذا كانت الدنيا مجرد (محطة) في الطريق إلى الموت كما قال الإمام علي (عليه الصلاة والسلام) :

ألا إنما الدنيا كمنزل راكب

أناخ عشياً وهو في الصبح راحلُ

فهل يجوز لنا أن نسعى للحصول على سعادة الدنيا ؟ أم يجب التفرغ لسعادة الآخرة ؟

---

(١) نهج البلاغة ج٢ ص٢١٩ .

والجواب : إن الدنيا وإن كانت مرحلة اختبار ، تسبق إعلان النتائج ، إما إلى الجنة أو إلى النار ، والأرض وإن كانت مجرد (محطة) متوسطة بين عالم الذر الذي خلفناه وراءنا، وعالم الآخرة الذي هو أمامنا ، ولكن الله يريد للانسان أن يكون سعيداً سواءاً في الآخرة حيث يحط رحاله إلى الأبد ، أم في طريقه إلى الآخرة حيث يأتي حط الرحال مؤقتاً .

إن رحمة الله لا تريد شقاء بني الإنسان ، بل العكس إنها تريد سعادته في جميع مراحل حياته .

يقول الإمام (عليه الصلاة والسلام) :

« ليس منا من ترك آخرته لدنياه ، وليس منا من ترك دنياه لآخرته» .

ويقول الإمام الصادق (عليه الصلاة والسلام) :

« لا خير فيمن لا يحب جمع المال من حلال ، يكف به وجهه ، ويقضي به دينه ويصل به رحمه) .

ويقول القرآن :

﴿ومنهم من يقول ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار * اولئك لهم نصيب مما كسبوا ، والله سريع الحساب﴾[1] .

إن الله لا يعمل عبثاً ، فاذا رأينا انه تعالى خلق الأرض وخلق فيها كل اسباب الرفاهية والعيش الكريم ، فلا بد أن نعتقد انه خلق كل ذلك لسعادة الأنسان ليس لشقائه . وإلا لما كان هناك أي داع إلى خلقه .

يقول القرآن الكريم :

---

(١) سورة البقرة الاية ٢٠١ ـ ٢٠٢ .

﴿قل من حرم زينة الله التي اخرج لعباده ، والطيبات من الرزق ﴾[1] .

ان « الماء الحلو » وهو طيب ـ طبعاً ـ لم يُخلق لكي يستعيض عنه الإنسان « بالماء المر » ويخطىء من يفعل ذلك مبرراً عمله الطفولي هذا بأن الدنيا زائلة ، وان الآخرة هي دار السعادة . . لأن الله يقول :

﴿هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا في مناكبها ، وكلوا من رزقه﴾[2] .

ويقول :

﴿هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً﴾[3] .

ويقول : ﴿الم تروا ان الله سخر لكم ما في السموات والأرض واسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة﴾[4] ؟ .

﴿والأرض وضعها للانام﴾[5] .

وكل هذا يعني : ان من حق الانسان الطبيعي ان يستفيد من كل طيب يجده على وجه الأرض ، إذا لم يشوبه شيء من التعدي والطغيان .

ان الذي يطلبه الله في الدنيا ، هو ترك عبادة الدنيا بحيث تصبح هي الهدف ، وليس هو ترك الدنيا ذاتها ، والفرق واضح بين « ترك الدنيا » الذي يعني « الرهبانية » وبين ترك « عبادة الدنيا » التي تعني « نسيان الآخرة » على

---

(١) سورة الأعراف الآية ٣٢ .

(٢) سورة الملك الآية ١٥ .

(٣) سورة البقرة الآية ٢٩ .

(٤) سورة لقمان الآية ٢٠ .

(٥) سورة الرحمن الآية ١٠ .

طريقة من يعمل على أساس : « ربنا آتنا في الدنيا وماله في الآخرة من خلاق (النصيب) » .

فالذي يسعى لإسعاد نفسه ، وزوجته وأفراد أسرته ويعمل للحصول على بيت مرفه ، وسيارة أنيقة ، وزوجة صالحة ، ومال حلال ، ولا ينسى في ذلك حقوق الله والمجتمع ، ولا يسرق ، ولا يغشّ . . الخ ، لا يعتبر بأي شكل من الأشكال عابداً للدنيا ، وإنّما هو في الحقيقة عابد لله ، وعمله نوع من العبادة . لأن الكاد لعياله ـ كما قال الرسول الأعظم ـ كالمجاهد في سبيل الله .

غير ان الذي يسعى للحصول على الدنيا ، من دون ان يهمه من أين . ؟ وكيف . ؟ ولا يعترف بأي حق لله أو للمجتمع ، هذا الانسان هو عابد الدنيا ، وهو الذي يقول عنه الرسول الأعظم (صلى الله عليه وآله) .

«ملعونٌ . . ملعون من عبد الدينار والدرهم »[1] .

ذات يوم حدث أن مرّ موسى برجل وهو يبكي ، ثم رجع وهو يبكي ، فقال : «إلهي ! عبدك يبكي من مخافتك» . فقال :

«يا موسى ! لو نزل دماغه مع دموع عينيه ، لم أغفر له وهو يحب الدنيا »[2] .

وقال تعالى في حديث آخر :

«يا موسى ! لا تركن الى الدنيا ركون الظالمين ، وركون من اتخذها أباً وأما »[3].

---

(١) أصول الكافي ج ٢ ص ٢٧٠ .

(٢) كلمة الله ص ١٩٨ .

(٣) كلمة الله ص ١٩٦ .

صحيح أن « حب الدنيا رأس كل خطيئة » ولكن ليس حب الدنيا لاستعمالها في موقعها الصحيح ، وإنما حب الدنيا للدنيا .

دخل رجل على الامام الصادق (عليه الصلاة والسلام) وقال له :

إنا نحب الدنيا ، ونحب أن نؤتاها .

فقال له الامام : «تعملون بها ماذا ؟» .

أجاب : نوسع على عيالنا ، ونتصدق بها على فقرائنا .

فقال الامام «ليس هذا من حب الدنيا . انه حب الآخرة» .

لماذا . ؟

لأن تملك الدنيا ليس حراماً ، إنما الحرام استعمالها في الحرام ، فاذا كان الهدف من تلك الدنيا : الطغيان والاثراء غير المشروع والاستغلال ، كان من حب الدنيا عبادة للشيطان ، ولو كان البذل والعطاء ، والعيش السعيد ، كان حب الآخرة .

حدث ان خرج محمد بن المنكدر - الذي كان يعتبر من الزهاد والعباد - الى خارج المدينة ظهر يوم من أيام الصيف القائظ ، وكانت الشمس تلتهب التهاباً ، فرأى رجلا بدينا متكئاً على غلامين اسودين وقد خرج لمراقبة مزرعة له . فقال في نفسه : من هذا الرجل الذي اخرجه شغل الدنيا في مثل هذا الجو الساخن ؟ لأذهبن اليه واعظنه .

فلما دنى منه ألفاه الامام الباقر (عليه الصلاة والسلام) وهو يتصبب عرقاً ، فقال ابن المنكدر : اصلحك الله ، شيخ من اشياخ قريش ، أفي ساعة كهذه وعلى حالة كهذه خرجت تطلب الدنيا ؟ ماذا سيحدث لو جاءك الموت وانت على هذه الحال ؟!

فاستند الامام الباقر (عليه الصلاة والسلام) الى جدار ثم أجاب : «والله لو جاءني الموت وانا في هذه الحال ، جاءني وأنا في طاعة من طاعات الله (تعالى) ، أكف بها نفسي عنك وعن الناس ، انما اخاف الموت لو جاءني وانا على معصية من معاصي الله» .

فتنبه ابن المنكدر الى خطأه ، حيث كان يظن انه على صواب ، فتوجه الى الامام وقال : يرحمك الله يا أبا جعفر أردت أن اعظك فوعظتني .

وبالطبع ليس هنالك من هو أولى بالدنيا من السائرين على منهاج الله ، لأن هؤلاء فقط هم الذين يستعملونه في موقعه الصحيح . تماماً كما أنه ليس هنالك أولى بالبيت ـ مثلاً ـ من الذين يستعملونه للحياة ، وليس لارتكاب الجريمة .

ثلاثة ـ ان الله يسجل على الانسان جميع لحظات حياته ، فلا تخفى عليه خافية في الأرض أو في السموات ، فهو يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور فلا بد اذن من تجنبّ معصيته لأن عصيان الله تعالى ، سواءاً بما يرتبط بحياتنا الخاصة أو العامة سيؤدي إلى خسراننا للآخرة ، لأن كل لحظة معصية قد تكون هي آخر لحظة من حياتنا مما يعني : ان من الممكن أن يلتقي العاصي مع الله ويداه غائصتان في وحول الجريمة .الأمر الذي حدث لكثيرين حتى الآن . .

يقول الامام علي (عليه الصلاة والسلام) :

«يابن آدم ! اذا رأيت أن الله يغدق عليك نعمه وأنت تعصيه فاحذره » .

ويقول الله (تعالى) في القرآن الكريم :

﴿ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتهم الله من فضله هو خيراً لهم ، بل هو شرٌ لهم ، سيطوقون ما بخلوا به يوم القيمة ولله ميراث السموات والأرض ،

والله بما تعملون خبير﴾[1] .

وفي آية أخرى :

﴿ولا يحسبن الذين كفروا انما نملي لهم خيرٌ لانفسهم ، انما نملي لهم ليزدادوا اثماً ولهم عذاب مهين﴾[2] .

لأن الله قد يمّد للفرد ، حتى إذا اطمأن بالمعاصي أخذه أخذ عزيز مقتدر .

ذات مرة . . كان أخوان اثنان يعيشان في بيت واحد أحدهما في الطابق التحتي ، والثاني في الطابق العلوي . وكان الذي يعيش في الطابق التحتي تقياً عابداً ، لا يفتر عن عبادة الله ، بينما كان الثاني فاجراً ساقطاً لا يفتر عن عبادة الشيطان

واستمر كل منهما في خط سيره لمدة ثلاثين عاماً .

وذات ليلة فكر العاصي مع نفسه أن حياته قد فنيت كلها في العصيان ، وأن من الممكن أن لا يغفر الله له ذلك ، فقرر أن يتوب إلى الله ،ويلتجيء إلى صومعة أخيه ليقضي بقية عمره فيها .

وصادف أن فكر أخوه مع نفسه أن حياته قد انقضت في الطاعة ، وأن افناء الحياة مع الزهد يعني الحرمان من طعم الملاذ والشهوات ، فقرر أن يدخل الطابق الأعلى ليقضي ليلة واحدة مع المغنيات والمطربات .

وترك كل منهما غرفته متوجهاً إلى غرفة الثاني .

وفي اللحظة التي التقى كل منهما بالآخر ، في منتصف الطريق ، هبط عليهما

---

(١) سورة آل عمران الاية ١٨٠ .

(٢) سورة آل عمران الاية ١٧٨ .

عـزرائيل ، وقبض روحيهـما معاً . فـأمر الله بـروح الزاهـد إلى النار . بينـما أمر بروح الفاجر إلى الجنة .

لأن الطريق الذي كان يسير فيه العابد في تلك اللحظة ، كان ينتهي طبيعياً إلى النار . والطريق الذي كان يسير فيه الفاجر ينتهي إلى الجنة .

وهكذا خسَّرت لحظة عصيان واحـدة الزاهـد ، الجنة ، بينـما اربحت لحظة طاعة واحدة الفاجر ، الجنة .

ان مشكلتنا هي اننا لا نعرف بالتحديد متى نموت . ولذلـك فان كـل لحظة مرشحة لتلقى خبر موتنا ، في حادث سيارة ، أو سكتة قلبية ، أو ضربة مفاجئـة أو ما شابه ذلك . مما يعني ان من المحتمل جـداً أن يلقى الواحـد منا ربـه وهو مشغول بمعصيته . كما حدث ذلك للص مشهور في مدينة اسلامية عام ١٩٦٦ . فقد دخل هذا اللص دار أحد المواطنين ، ولكنه وجد أن صاحب البيت قد جمع كل أثاث البيت في الغرفة التي كـان ينام فيهـا في تلك اللحظة مـع زوجته وابنـه الرضيع وبدا لـلص للوهلة الأولى استحالة الحصول على أية قـطعة أثـاث ، لأن مجرد الدخول في الغرفة كان يكفي لإيقاظ الرجل ، ومن ثم القبض عليه .

وبعد تفكير سريع توصل إلى خطة عمل ، ترجمها فوراً إلى مجموعة أعمال . فقـد حمل الـرضيع إلى سـاحة الـدار ، ثم أيقظه بـرفق ، فبدأ الـرضيع يبكي . فاستيقظت الأم عـلى أثر بكـاء الطفـل ، فأيقـظت معها الزوج الذي بدا مدهوشاً بسبب وجود الطفل خارج الغرفة فخـرجا من الغـرفة ، وفي اللحـظة التي وصلا فيها إلى ساحة الدار ، بدأ اللص ينفذ بقيـة الخطة ، فقـد دخل فـوراً إلى الغرفـة وأخذ يجمع بسرعة الأثاث استعداداً للهروب بها خلال فترة وجود صاحب البيت وزوجته خارج الغرفة .

فما الذي حدث ؟

في اللحظة التي كان اللص يقوم بتنفيذ القسم الأخير من خطته ، هز المدينة زلزال مفاجىء أدى إلى تصدع جدران البيت ، فانهار عليه سقف الغرفة بينما كان مكباً على الأثاث المسروق .

وهكذا مات اللص تحت الأنقاض ملوثاً بالجريمة في الوقت الذي نجى الله فيه صاحب البيت ، وزوجته وطفله من موت محتم .

ان الموت الذي ابتز هذا السارق لم يكن وحشاً من غابات افريقيا ، وانما كان قدراً مفروضاً عليه ، ولكنه لم يكن يعرف ذلك .

وكما في السارق كذلك . . فينا .

كل واحد منا معرض للموت في أية لحظة . وحذار أن نموت في حالة عصيان .

﴿قد خسر الذين كذّبوا بلقاء الله حتى إذا جاءتهم الساعة بغتة قالوا : يا حسرتنا على ما فرّطنا فيها . وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم . ألا ساء ما يزرون﴾(١) .

ويقول الإمام علي (عليه الصلاة والسلام) :

« واعلم انّك انّما خلقت للآخرة لا للدّنيا ، وللفناء لا للبقاء ، وللموت لا للحياة ، وانك في منزل قلعة (المنزل الذي لا يدري النازل فيه متى ينتقل عنه) ودار بلغة ، وطريق إلى الآخرة ، وانك طريد الموت الذي لا ينجو منه هاربه ، ولا بدّ أنه مدركه فكن منه على حذر أن يدركك وأنت على حال سيّئة قد كنتَ تحدّث نفسك منها بالتوبة فيحول بينك وبين ذلك ، فإذا أنت قد

---

(١) سورة الانعام الاية ٣١ .

أهلكت نفسك »[٢] .

ويقول القرآن الكريم :

﴿أفأمن الذين مكروا السيئات أن يخسف الله بهم الأرض أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون * أو يأخذهم في تقلبهم فما هم بمعجزين﴾[٢] .

أربعة ـ لا بدّ للإنسان الذي يسير في درب الله ان يتبع المناهج التالية في سلوكه الشخصي :

١
التفقه في الدّين

على كل فرد ان يتفهم مبادىء الدين ، لأن هذه المبادىء هي وحدها القادرة على أن تمنحه السعادة المنشودة ، ولأنّ من دون تفهم الدين سيكون الإنسان ضحية أهواء الآخرين ، انّه كالبقرة الساقطة تكثر عليها السكاكين ، أو على الأصح انه كالمدينة المفتوحة التي يكثر غزاتها .

يقول الامام علي (عليه الصلاة والسلام) :

« اذا أراد الله بعبد خيراً فقهه في الدين وألهمه اليقين »[٣] .

ويقول أيضاً :

« من تفقه في الدين كثر »[٤] .

---

(١) نهج البلاغة ج٣ ص٤٨ .

(٢) سورة النحل الاية ٤٥ ـ ٤٦ .

(٣) غرر الحكم : ص ٢٧٧ ح ٤٢٢٢ (ط. القارىء ـ بيروت) .

(٤) غرر الحكم : ص ٤٠٣ ح ٨٠٦٣ (ط. القارىء ـ بيروت) .

وجاء في الحديث القدسي :

« ويلٌ لمن سمع العلم ولم يطلبه كيف يُحشر مع الجهال الى النار ، وتعلموا العلم وعلموه ، فان العلم إن لم يسعدكم لم يُشقكم ، وإن لم يرفعكم لم يضعكم ، وإن لم يغنكم لم يُفقركم ، وان لم ينفعكم لم يضركم ، ولا تقولوا نخاف أن نعلم ولا نعمل ، ولكن قولوا نرجوا أن نعلم ونعمل ، والعلم يشفع لصاحبه وحقٌ على الله أن لا يخزيه ، إن الله يقول يوم القيامة : يا معشر العلماء ، ما ظنكم بربكم ؟ فيقولون : ظننا أن يرحمنا ويغفر لنا ، فيقول تعالىٰ : إني قد فعلت ، اني استودعتكم حكمتي لا لشر أردته بكم بل لخير أردته بكم فادخلوا في صالح عبادي الىٰ جنتي برحمتي »[1] .

٢

العمل للحق

قليلون هم الذين لا يعرفون الحق ، ولكن كثيرون هم الذين لا يعملون للحق .

إنّ تحمل مسؤلية الحق هو اصعب ثقل على قلوب عبّاد الهوى ، ولكنه أجمل باقة ورد إلى قلوب المتقين . فلا بدَّ لو أردنا أن نكون من المتقين أن نتمسك بالحق ، وأن نناضل من أجله كذلك .

يقول الامام علي (عليه الصلاة والسلام) :

« اصبر على مضض مرارة الحق ، وإياك أن تنخدع لحلاوة الباطل[2] » .

ويقول :

---

(١) كلمة الله ص٤٢٨ .

(٢) غرر الحكم : ص ١٢٣ ح ٢٥٦٦ (ط. القارىء - بيروت) .

« افضل الاعمال لزوم الحق »[1] .

ويقول :

« أقـرب العباد الى الله (تعـالى) أقـولهم للحق وان كـان عليـه ، وأعملهم بالحق وان كان فيه كرهه »[2] .

ويقول :

« كن عالما بالحق عاملا به ينجيك الله (سبحانه) »[3] .

والشعار الذي يجب أن نضعه نصب أعيننا في هذا المجال هو :

« خض الغمرات للحق حيث كان » .

٣

جعل النفس مقياسا :

كثيراً ما يحتار الانسان في اختيار الموقف المطلوب منه إزاء الآخـرين ، فلا يدري مثلاً ماذا يجب أن يفعل إزاء صديق قدّم له هدية ؟

وكيف يجب أن يكون موقفه عندما يطلب منه أحد حاجة ؟

وما هو أفضل الطرق لرّد الاحسان ؟ . . . الخ

والطريقة الوحيدة لمعرفة ذلك هي أن يجعل الإنسـان نفسه مقيـاساً لأعمـاله وكما يقول الإسلام :

---

(١) غرر الحكم : ص ١٧٠ ح ٣٤٠٧ (ط. القارىء - بيروت) .
(٢) غرر الحكم : ص ١٦٦ ح ٣٣٢٩ (ط. القارىء - بيروت) .
(٣) نهج البلاغة ج٣ ص٤٥ .

« إجعل نفسك ميزاناً فيما بينك وبين غيرك ، فأحبب لغيرك ما تحب لنفسك ، وأكره له ما تكره لها ، ولا تظلم كما لا تحب أن تُظلم ، واحسن كما تحب أن يحسن اليك ، واستقبح من نفسك ما تستقبح من غيرك ، وأرض من الناس بما ترضاه لهم من نفسك » .

والعملية سهلة جداً : قبل أن تتخذ أي موقف إزاء أي شخص افترض أنك في مقامه هو ، وأنه في مقامك أنت ، ثم اتخذ الموقف الذي كنت تحب أن يتخذه منك لو كنت في موقفه هو .

٤

تجنب السقوط في عبادة المادة :

بريق الماديات ، يسلب الكثيرين القدرة على تفهم المصير ويدفعهم إلى الضياع بين خطوط الدينار المتعرجة ، والإنشداد إلى حلقة الدرهم المفرغة ، فيهوون إلى حضيض عبادة الدنيا متمثلة في عبادة التجارة ، والزوجة ، والأولاد ، و . . رصيد البنك !

وعبادة الدنيا ، تضع الإنسان في غرفة محكمة الاغلاق تسير معه أينما سار ، ولا تسمح له أن يرى الأشياء والأمور إلا من خلال ثقوبها ، فتصبح حتى الزوجة والأولاد جزءاً من المصلحة ، وتحدد قيمتهم بما ينفعون مادياً ، وما يضرون مادياً .

وهكذا تضع الدنيا عابدها في دائرة الاعجاب . و « الاعجاب ـ كما قال الإمام علي (عليه الصلاة والسلام) ـ ضد الصواب وآفة الألباب » ولذلك فإن على الإنسان أن يكون ساعياً إلى امتلاك الدنيا في الوقت الذي يكون هارباً من عبادتها .

يقول الإمام علي (عليه الصلاة والسلام) :

« إسـع سعيك ، ولا تكن خـازناً لغيـرك ، وإذا هديت لقصـدك (حصلت على ما تريد) فكن أخشع ما تكون لرّبك » .

لربك . . لا للمال .

إنّ كـل نعمـة وراءها مسؤوليـة ، فكـل فلس يضـاف إلى رصيـد الانسـان يضيف بلا ترديد ثقلاً على حمله في الطريق الشاق والطويل الذي لا بد أن يقطعه لملاقاة الله .

فيما أوحىٰ الله تعالى الى موسىٰ (عليه الصلاة والسلام) :

« واعلم : ان كل فتنة بـدؤها حبُ الـدنيا ، ولا تغبط أحـداً بكثرة المـال ، فإن مع كثرة المال كثرة الذنوب لِواجبِ الحقوق . . . » [1] .

وما دام « ظهر » الانسان ضعيفاً فلا بد من المحـافظة عـلى النسبة بـين ثقل الحمل ، وضعف الظهر .

ليس حراماً بالطبع أن يكسب الانسان الأمـوال ، ولكن الحرام أن يشتـري باموالِه وقوداً لاحراق نفسه ، أو على الأقل أحجاراً ضخمة على كتفيه .

ولهذا يجب تحمل مسؤليات الأموال ـ هذه الامانة التي ينسى الناس عادة انها أمانة ـ حتى لا تتحول من مفتاح ، يفتح أبواب الجنة إلى اصفاد تجر إلى النار .

يقول الإمام علي (عليه الصلاة والسلام) :

« لا تحملنّ على ظهرك فوق طاقتك ، فيكون ثقل ذلك وبالاً عليك » .

« وإذا وجدت من أهل الفاقة (الفقراء وذوي الحاجة) من يحمل لك زادك إلى يوم القيامة فيوافيك به غداً حيث تحتاج اليـه فاغتنمـه وحمله اياه ، واكـثر من

---

(١) كلمة الله ص١٩٧ .

تزويده وأنت قادر عليه فلعلك تطلبه فلا تجده » .

ولكن كيف يمكن المحافظة على التوازن العملي ، في وقت يعيش فيه الجميع في حمّى الذهب والفضة والجنس ؟

إن تذكر الموت ، قد يمنع الانسان من الانجراف في مظاهر المادة ، كما أن تذكر الله قد يمنع من الاستسلام للباطل مهما كانت مظاهره .

« يا بني - يقول الامام علي (عليه الصلاة والسلام) - أكثر من ذكر الموت وذكر ما تهجم عليه وتفضي بعد الموت اليه (المصير الذي ينتظرك بعد الموت) حتى يأتيك (الموت) وقد أخذت منه حذرك ، وشددت له أزرك ولا يأتيك بغتة فيبهرك » .

« وإيّاك أن تغتّر بما ترى من اخلاد أهل الدنيا اليها (تحببهم إلى مظاهر المادة) وتكالبهم عليها . فقد نبأك الله عنها ، ونعت لك نفسها . فانما أهلها (عبّادها) كلاب عاوية ، وسباع ضارية ، يهرّ (يمقت) بعضها بعضاً ، ويأكل عزيزها (قويّها) ذليلها ، ويقهر كبيرها صغيرها » .

« نِعمٌ معقلة ، وأخرى مهملة (الضعفاء كالبهائم المربوطة التي لا تستطيع التحرك . والأقوياء كالبهائم الحرة التي تعمل كل ما تريد) ليس لها راع يقيمها »[1] .

«سلكت بهم الدنيا طريق العمى وأخذت بأبصارهم عن منار الهدى ، فتاهوا في حيرتها ، وغرقوا في نعمتها ، واتخذوها (الدنيا) رباً فلعبت بهم ، ولعبوا بها ونسوا ما وراءها » .

---

(١) عندما تتحول الدنيا من وسيلة إلى هدف ، تصبح القيم الحاكمة على الناس من قماشة الدنيا ذاتها . فالقوة ونبل العائلة تحتل مكان الحق والصدق والعدالة ، فيأكل القوي فيها الضعيف ، والعزيز الوضيع . اليس الوضع الدولي الان ، هكذا ؟

٥

الدعاء الى الله

هل هناك أضعف من الانسان في الحياة ؟

أكثر الناس ثراءً لا يستطيع ان يهضم إلا صحناً من الطعام وشيئاً من الخبز . ولا يستطيع ان ينام إلا على مترين ونصف ، ولا يستطيع ان يعمل أكثر من ١٤ ساعة .

وأقوى الناس لا يستطيع أن يدفع عن نفسه ألم المرض .

وأطغى الجبابرة تسلبه الذبابة راحته . .

وأطول الناس لا يبلغ في الطول قدَّ الجبال . .

وأعظم الرؤساء يقهره الموت . .

فهل هناك أضعف من الإنسان ؟ هذا الذي بدايته الماء الدافق ذو رائحة كريهة ولون بشع ، ونهايته : جيفة محنطة يأكلها الدود .

ومع ذلك ـ هل هناك أكثر من هذا الإنسان طغيانا وتجبراً ؟

مسكين ابن آدم !

ينسى البداية . ويتناسى النهاية . فيطغى ويتعالى حتى على الله . وإذا وصل إلى مقاصده يظن أنه هو الذي أوصل نفسه إليها . بينما الله هو الذي وفقه لذلك .

فاصحاب النفوس ذات الأحجام الصغيرة يتكلون على أنفسهم بمجرد أن يقوموا بانجاز بعض الأعمال ظناً منهم بان جهود البشرية هي صاحبة الفضل في ذلك أمّا اصحاب النفوس الكبيرة فانهم يعرفون أن قيمتهم تأتي من مدى

تعلقهم بالله . باعتباره الفاعل الوحيد في الكون فإذا أقدموا على عمل توكّلوا على الله وإذا انجزوا عملا طيباً شكروا الله عليه . ولهذا فإن هؤلاء لا يطغون وإن وصلوا إلى أعلى المراتب .

فكيف يمكن أن يصبح الإنسان من هذا الطراز ؟

والجواب : أن الدعاء إلى الله والتوجه اليه والتضرع إلى مقامه الرفيع يستطيع أن يوقظ في أعماق الإنسان روح التفاعل مع الحياة والإعتماد على الله ، بدل الإتكال على الذات والإبتعاد عنه تعالى .

هل هناك مسكين كابن آدم : « تؤذيه البّقة ، وتقتله الشرقة وتنتنه العرقة » ؟

وهل هناك غني كالله « بيده خزائن السموات والارض » ؟

وهل هناك من يستطيع أن يساعد الإنسان المسكين كالله الغني ؟

إنّ الدعاء الى الله يعطي الإنسان القوة النفسية الكافية لمواجهة كل المشاكل والأزمات . لأن الدعاء يعني الإعتماد على القدرة المطلقة التي تحكم الكون .

والدعاء بالإضافة الى ذلك عودة الى الطهارة بعد الاثم . ورجوع الى الحق بعد الخطيئة . واغتسال في حنان الله بعد الضياع .

وفي الحديث : «ان الله (تعالى) ينزل ملكاً الى السماء الدنيا كل ليلة ، في الثلث الأخير ، وليله الجمعة من أول الليل ، فيأمره فينادي :

هل من سائل فأعطيه ؟ هل من تائب فاتوب عليه ؟ هل من مستغفر فأغفر له ؟ يا طالب الخير أقبل ، ويا طالب الشر أقصر .

فلا يزال ينادي بذلك ، حتىٰ يطلع الفجر ، فاذا طلع الفجر ، عاد الى محله

من ملكوت السماء »[1] .

وورد في الوحي القديم :

« لا تمل من الدعاء ، فإني لا أمل من الإجابة[2] » .

وجاء في الحديث القدسي :

«منك الدعاء ، ومني الاجابة[3] » .

واذا كان الله قد اذن للانسان بالدعاء في كل الأوقات ، من دون ان يتخذ أي حجّاب أو وسائط ، فلماذا تتكاسل ما دام قد : « أمرك أن تسأله ليعطيك ، وتسترحمه ليرحمك ولم يلجئك الى من يشفع لك اليه ، ولم يمنعك ـ ان اسأت ـ من التوبة ، ولم يعاجلك بالنقمة (الانتقام) ، ولم يناقشك بالجريمة ، ولم يؤيسك من الرحمة ؟ بل جعل نزوعك (انقطاعك) عن الذنب حسنة ، وحسب سيئتك واحدة ، وحسب حسنتك عشرة وفتح لك باب المتاب (التوبة) » كما قال الامام (عليه الصلاة والسلام) .

لماذا التماهل في الدعاء ما دام يعني الخشوع لله وبغير (الخشوع لله) لا يمكن أن يكون الانسان طيباً ؟

لماذا الخجل من الله ؟ ما دام الله ، كما قال الامام علي (عليه الصلاة والسلام) : « إذا ناديته سمع نداءك ، وإذا ناجيته علم نجواك ، فافضيت اليه بحاجتك ، وشكوت اليه همومك ، واستعنته على أمورك ، وسألته من خزائن رحمته ما لا يقدر على اعطائه غيره من : زيادة في الأعمار وصحة في الأبدان

---

(١) كلمة الله ص ٣٠١ .

(٢) كلمة الله ص٢٩٩ .

(٣) كلمة الله ص ٢٩٩ .

وسعة في الأرزاق » .

أجل ، لا يستطيع أن يعطي العمر ، والصحة ، والثروة ، غير الله . . . فلو لا ارادة الله وتوفيقه لما كان التاجر تاجراً .

اليست التجارة بحاجة إلى العقل والحكمة ؟ من أعطى التاجر العقل والحكمة ؟

. . ولو لا الله لما كان الانسان صحيح الجسم . . .

أليست الصحة تتطلب الابتعاد عن أسباب المرض ؟. من يوفق الانسان لتجنب هذه الأسباب ؟

. . ولولا الله لما كان الحي ، حياً . . .

اليست الحياة تعني اللا موت ؟ من يبعد الموت عن الانسان ؟

إن أقل نظرة يلقيها الانسان على واقعه تكفي لكي تكشف له عن فاعلية الله المطلقة في الحياة ، هذه الفاعلية التي تترفع عن الجبر ، ولكنها توفر الوسائل .

ونحن إذ نقرأ في الدعاء :

« سيدي أنا الصغير الذي ربيته ، وأنا الجاهل الذي علمته ، وأنا الضال الذي هديته ، وأنا الوضيع الذي رفعته ، وأنا الخائف الذي آمنته ، والجائع الذي أشبعته ، والعطشان الذي أرويته ، والعاري الذي كسوته. . . والسقيم الذي شفيته ، والسائل الذي اعطيته ، والمذنب الذي سترته ، والخاطىء الذي اقلته ، وأنا القليل الذي كثرته ، والمستضعف الذي نصرته ، وأنا الطريد الذي آويته »[١] .

---

(١) مفاتيح الجنان / الوفاء / دعاء أبي حمزة الثمالي ص٣٧٩ .

فأنا وأنت نمشي ، ونـأكل ونشـرب بوحي من تفكيـرنا . فـالفكر هـو الذي يهدي الإنسان إلى الرشاد ، كما انه هو الذي يهديه إلى الهلاك .

هل تستطيع أن تقول لي من يهدي فكرك ؟

من ينبهك مثلاً إلى أن الدخول في الصفقـة الفلانيـة ليست مربحـة ؟ أو أن الصمت في المقام الكذائي ليس جيداً ؟

ان الانسان عندما يدعو الله لكي يعطيه الرزق فانه لا يطلب منه ان يدلي له الرزق عن طريق (دلاء) يمدها من السماء ، وانما يطلب منه ان يهـدي فكره إلى الطريق الأفضل للحصول على الرزق .

« اللهم صـل عـلى محمـد وآلـه ، واحجبني عن السـرف والازديـاد وقـومني بـالبذل والاقتصـاد ، وعلمني حسن التقديـر ، واقبضني بلطفك عن التبـذيـر ، وأجري من اسباب الحلال أرزاقي ، ووجه من ابـواب البر انفـاقي وازو عني من المال ما يحدث لي مخيلة أو تأدياً الى بغي ، أو ما اتعقب منه طغيانا »[١] .

كما انه عنـدما يـدعو الله لكي يعـطيه الصحـة فانـه لا يطلب منـه تعالى ان يـرسل اليـه « أدوية » وإنمـا يطلب منـه أن يهدي فكـره إلى تجنب الاطعمـة المضرة .

ان الـدعاء لـه تأثـير كبير ولا شـك ، في تـوفيق الانسـان للعمـل الـطيب الصالح وتجنيبه الأعمال الضارة . لأن تهيئة اسباب ذلك ليس بيد الانسان .

وإذا كـان الله هو الفـاعل في الحيـاة فمن أولى به لكي يتقدم اليه الانسـان بحاجته ؟

يقول القرآن الكريم :

---

(١) الصحيفـة السجاديـة : ص ١٨١ دعاؤه في المعـونة عـلى قضاء الـدين (ط. الأضـواء) وص ١٦٠ دعاؤه في المعونة على قضاء الدين (ط. التعارف) .

﴿قل ما يعبأ (يعتني) بكم ربّي لولا دعاؤكم﴾[1] .

٦

الانفاق في سبيل الله

هل يمكن للانسان ان يخدم ماله ، هكذا دائماً ؟

طبعاً لا . لان الانسان يموت .

وهل يستطيع المال ان يخدم الانسان . هكذا دائماً ؟

لا . أيضاً ، لأن الانسان يموت .

فالمال ـ كما قال الامام علي (عليه الصلاة والسلام) ـ لا يبقى لك . ولا تبقى له . . فلماذا البخل به على المحتاجين والمعوزين ؟

يقول القرآن الكريم :

﴿ألـمّ* ذلك الكتاب لا ريب فيه هدىً للمتّقين* الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة وممّا رزقناهم ينفقون﴾[2] .

ويقول (عز وجل) في آية اخرىٰ :

﴿ها أنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا في سبيل الله فمنكم من يبخل ومن يبخل فإنّما يبخل عن نفسه والله الغنيّ وأنتم الفقراء وان تتولّوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم﴾[3] .

---

(١) سورة الفرقان الآية ٧٧ .

(٢) سورة البقرة الاية ١ ـ ٣ .

(٣) سورة محمد الاية ٣٨ .

ويقول الامام علي (عليه الصلاة والسلام) :

« البخل جامع لمساوىء العيوب ، وهو زمام يقاد به الى كل سوء »[1] .

ويقول الامام المهدي (عجل الله فرجه) :

« إني لاستحي من ربيّ اني أرى الأخ من اخواني فأسأل الله له الجنة وأبخل عليه بالدينار والدرهم ، فإذا كان يوم القيامة قيل لي : لو كانت الجنة لك لكنت بها أبخل ، وابخل ، وأبخل !!!»[2] .

وقال الامام الصادق (عليه الصلاة والسلام) : « ان كان الخلف من الله (عز وجل) حقا ، فالبخل لماذا ؟ »[3] .

وقال ايضاً :

« من قضىٰ لأخيه المؤمن حاجة قضىٰ الله (عز وجل) له يوم القيامة مئة الف حاجة من ذلك أولها الجنة »[4] .

وقال (عليه الصلاة والسلام) :

« قضاء حاجة المؤمن أفضل من ألف حجة متقبلة بمناسكها ، وعتق ألف رقبة لوجه الله ، وحملان الف فرس في سبيل الله بسرجها ولجامها »[5] .

ويقول الله في حديث قدسي :

« عبدي . . . ما أنصفتني ، اذكرك وتنسى ذكري . وأدعوك إلى عبادتي

---

(١) نهج البلاغة ج٤ ص٩٠.

(٢) وسائل الشيعة ج ١١ ص٥٩٩.

(٣) البحار ج ٧٨ ص ١٩٠ .

(٤) بحار الانوار ج ٧٤ ص ٣٢٢ .

(٥) البحار ج ٧٤ ص ٣٢٩ .

وتـذهب إلى غيـري ، وأرزقـك من خـزائني ، آمـرك لتتصـدق لـوجهي ، فـلا تطيعني ، وأفتح عليك أبواب الرزق ، استقرضك من مالي فتجبهني (تمنعني) ، واذهب عنك البلاء وأنت معتكف على فعل الخطايا ! يـا بـن آدم ! مـا يـكـون جوابك لي غداً إذا أجبتني (إلى الموت) ؟ »[1] .

ان المال لا يبقى ، بل يـذهب . والمهم أن يسعى الانسان لكي يـذهب من يديه في سبيل الخير . فقد جاء في الحديث :

«اللهمّ أجر للناس على يدي الخير»[2] .

يقـول الله في حديث قـدسي « الخلق عيالي . فـأحبّهـم إلي الـطفهم بهم ، واسعاهم في حوائجهم »[3] .

٧

الترفع عن الاستغلال :

الذين لا يعرفون موقع وأهمية أنفسهم يبيعونها بسهولـة . لأنهم لا يقدرون قيمة الانسان القابع في أعماقهم .

ولذلك فإن المال يستـطيع أن يشتـري ضمائـر هؤلاء بالسهـولة نفسهـا التي يمكن بها شراء الكلاب .

والشعار الذي يجب عليك رفعه لتجنب ذلك هو :

« أكرم نفسك من كل دنيَّة » .

---

(١) كلمة الله ص ٣٤٥ .
(٢) مفاتيح الجنان .
(٣) كلمة الله ص ٢٠٧ .

فلا تسف إلى المواقع الحقيرة ، مهما كان الثراء حولها ضخماً ، لأن قيمة (الانسان) عندك أكثر بكثير من أن يثمّن بمال .

إن المال إنما يطلب للحفاظ على صيانة النفس من الابتذال فاذا تحول المال نفسه إلى موقع ابتذال ، فيجب الابتعاد عنه فوراً .

يقول الامام علي (عليه الصلاة والسلام) : « لا تكن عبد غيرك وقد جعلك الله حرّاً» .

ويقول : « ما خيرُ خيرٍ (ما فائدة خير) لا ينال إلا بشر ؟ وما يسرُ يسرٍ (ما فائدة يسر) لا ينال إلا بعسر ؟ » .

ويقول الله (تعالى) :

﴿والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب اليم * يوم يحمىٰ عليها في نارِ جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لانفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون﴾[1] .

٨

العمل . . مع العفة

أنْ لا يتعدى الانسان حدود انسانيته ، أشرف بكثير من أن يمزق ستائر العفة ، فالعمل الجسدي الشريف خير إذا كان مع العفاف ، من الثراء الضخم إذا كان مع الفجور والفحش .

وكما قال الامام علي (عليه الصلاة والسلام) :

«الحرفة مع العفة خير من الغنى مع الفجور » .

---

(١) سورة التوبة الآية ٣٤ ـ ٣٥.

٩

الدخول الى نادي الخيِّرين

للدخول الى نادي الخيِّرين هناك وصية واحدة :

«قارب أهل الخير تكن منهم وباين أهل الشر تبن عنهم».

فـالقضية لا تحتـاج الى : معادلات أو حسـابـات ، أو فلسفـات إبحث أين يجتمـع أهل الخـير؟ اذهب اليهم . وفتش أين يكون مجمـع أهـل الشر ؟ ابتعـد عنهم .

١٠

الصداقة الطيبة

«الرَّفيق قبل الطريق .!»

أليس كذلك ؟

إذن: فاختر الصديق الجيِّد ، قبـل أن تختار الـطريق الجيد ، لأنَّ الصـديق الرديء كالفاكهة الرديئة يفسـد بصمت ، بينما الصـديق الطيب كـالوردة الـطيبة تجلب الفراشات بسهـولة . فـإذا صادقـه الانسان فسـرعان مـا يجد نفسـه وسط مجموعة من الأصدقاء الطيبين .

ولكن من أين يمكن الحصول على الصديق الطيب ؟

فتش عن (المبذر) الطيب ثم صادقه ، فاذا وطدت صداقتك معه فحاول أن تكون (معلِّمه) في الأعمال الخيرة ، فإذا قاطعك مثلاً فعلِّمه الموادة ، عن طريق الصلة اليه . واذا امتنع عنك ، فعلِّمه التقارب ، عن طريق اللطف اليـه . واذا بخـل عليك فعلِّمـه الكرم ، عن طـريق الجود عليـه . واذا اشتد عليـك فعلِّمه

المحبة ، عن طريق اللينّ معه .

وأخيراً «إحمل نفسك - كما يوصي الامام علي (عليه الصلاة والسلام)- عند جرمه على العذر حتى كأنك له عبد ، وكأنه ذو نعمة عليك» .

غير أنّه لا بد أن يكون الذي تفعل معه ذلك أهلاً لمثل هذه المعاملة و « إياك أن تضع ذلك في غير موضعه أو أن تفعله بغير أهله » .

واذا وجدت مثل هذه الصداقة :

أ - «فلا تتخذن عدّو صديقك صديقاً ، فتعادي صديقك »- كما يقول الامام (عليه الصلاة والسلام) لأن صديق العدّو عدو .

ب -«وامحض أخاك النصيحة، حسنة كانت أو قبيحة » فلا تبخل عليه بفكرك ولتكن مخلصا في نصيحته .

ج - و « تجرّع الغيظ » فلا تستعمله سريعا فإن الامام يقول: « اني لم أرَ جرعة احلى منها (من جرعة الغيظ وبلغه) احلى منها عاقبةً » .

د - وان اردت قطيعة أخيك ، فلا تقطع معه كل الصلات بحيث لا تستطيع الرجوع الى صداقته ثانية ، وانمّا « استبق له من نفسك بقيةً ترجع اليها إن بدى له ذلك يوما ما » .

هـ - « ولا تضيعنَّ حق أخيك » بحجة أنه أخوك وأن الأخ لا بدَّ أن يسامح اتكالاً على ما بينك وبينه من صداقة وأخوة .

« فانه ليس لك بأخ من اضعتَ حقَّه» كما قال الإمام (عليه الصلاة والسلام) .

١١

الاسرة : سعادة مسؤولة

الـزوجـة التي تـربط مصيـرهـا بمصيـرك . . والأولاد الـذين يتـربـون في احضانك ، امانات لا يجوز لك أن تفرِّط فيها .

عاملهم معاملة الصديق ولا تسمح « أن يكون اهلك اشقى الخلق بك » .

فعليك ـ من جانب ـ ان تحافظ على كرامتهم ، وعفافهم فـلا تدخـل عليهم من لا يوثق به .

وعليك ـ من جانب آخر ـ ان لا تحمِّل زوجتـك فوق طـاقتها ، فـإنَّ « المرأة ريحانة وليست بقهرمانة » .

كما قال الامام علي (عليه الصلاة والسلام)

وعليـك ايضاً ، أن تحسن الـظن بهـا ، وأن لا تكـون شكـاكـاً في عفـافهـا ومواقفها .

يقول الامام (عليه الصلاة والسلام) :

« إيَّاك والتغاير (اصطناع الغيرة) في غير موضع غيرة فإن ذلك يدعو المـرأة الصحيحة الى السقم . والبريئة الى الريب » .

١٢

الصمود . . أخيرا

الحياة ليست دائماً مـزرعة اليـاسمين . وانمـا هي خليط من الياسمـين ومن شوك الصَّبار .

والذين لا يتسلحون ضدَّ الشوك ، لا ينفعهم تلألؤ الياسمين .

انَّ الحياة ـ عقيدة أولاً ـ وجهاد في سبيل هذه العقيدة ثانياً.

ولا بـدَّ من الصمود . الصمـود تجاه الحيـاة القاسيـة . الصمود في مقـاومـة الالحاد . والصمود في وجه المشاكل .

يقول الامام علي (عليه الصلاة والسلام) :

« إطرح عنك واردات الهموم ، بعزائم الصبر وحسن اليقين »[1] .

ويقول (عليه الصلاة والسلام) : « الصبر يهوّن الفجيعة »[2] .

ويقول :

« اصبـر على عمـل لا بد لـك من ثـوابـه ، وعن عمـل لا صبـر لـك عـلى عقابه »[3] .

ويقول القرآن الكريم :

﴿يا بنـي أقـم الصـلاة وأمـر بالمـعـروف وانْه عـن المنكر واصبر عـلى ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور﴾[4] .

أوحى الله إلى داوود :

«تخلق بأخلاقي إني أنا الصبور ، والصابر إن مات مع الصبر مات شهيـدا ، وان عاش عاش عزيزا »[5] .

---

(١) من حديث طويل للامام أمير المؤمنين (عليه الصلاة والسلام) لـولده الامـام الحسن (عليه الصلاة والسلام) . نهج البلاغة ج ٣ ص ٣٧ ـ ٥٧ .

(٢) غرر الحكم : ص ٤٠ ح ٦٠٠ (ط. القارىء ـ بيروت) .

(٣) غرر الحكم : ص ١١٣ ح ٢٤٤٥ (ط. القارىء ـ بيروت) .

(٤) سورة لقمان الاية ١٧ .

(٥) كلمة الله ص ٢٢٥ .

وقال الله عز وجل :

« اذا وجهت إلى عبدٍ من عبادي مصيبة في بدنه أو ماله أو ولده ثم استقبل ذلك بصبر جميل استحييت منه يوم القيامة أن أنصب له ميزاناً وأنشر له ديواناً» .

جِيم

عَدالة اللهِ!

أسئلة كثيرة يطرحها البحث عن « عدالة الله » . تبتدىء بـ « لماذا خلق الله الأفراد متفاوتين في الذكاء والفهم ؟ » وتنتهي بـ « لماذا تنتصر قوى الشر والطغيان ؟ » .

وهذه الأسئلة قد تجد أجوبة مقنعة إذا أُخذ كل واحد منها بشكل منفرد ، ولكنها تظل تطرح نفسها بشكل أو بآخر ما لم تطرح القضية كلها على بساط البحث بشكل موضوعي وشامل ، لمعرفة ما إذا كان الله عادلاً ؟

هذا ما أحاول الكشف عنه خلال الصفحات المتواضعة التالية .

١

الكون : جدول القوانين العادلة

فحص عاجل ، يقوم به الانسان في الأشياء المطروحة حواليه يكفي للكشف عن نظام رائع يلفُّ الكون كله ، ابتداءً من السديم وانتهاء بالذرة .

وهذا النظام ، الذي يكشف بدوره عن حالة توازن شديدة العدالة ، هو الذي عرّف الانسان كيف يغازل القمر ، وكيف يمدّ يده الى المريخ ، وكيف ينصب المراقب في وجه الشمس ، ويسجل حرارة نواته في محاولة لإدخال الانسان في يوم ما الى جوفه .

والنظام يعني دائماً العدل . لأن اللانظام يعني اللاعدل . والقاعدة العقلية تقول ان كل قضية كان نقيضها كذباً ، فلا بد ان تكون هي صادقة .

والسؤال الآن هو ، من أين نعرف عدالة هذا النظام ؟

حتى لا نتيه في جدل بيزنطي نبتدىء بحوار فوضوي وينتهي بجدار مسدود لا بد أن نتوسل بالعلم الحديث الذي يقول مثلاً ان الارض تعيش على حالة عدالة لأنه :

١ ـ لو كانت الكرة الارضية أصغر حجماً مما هي عليه لضعفت جاذبيتها ، ولأفلت الهواء من جوّها وتبعثر في الفضاء ، ولتبخر كل ما عليها من الماء ،

ولأصبحت ـ نتيجة ذلك ـ مثل القمر : لا ماء ، ولا جو ، ولا حياة .

٢ ـ لو كانت الأرض ـ بالمقابل ـ أكبر حجماً مما هي عليه لازدادت قوتها الجاذبة ، ولأصبحت الحركة على سطحها أكثر مشقة ولازداد وزن كل منا أضعافاً مضاعفة ، بحيث لم يمكن حمله .

٣ ـ لو دارت الارض حول نفسها بسرعة أقل ، كسرعة القمر مثلاً ، لاستطال النهار الى أربعة عشر يوماً ، أي ٣٣٦ ساعة . ولتقلب الجو من حرّ مهلك بطول اسبوعين الى صقيع قاتل بطول اسبوعين . ولأصبحت الحياة مستحيلة في هذا الوضع .

٤ ـ لو ان الارض اقتربت في فلكها من الشمس مثل حال الزهرة لأهلكتنا الحرارة . ولو أنها ابتعدت في مدارها مثل زحل والمشترى لأهلكنا البرد .

٥ ـ لو كانت قشرة الارض أكثر سمكاً لامتصت الاوكسجين ، ولما وجدنا حاجتنا من هذا الغاز الثمين للتنفس .

٦ ـ لو كانت البحار أعمق مما هي الآن ، لامتصت المياه الزائدة ، كميات كبيرة من ثاني أوكسيد الكربون ، ولما وجد النبات كفايته ليعيش ويتنفس .

٧ ـ لو كان الغلاف الجويّ الذي يلف الكرة الأرضية ، أقل كثافة ، لأحرقتنا النيازك والشهب المتساقطة عليه بمعدل أكثر من ١٥٠ ألف شهاب ونيزك في اليوم الواحد .

٨ ـ لو زادت نسبة الأوكسجين الموجودة في الهواء لازدادت قابلية الاحتراق في الأشياء ، بحيث تتحول الحرائق البسيطة إلى انفجارات هائلة في لحظات معدودة . ولو انخفضت هذه النسبة لاستحال نشاطنا إلى خمول .

٩ ـ لو أن الثلوج المستريحة الآن على سطح المياه كانت أكثر كثافة من الماء لما طفت عليه ، ولما حفظت بالتالي أعماق البحار في حالة دفء طبيعية تصلح لحياة

الأسماك والأحياء البحرية .

١٠ ـ لو انعدمت مظلة الأوزون المنصوبة في الفضاء لتساقطت كميات قاتلة من الأشعة المختلفة ، وأحرقت كافة الأحياء بدل أن تتساقط بكميات معتدلة فتحفظ الأحياء .

وفي الإنسان أيضاً ، نجد دلائل التوازن العادل في كل قطعة من جسمه :

فكل عنصر في الدم مثلاً له نسبة ومقدار : الصوديوم ، البوتاسيوم ، الكالسيوم ، السكر ، الكوليسترول . . الخ وأيّ اختلال في هذه النسب ، ولو بمقدار ضئيل ، يكون معناه المرض فإذا تفاقم الاختلال فهو العجز ، ثم الموت !

ولم يكتف الله بإيجاد هذا التوازن في جسم الإنسان ، وإنما زوده بوسائل آلية تعمل في تلقائية ، وبعيداً عن شعور الإنسان على حفظ هذا التوازن العادل طوال الحياة .

فقلوية الدم لها ضوابط ، لحفظها .

وحموضة البول لها ضوابط لحفظها .

ودرجة الحرارة المكيفة دائماً عند ٣٧ مئوية ، ومن ورائها عمليات فسيولوجية ، وكيميائيةمتوازنة تحفظها ثابتة متزنة عند هذا المستوى .

ونجد هذا التوازن . . حتى في نبض القلب ، ونظام الامتصاص والاخراج ، ونظام الاحتراق الكيميائي في فرن الكبد . والاتزان العصبي بين عوامل التهدئة والاثارة .

وهكذا . . ﴿خلق كل شيء فقدّره تقديراً﴾[1] .

---

(١) سورة الفرقان الاية ٢ .

كل شيء ، بلا استثناء مقدّر في الحياة ، ويجري تنظيمه بانضباط كامل ، فالالكترون لا ينتقل من مدار إلى مدار في فلك النواة إلا إذا أعطى أو أخذ حزماً من الطاقة تساوي مقادير انتقاله وكأنه راكب في قطار لا يستطيع أن يستقل القطار إلا إذا دفع ثمن التذكرة !

فحتى ميلاد النجوم وموتها له قوانين وأسباب .

وحركة الكواكب في دولاب الجاذبية لها معادلة .

وتحول المادة الى طاقة ، وتحول جسم الشمس الى نور له معادلة وحساب . وانتقال النور له سرعة خاصة ، وحركة الموجة لها طول ، ولها ذبذبة ، ولها سرعة محددة .

وكل معدن يتمدد بمقدار ، ويتقلص بمقدار بالحرارة والبرودة . وكل معدن له كتلة ، وكثافة ، ووزن ذري ، ووزن جزئي ، وثوابت وخواص .

والكهرباء تتولد بقوانين ، كما يتحرك التيار الكهربائي ، ويتفاعل ، ويؤثر على أساس من فرق الجهد والشدة .

وحتى الزلازل التي قد تبدو للبعض أنواعاً من الفوضى ، لها نظام وأحزمة ، وخطوط تحدث فيها ، ويمكن رسم وتتبع الأحزمة الزلزالية بطول الكرة الارضية وعرضها .

وبكلمة : فان الكون كله جدول من القوانين المنضبطة ، الصريحة التي لا غش فيها ولا خداع .

واذا كان الكون كله جدولاً من القوانين المنضبطة فان استنتاجنا للعدل الإلهي يكون استنتاجاً واقعياً لأن الكون هو الذي يكشف عنه .

واذا كان الله يبني ، ويخلق ، ويربي على أساس من العدل والتوازن فهل من

المعقول أن لا يكون عادلاً ؟

﴿الرحمن* علّم القرآن* خلق الإنسان* علّمه البيان* الشمس والقمر بحسبان* والنجم والشجر يسجدان* والسماء رفعها ووضع الميزان* ألّا تطغوا في الميزان* وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان* والأرض وضعها للأنام* فيها فاكهة والنخل ذات الأكمام* والحبّ ذو العصف والريحان* فبأيّ آلاء ربّكما تكذّبان﴾[1] ؟ .

ان لكل أشياء العالم ، من الشمس الى القمر ، ومن النجم الى الشجر ، له ميزان خاص ، وقانون محدد ، وباستطاعة الانسان اذا عرف هذا الميزان أن يأخذ قلماً وورقة ويسجل أوضاع الأشياء كالكواكب ، والأشجار ، والنباتات بعد عشر سنوات من دون ان تكذبه الأحداث .

ولذلك فإن باستطاعة المنجم ان يضع تقويماً لمدة ثلاثمائة أو الف أو مليون سنة ، فيعين متى تشرق الشمس ، ومتى تغرب . لأن كل شيء يتحرك حسب قانون كوني عادل .

ولولا العدالة الكونية ، لما اكتشف الانسان القوانين العامة التالية ولما تمكن بالطبع من استخدامها في مصلحة نفسه :

١ ـ قانون الضغط الأزموزي .

٢ ـ قانون التوتر السطحي .

٣ ـ قانون تماسك العمود المائي .

٤ ـ قانون التفاضل الكيمائي بين هرمونٍ ، وهرمون .

---

(١) سورة الرحمن الاية ١ ـ ١٣ .

٥ ـ قانون رفض الفراغ .

٦ ـ قانون الفعل وردّ الفعل .

٧ ـ قانون الجاذبية .

٨ ـ قانون انعكاس الضوء .

وكل هذه القوانين وعشرات من أمثالها هو صوت ساخط ضد اللاّ عدالة ، ودليل واضح على عدالة الله التي تلف الأشياء جميعاً .

إذ لو افترضنا جدلاً أن هذه القوانين إنما تستمد أوضاعها من مركز اللا عدالة فإننا نواجه استفهاماً هاماً هو : كيف يمكن أن يكون وضع الكون لو تبدلت هذه القوانين ؟

فلو فرضنا أن الجاذبية خلاف العدل ، فهل تكون اللاجاذبية موافقاً للعدل ؟

اننا نعرف : إن تبدل قانون الجاذبية من قوة جاذبة إلى قوة دافعة تكفي بأن يخلق فوضى كونية لا تبقي ولا تذر .

وإذا كان تبدل قانون واحد خطيراً إلى هذه الدرجة فكيف يكون الأمر لو تبدلت كل القوانين والحقائق ؟

وقد يقولون : اذا كان الله عادلاً ، فلماذا خلق الحشرات المؤذية ؟

والحقيقة ان القضية هي أعمق من قضية حشرات ضارة ، أو حيوانات مؤذية . إن القضية هي قضية الفناء الذي يلفّ كل شيء في الحياة ، بحيث تجد أن كل موجود لا بد أن يكون يتربص به عامل فناء . وعلى هذه القاعدة تجد أن لكل شيء أيضاً ما ينغص عليه العيش .

فلكل شيء آفة من جنسه .

حتى الحديد ، سطا عليه المبرد .

وهكذا كان للأحياء آفة من جنسها : كائن حي .

هذا هو أمر مبدئي لا بد من قبوله ، لأن الحياة هي ـ على أي حال ـ مؤقتة لا يعيش فيها الفرد إلا على ألم . فحتى رئيس أكبر دولة تراه قلقاً متألماً .

إذن . . فلماذا لا نقبل الحشرات المؤذية كأدلة على أن الدنيا حياة ناقصة وأن الآخرة هي الحيوان ؟

لماذا لا نقبل الذبابة كحاملة للجراثيم الى أعتى الملوك وأطغى الزعماء كدليل على ضعفهم الى حدّ التراب ؟

لقد وقف شاعر سافل أمام أحد الملوك لينشد له :

ما قلت لا ما قالت الأقدارُ فاحكم فأنت الواحد الجبَّارُ

ولم يكد ينتهي من تلفظ ضمة الراء ، حتى وقفت ذبابة شرسة على جبهة هذا « الواحد الجبار » فكشها ، ولكنها عادت الى محطتها ، وكشها من جديد ، وعادت مرة اخرى . وفي المعركة التي دارت بين الذبابة وبين « الواحد الجبار » سقط الأخير من على عرشه وتمرّغ وجهه على حذائه . فقال أحد الحاضرين :

« ضعُفَ الطالبُ والمطلوبُ » .

أليس يكفي إذن : ان الذباب ينقل الجراثيم من مناطق الى اخرى للقضاء على الديكتاتوريات ؟

هذا بالإضافة الى : ان الجراثيم والحشرات المؤذية ليست دائماً مؤذية ، فإن كل جرثومة او حشرة تعتقد انها مؤذية ، تحمل أيضاً غصن زيتون في فمها ، سواء الى الإنسان أم الى الحياة بصورة عامة .

فهل هناك أشهر من الأفاعي من الناحية الإيذائية ؟

لقد اعتقد الإنسان في البداية أن هذه الأفاعي مؤذية لا تنفـع الحياة شيئـاً ، ولكنه اعتقد مؤخراً أن سموم هذه الأفاعي مادة مفيدة جـداً للاستعمـال كمخدّر لا يحمل أية مضاعفات . وتستعمـل هذه السمـوم كبديـل لمادة « المـورفين » التي تستعمل لتخدير المصابين بالسرطان .

إن جهلنا بمجموعة قضايـا الحياة هـو الذي قـد يدفعنـا الى الاعتراض عـلى وجـود حيوان هنـا أو حشرة هنـاك ، تمامـاً كما قـد يعترض من لا يفهم الهنـدسة الميكانيكية على وجود بعض القطع في جهاز الطائرة أو السيارة أو ما شابه ذلك .

٢

عدالة التشريع

اذا كان الله عادلاً في الخلق الى هذه الدرجة ، فهل يمكن أن يـأتي منهاجـه مخالفاً للعدالة ؟ .

من الواضح أن العـدل سنة طبيعيـة وضع الله الأشيـاء على أسـاسها ، فـلا يمكن أن يفـرض بعد ذلـك ما يخـالف هذه السنـة الطبيعيـة بعد أن « أبى الله ان يجري الامور إلا بأسبابها » .

من هنا تأتي العدالة التشـريعية في منهـاج الله ، حيث لا يحصل أي فـرد أو أية جهة على امتيازات ، إذ لا قرابة بين الله وبين أحد ، فكيف يمكن ان يفرض تفوق فئة على فئة أو انسان على انسان ؟

ان نصوص دين الله لا تعترف بأية مقاييس قد تريد أن تجعل لبعض الأفراد امتيازات ذاتية على حساب الآخرين .

وحتى الأنبياء ليس لهم امتياز ذاتي ، كل ما هنـالك أن الأقـرب الى العدالـة الإلهية ، والأكثر تطبيقاً لها ، يكون أقرب ـ بالطبع ـ الى الله ، وأعزّ لديه .

واذا لم يكن هناك امتياز لـلأفراد ، فـإن الأكثر التـزاماً بهـذا المبدأ يكـون له الامتياز . بمعنى القرب ، والأولوية .

﴿يـا أيها النـاس إنا خلقنـاكم من ذكـر وأنثى وجعلنـاكم شعـوبـاً وقبـائـل لـتـعـارفـوا إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم﴾[1] .

فـلا فرق بـين عجمي وعربي ، ولا بـين أبيض وأسـود ، إلا مـا يفـرق بـه أحدهم نفسه ، فيبعدها عن العدالة أو يقرّبها منها .

فالقصة اذن قصة الأقرب الى الواقع والأبعد منه ، وليست قصة امتيازات . فـالله عندمـا وضع السنـة الكونيـة الكذائيـة فإن الأقـرب اليها يكـون أقرب الى العدالة بحكم الطبيعة ، كـما أن الأبعد يكـون أبعد من العـدالة بحكم الـطبيعة أيضاً ، ولهذا يكون الأقرب أكثر حظاً ، والأبعد أبعد حظاً . .

. . « الأتقى » أي الأعـرف بالمنهـاج والأكثر التـزاماً بـه ، هذا هـو ميـزان « الامتيـاز » . وأي ميزان آخـر يكون زائفـاً لأنـه سيخـالف السنن التي وضعهـا الله .

وعلى هذا الأساس العادل يضع الله القوانين ، ويفرض العقـاب والثواب ، فيقول في حديث قدسي :

« خلقت الجنة لمن أطاعني ولو كان عبداً حبشياً ، وخلقت النـار لمن عصاني ولو كان سيداً قرشياً » .

ولكن ، قد يُطرح سؤال ، وهـو : اذا كان الله يضـع كل شيء عـلى أساس العدل ، فلماذا يقع الظلم ؟ أليس يعني ذلك ان الله يسمح بالظلم ؟

بالطبع هناك فرق بين أن يريد الله الظلم ، وبين ان يسمح به ، فهو لا شك لا يريد الظلم ، ولا يباركه فـ « ان الله لا يحب الظالـين » . وهذا يعني انـه يفرض العدل بالنسبة الى ما تكون له المباشرة الفعلية فيه ، فهـو عندمـا يخلق الانسان ،

---

(١) سورة الحجرات الآية ١٣ .

يخلقه على أساس التعادل والتوازن ، وعندما يخلق الأرض والأجرام الفلكية والمجرات يخلقها كلها على أساس التوازن والعدل ، ولكنه لا يقسر الآخرين - ممن لهم الحرية - على العدل إنما فقط يرشدهم الى مغبة ارتكاب الظلم .

فالله عادل بالنسبة الى نصف الانسان ، وهو جسمه وتعني عدالته انه فرض التعادل والتوازن فيه ، وهو عادل بالنسبة الى النصف الثاني منه ، وهو روحه وتعني عدالته هنا غير ما تعنيه هناك ، لأنها لا تعني انه يجبره على الابتعاد عن الظلم ، وإنما تعني انه تعالى لا يجبره على ذلك . وإنما يمنحه الحرية الكاملة في ان يعمل ظالماً ، أو عادلاً .

ولكن لماذا لا يجبر الله الانسان على اتباع العدل ؟

الواقع : ان الله خلق مخلوقات اسمها الملائكة ، وخلق مخلوقات اسمها الحيوانات ، وكانت الملائكة قمة في الوعي والإطاعة ، حيث لا اختيار لها في العصيان ولا داعي لها الى ذلك ، بينما كانت الحيوانات قمة في اللاوعي ، حيث تتبع غرائزها المودعة فيها بدون أن تكون لها القدرة على مخالفتها .

وعندما أراد أن يخلق نوعاً آخر من المخلوقات تكون وسطاً بين الملائكة والحيوانات ، بحيث تكون لها حرية كاملة في الإطاعة مع توفر بعض الغرائز الحيوانية فيها ، خلق الانسان .

ولو كان الله يريد أن يجبر الانسان على العدالة التي تعني الطاعة ، لما أصبح الانسان إنساناً ، وإنما ملائكة . كما أنه لو كان يريد أن يجبر الانسان على إطاعة الغرائز لما أصبح الانسان انساناً ، كذلك ، بل حيوانات بشرية .

ولكن الله أراد أن يخلق الانسان بميول وغرائز حيوانية ، وبحرية واختيار الانسان .

ولصفة الحرية التي خلقها الله في الانسان كان الطريق أمامه مفتوحاً لارتياد

مقام أعلى من مقام الملائكة ، اذا أحسن استعمال حريته ، كما كان الطريق مفتوحاً أمامه ، وبنفس النسبة ، للإسفاف الى حضيض عبودية الشهوات ، والسقوط في الحيوانية . غير ان الله لم يكتف بإيجاد الحرية في الانسان ، وإنما ألهمه كيفية استعمال هذه الحرية . ألهمه عن طريق العقل والفكر ، وألهمه عن طريق أنبيائه وصلحائه .

يقول الله : **﴿ونفس وما سوَّاها * فألهما فجورها وتقواها﴾**[1] .

فبيّن له الخير ، كما بيّن له الشر ، ووضع أمامه قائمتين : قائمة فيها الأشياء التي تضره ، وقائمة أخرى فيها كل ما ينفعه .

﴿قد أفلح من زكّاها ، وقد خاب من دسّاها﴾[2] .

ثم ترك له الحرية الكاملة في أن يختار القائمة الاولى ، أو القائمة الثانية .

فأنا وأنت لا نشعر بأي ضغط ، من أية جهة ، لا على أجسامنا ، ولا على تفكيرنا . فنحن نختار كيفية الحياة التي نعيشها بملء إرادتنا ، من دون ان يكون هناك « فرض » علينا من قِبل أحد .

وحتى الذين يولدون في ظروف ، وأجواء استثنائية ، يستطيعون ـ بحكم تجارب الآخرين ـ أن يتخلصوا منها ، ليعيشوا أجواء الحرية .

قال : **﴿ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا﴾**[3] ؟ .

وهذا يعني أن الإنسان يجد تجاوباً مع كل القوى العاملة في الكون ، حينما يعرف ، ويحاول أن يكون عادلاً في موقفه لأن الله أراد له ذلك .

---

(١) سورة الشمس الآية ٧ ـ ٨.

(٢) سورة الشمس الآية ٩ ـ ١٠ .

(٣) سورة النساء الآية ٩٧.

﴿والأرض وضعها للأنام﴾[1] و﴿وجعل فيهـا رواسي من فوقهـا وبارك فيهـا وقدّر فيها أقواتها﴾[2] و﴿هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا في منـاكبها وكلوا من رزقه﴾[3] و﴿خلق لكم ما في الأرض جميعاً﴾[4] .

فقوى الكون كلها حاضرة في خدمة الإنسان ، والسبيل إلى كسب صداقتها هو أن لا يخالفها ، وأن يعدل معها ، كما تعدل هي معه .

فبالوفاق مع سنن الكون يستطيع الإنسان أن يمتطيها ، كـما يمتطي الفـارس الجواد ، فهو حينما يفطن إلى اتجاه الريح ويضع شراع سفينته في مواجهتها بشكل متوازن ، يكون قد امتطى الريح ، وسخرها لمصلحته .

وهو حينما يتعرف على « الذرة » ويفلقها ، ويتصادق معها يكون قد امتطاها في الواقع ، واستعملها في خدمته .

وإذا كـانت بعض القـوى الكـونيـة تؤذي الإنسـان أحيـانـاً مما يبعثـه على التشكيك في عدالـة الله ، فإنمـا كان ذلـك نتيجة الجهـل وقلة الفكر ، وهـذا ما نعرفه اليوم جيداً .

---

(١) سورة الرحمن الآية ١٠ .

(٢) سورة فصلت الآية ١٠ .

(٣) سورة الملك الآية ١٥ .

(٤) سورة البقرة الآية ٢٩ .

٣

العدالة : ضمير في الانسان

لم يكتف الله تعالى بإقامة العدل في الكون ، وبأمر الإنسان التعرف عليه ، والعمل وفق قواعده ، وإنما جعله جزءاً من فطرة الإنسان بحيث يصبح لـه دافع داخلي إلى العمل به ، واصطناع مواقفه على أساسه .

فحاسة العـدل ، طبيعية في داخـل الإنسان ، بـل أن حاستهـا حتى في مثل الحيوانات الأهلية والمتوحشة .

فالقطة تشعـر شعوراً مبهماً بالجـريمة عنـدما تسرق قطعـة خبزمن المـائدة . ويستطيع كـل فرد أن يعـرف إحساس القـطة بالجـريمة من خـلال عينيها اللتـين تمتلآن بالإحســاس بالـذنب بعد كـل عملية سـرقة . وعنـدما يلحقهـا القصاب العادل وتنال الضربة على رأسها فإنها تغض من بصرها وتطأطىء رأسها ، وكأنها تدرك إدراكاً مبهماً انها نالت ما تستحق ، وأن ذلك هو حكم العدالة .

وأطفـالنا عنـدما يـرتكبون الفعـل يحسون إحســاسـاً طفـوليـاً بـالمسؤوليـة ، ويشعرون بالندم بعد الفعل مباشرة .

وهذا الإحساس الفطري الذي يولد به كل إنسان ويتصرف عـلى أساسـه ، يكشف لنا بوضوح على أن هناك نظاماً وقانوناً وعدلاً .

فنحن نطالب أنفسنا ونطالب غيرنا فطرياً وغريزياً بهذا العدل .

ونحارب باسم العدل .

ونقيم علاقاتنا ، أو ننسفها تحت راية العدل .

وننزعل إذا قيل للواحد منا إنك ظالم .

وإذا كان الظمأ الى أي شيء دليلاً على أصالته ، فكذلك الظمأ الى العدل دليل على أصالته .

وهذا بداهة فطرية . والبداهات الفطرية هي في الواقع أقوى الأدلة ، لأنها خالية من الغش ، ولأنها إحدى أبرز الدعائم التي تقوم عليها الحياة .

٤

لماذا الاختلاف ؟

في عائلة لا يتجاوز عدد أفرادها خمسة أشخاص فقط ، نجد اختلافاً بين الأفراد ، وهذا يؤكد الحقيقة التي تقول أن استعدادات الأفراد الطبيعية ليست دائماً متساوية .

فنحن إذا غالطنا في المواهب الكامنة ـ في الوقت الذي لا سبيل للمغالطة فيها اذا جرت الحياة في مجراها الصحيح ـ فإننا لا نستطيع أن نغالط في أن بعض الأفراد يولد باستعدادات فطرية للصحة والاكتمال ، بينما يولد آخرون باستعدادات جسدية تتقبل المرض والنقص والضعف ، وكذلك في الاستعدادات الروحية .

أليس ذلك ظلماً ؟

ـ نستطيع أن نؤكد بحزم : لا .

أولاً : لأن الحياة هي التي تتطلب الاختلاف والتفاوت ، بل ان ذلك من أوضح مقتضيات الضرورة .

فأن يكون الكاوتشوك رخواً فتصنع منه العجلات .

وأن يكون الحديد صلباً يصنع منه الموتور .

وأن يكون الخشب بين الرخو والصلب ليستعمل في صناعة الأبواب .

وأن يكون البلاستيك قابلاً للامتداد لتصنع منه المقاعد ، كل ذلك ضرورة لصنع السيارة . . فلولا هذا الاختلاف لما كنا نركب الآن الشيء الذي نسميه الآن « السيارة » .

وكما في الأشياء . . كذلك في الإنسان . لا بد أن يكون البعض أكثر ذكاءاً والبعض الآخر أقل ذكاءاً . والبعض أكثر قوة والآخر أقل قوة ، إذ لو خلق الله استعدادات الأفراد الطبيعية كلها متساوية لما جرت الحياة في مجراها الطبيعي إذ لو ولد الناس كلهم في أقصى حالات الذكاء لما رضي أحد أن يخدم الآخرين ، ولما خضع إنسان لإنسان ، ولاستحال قيام النظام والقانون .

إذن فالعدل هو الذي يفرض التفاوت في الاستعدادات والمواهب والارزاق ، وأن يفضّل بعض الناس على بعض .

ولكن بشرط إتاحة الفرص بصورة متساوية للجميع بحيث لا يقف أمام بعض الأفراد حسب أو نشأة أو ما شابه ذلك .

ثانياً : إن هوية الأفراد ـ وحتى الأشياء ـ إنما تحدد بالاختلاف فلا يمكن أن يوجد شيء ، ما دام محصوراً بالمادة ، إلا مختلفاً شكلاً أو جوهراً .

فالسيف يكون قطعة حديدية ليس أكثر ، إذا لم يكن أحد طرفيه أكثر « حدّة » من الطرف الثاني ، ورأسه أقل عرضاً من منتهاه .

والغرفة لا تكون غرفة إلا إذا كان جانب منها مرتفعاً بحيث يشكل جدرانها ، والبيت لا يكون بيتاً إلا إذا كان مدخله مختلفاً عن غرفه وصحنه . . وهكذا .

إن كل شيء لا بد أن يختلف طولاً وعرضاً ، ورأساً وذيلاً حتى تتحدد هويته ويأخذ مكانه الطبيعي .

لنأخذ : القمر الصناعي كمثال ،إنه يحتوي على أعداد ضخمة من الآلات والمسامير والأجهزة المختلفة الشكل والحجم ، وهذا الاختلاف نابع من نوع المسؤوليات الملقاة على عاتق كل آلة وجهاز .

ولولا هذا الاختلاف الكبير لما كان القمر الصناعي ، قمراً صناعياً ، بل قطعة كبيرة من الحديد .

وإذا كان هذا الاختلاف من صميم العدالة ، فإن الاختلاف في أمور الكون والحياة والإنسان يشكل جوهر العدالة الآلهية لأن اللاعدالة إنما تتحقق إذا تساوى الشيئان في وضع متحد وشرائط متحدة . بينما الأمر ليس كذلك بالنسبة إلى الحياة والإنسان .

ثالثاً : إن الظلم إنما يتحقق اذا كان الاختلاف بالنسبة الى من يستحق المساواة ، أما اذا لم يكن هناك استحقاق بالمرة فلن يكون هناك ظلم بسبب الاختلاف .

فأجزاء الكون ـ بما فيها الإنسان ـ لا تستحق على الله تعالى ، ولم تكن تستحق في أي يوم من الأيام شيئاً ، حتى يكون التفريق والتفضيل أمراً مخالفاً للعدالة .

وإذا تساءل البعض عن سبب الاختلاف في مقدار الذكاء الذي يتمتع به بعض الأفراد بينما لا يتمتع به البعض الآخر ، فإن الأحرى أن يتساءلوا عن سبب وجود الذكاء في الانسان وعدم وجوده في الأعشاب والأشجار ـ مثلاً ـ.

فنحن مخلوقون لله ، نعيش على سلفة ، على قرضة ، فكل نبضة قلب ، وكل خفقة نفس ، وكل خاطرة، وكل فكرة وكل خطوة هي قرض ، سلفة ننفقها من الرصيد . وهو رصيد لا نملكه ولم نبذل فيه جهداً ، وإنما هو عطاء مطلق أعطاه الله لنا منذ لحظة الميلاد .

وإذا كان مـا عندنا عطاءً مطلقاً ، فإن المفاضلة ـ التي تكون على أساس من الحكمة ـ لن تكون لا عدالة وظلماً إذ لم يكن هناك استحقاق مسبق لا من جانب الانسان الأكثر ذكاءً ولا من جانب الأقل ذكاءً .

إننا مخلوقون ، نموت ونحيا ، ونعيش على هبة محدودة من الخالق ، والخـالق هو الذي يمنح الهبة ، وهو الذي يحدّد نوعية ومقدار الهبة ، وله الحق الكـامل في ذلك ، لأننا لا نملك عليه حقاً .

ولهذا كان الله مستحقاً للحمد حتى على المكروه ، والنقص :

« الحمد لله الذي لا يحمد على مكروه سواه » . فلا شكوى عـلى من يعطي بالمجان ولو كان شيئاً قليلاً جداً .

٥

لماذا النقص

قد يقول قائل :

آمنّا بضرورة الاختلاف في المواهب ، والاستعدادات الفطرية ، فلماذا الاختلاف بالنقص والكمال ؟

لماذا يعطي الله لبعض الأفراد عينين سالمتين ، بينما لا يعطي للبعض الآخر إلا عيناً واحدة فقط ؟

لماذا يولد البعض وفيهم عاهات طبيعية كالصمم والخرس وما شابه ذلك ؟

لماذا يهيىء لفرد جواً يصبح فيه ملكاً ، ويجعل الآخر في وضع يصبح فيه مجرد عامل بسيط من عمال التنظيف ؟

لماذا تولد بعض الفتيات مشوَّهات الوجوه ، بينما تولد الاخريات ملكات جمال ؟

لماذا يولد البعض في أقصى درجات الثروة والمكانة المرموقة ، بينما يولد آخرون في أقصى درجات الفقر والحاجة ؟

أسئلة كثيرة يطرحها البعض على نفسه ، ويطرحها البعض الآخر على الله ،

ويحاول البعض الثالث ان يبرر بها كفره وإلحاده وربما تخلُّفه . . أيضاً .

وعلى أي حال فلا شك أن ذوي العاهات يحتجون على النقص الحاصل لديهم ، ولا شك أنهم يتبرمون ، ويتسخطون ، ويلعنون الحياة ، ويعتبرونها حياة لا تُحتمل ، ويعلنون أنهم يرفضونها ، وقد يتطاولون على الله جلَّ جلاله ، لأنه لم يأخذ برأيهم قبل ولادتهم معتبرين ذلك ظلماً فادحاً بحقهم .

والحقيقة : إننا لا نستطيع أن نعرف عدالة الله من تفاوت الأفراد من حيث النقص والكمال إلا اذا عرفنا مجمل السبب في وجود الانسان على وجه الأرض ، وذلك من خلال النقاط التالية :

أ ـ لم يكن وجود الانسان ـ أي إنسان ـ نابعاً عن إرادته ، فالبشر يولد ليس على أساس إرادته في الولادة ، فهو لا يملك أي اختيار فيها ، وإنما على أساس إرادة حكيمة تفرض عليه الميلاد .

ب ـ ليس موت الانسان ، أي إنسان ، نابعاً هو الآخر ، ـ وكنتيجة طبيعية لوجوده غير النابع منه ـ عن إرادته . فالبشر يموت وفق سنن لم يشارك هو في وضعها ، وإنما وضعها الله قبل ميلاده .

ج ـ عندما يكون الموت ـ بداية ، والموت نهاية ـ خارجاً عن اختيار الانسان ، فإن تحديد هدف الحياة لن يكون بالطبع بيد الانسان . لأن الهدف يكون سابقاً بطبيعة الحال على وجوده . فإذا لم يكن له وجود مسبق ، فلن يكون تحديد الهدف على يديه .

فمن يحدّد إذن ، هدف الحياة ؟

في الحقيقة يخطىء الكثيرون ممن يهرشون أدمغتهم في محاولة لوضع « أهداف » للحياة . لأن أي انسان لا يستطيع بحكم محدوديته بالموت ـ بداية ، ونهاية ـ أن يحدّد الهدف . إنه لم يضع التحديد فكيف يضع الهدف .

ولهذا فإن الذي يمكن أن يكشف الهدف إنما هو مَن خلق الانسان وحدّد وجوده مسبقاً ثم جاء به الى الارض . وهو الله تعالى .

فماذا يقول الله في هدف الحياة ؟

ان كلمة بسيطة ، وفي نفس الوقت عميقة وجهّها الله الى الانسان ، تلخص لنا هدف الحياة :

« يا ابن آدم . . خلقت الأشياء لأجلك . وخلقتك لأجلي » .

فالأشياء كلها مخلوقة لهذا الكائن العاقل الحرّ الذي اسمه الانسان . ولأنها مخلوقة له فانها تخضع لإرادته .

أما هو . . فليس مخلوقاً : لا لنفسه ، ولا لأبنائه ، ولا لإنتاجه ، ولا لأي شيء من هذا الطراز . وإنما هو مخلوق لله .

فالذي يعتبر ذاته ، ومصلحته الخاصة هدفاً لحياته لا بد أن يعبد نفسه التي تعني مجموعة من الأهواء والرغبات الرخيصة تماماً مثل شباب الهبيز ، والبيتلز ، والبوب .

« أفرأيت من اتخذ إلهه هواه . . »

فسقط في الجحيم

وكقضية موضوعية هل يمكن ان تكون الأهواء والرغبات أهدافاً للحياة ؟ ان الهدف لا بد ان يكون موجوداً قبل الانسان فكيف يكون ما هو نتاج وجود الانسان هدفاً له ؟

ان هدف الرماية يحدد قبل الرماية ، ولا يمكن أن تكون الثغرة التي تحدثها الرماية ـ بعد إطلاقها ـ هدفاً ـ للرماية ذاتها !

وهكذا الأمر بالنسبة الى الأمور الاخرى التي ظنها بعض السذج أهدافاً ، في الوقت الذي لم تكن إلا وسائل .

إن الحياة أعزُّ من ان يكون هدفها : المصلحة ، أو اللذة ، أو حتى استمرار النسل ، وزيادة الانتاج . ويهدرها الذين لا يعرفون هذه الحقيقة .

ان الله خلق الحياة من أجلنا ، فلمن خَلَقنا ؟

« خلقتُ الأشياء لأجلك وخلقتك لأجلي » .

فلا بد أن يخضع الانسان لمن خُلق له ، في كل خطوة من خطواته ، وكل نأمة من نأماته . فهو لم يخلق للعبث واللذة ـ وان كانت اللذة غير محرمة اذا حافظ الانسان في استعمالها على منهاج الله ـ وإنما خُلق . . لله .

غير ان معنى الخلق لله ليس هو : لزوم وضرورة القيام بعملية الركوع والسجود طوال الاربع والعشرين ساعة ، وإنما هو لزوم وضرورة الالتزام بمبادىء الله ، والسير على منهاجه وشريعته .

ولكن لماذا الالتزام بمنهاج الله ؟

لو كانت الدنيا آخر محطة في حياة الانسان لبدا هذا الالتزام بالنسبة الى كثيرين غير ذي لزوم ، غير ان الدنيا هي مرحلة اختبار يأتي فيها الانسان ليبرهن على قدرته على الترفع على الحيوانات ليعيش بعد ذلك في جنة عرضها السماوات والارض .

ولهذا فان الالتزام بمنهاج الله ضروري لأجل مصلحة الانسان المقبلة .

ان الله خلق الانسان ليترحم عليه . ولكن : هل يمكن ان يترحم الله على من لا يستحقها بأي شكل من الأشكال ؟ هل يمكن أن يعلّق الله القلائد على أعناق الخنازير ؟

ولكي يعرف كل فرد ماذا يستحق وماذا لا يستحق جاء به الله الى الدنيا ، وابتلاه ـ ربما ـ ببعض الأمور ليعرف كم سيكون صابراً ، وإلى أي مدى يستطيع أن يترفع على مصالحه ولذائذه العابرة في سبيل الله ؟

ان الذين يعانون من بعض النقائص لم يأتوا الى الدنيا ليبقوا فيها ، ولا ليعيشوا فيها حتى لمدة الف عام ، وإنما الدنيا مرحلة متوسطة بين عالمين . مضى الاول بعد ان ترك فينا آثاراً فطرية . وسيأتي الثاني مبتدءاً بالموت .

وكما قال الإمام علي (عليه الصلاة والسلام) :

ألا إنما الدنيا كمنزل راكب   أناخ عشياً وهو في الصبح راحل

فالدنيا ليست الهدف وإنما هي تهدف الى عالم آخر هو النهاية التي يصير اليها الجميع ، وليس الانسان في الدنيا إلا في حالة امتحان . فهو يشبه الى حد ما الفنان الذي يؤدي دوراً ما في مسرحية ، ويقتضي هذا الدور ان يتلقى بعض الاهانات خلال العرض وأمام المتفرجين . غير ان هذه الاهانات ليست إلا جزءاً من البرنامج ، فلا بد من وجودها ، لأن في غير هذه الصورة لن يتقاضى الفنان أية نقود .

فلو افترضنا ان هذا الفنان فقد الذاكرة ، ولم يتذكر من شريط حياته سوى هذا الدور الذي يؤديه (على خشبة المسرح) خلال العرض ، فانه ولا شك سيحتج ، ويرفض أن يتلقى الإهانات ، وربما تطاول على صاحب المسرحية لأنه لم يأخذ برأيه في ذلك ، ولأنه حكم عليه بتلقي الإهانات أمام الناس بلا أي مبرر وبدون اختيار منه . ناسياً أن دوره في المسرحية مؤقت ، وانه لو صبر على ذلك فسيحصل على مبلغ محترم من المال . ولأنه ينسى ذلك تتحول حياته بما فيها من تكاليف وآلام الى علامات استفهام وألغاز غير مفهومه .

وهكذا الانسان في الحياة . ان الذي يعتبر الدنيا هدفاً للحياة وانه ليس له

وجود غير هذا الوجود الثلاثي الأبعاد على خشبة الحياة الدنيا لا شك سيتذمر من كل نقص سيجده في نفسه بلا اختياره . وهو تذمر ينتج عادة عن النظرة الضيقة الى الحياة . تلك النظرة التي يبدو منها الألم والنقص غير مفهوم اطلاقاً .

ومن يقول قد يكون الله خلق الشخص المعين أعمى لأن اختباره لم يكن يتم إلا في مثل هذه الصورة ؟

وهكذا الأعرج ، والناقص الأعضاء ، والقبيح . . . الخ .

يقول الامام علي (عليه الصلاة والسلام) : « أيها الناس ان الله قد أعاذكم من ان يجور عليكم ولم يعذكم من أن يبتليكم وقد قال جل من قال : **﴿ان في ذلك لآيات وإن كنّا لمبتلين﴾**[1] »[2] .

هذا بالاضافة إلى أننا نرفض أن يكون الله يريد لبني الانسان ـ حتى الناقص منهم ـ الشقاء في الدنيا ، ولذلك فإننا نجد أن فرص السعادة متوفرة للجميع بمستوى واحد . فالذي يحرمه الله من كل المواهب يترك أمامه فرصاً أكثر للاستفادة من مواهبه الاخرى بحيث يمكن أن يصبح البليد الذي لا يفهم ، أحسن حالاً وأكثر سعادة من أخيه الذكي الجيد الفهم ، كما يمكن أن يحرز الانسان الأعمى نجاحاً أكبر من الإنسان البصير .

فقدرات الإنسان لا تنتهي ، ولو قطع الله مصدراً من مصادرها فلا شك أنه سيعوض عنها بمصادر أخرى تعويضاً لما فقده .

كل ذلك بالنسبة إلى الذين يأتي حرمانهم من بعض الأعضاء أو المواهب من قبل الله عز وجل . فلا يكون الله ـ بطبيعة الحال ـ مسؤولاً عنهم .

---

(١) سورة المؤمنون الآية ٣٠.

(٢) نهج البلاغة ج ١ ص ١٩٨

قد تسأل : ما ذنب الطفل الذي يولد أعمى العينين إذا كان والده قد ارتكب الجريمة ؟ وما ذنب الطفل الذي يولد مريض الكبد إذا كان والده سكيراً ؟ وهل يأخذ الله الإنسان بفعل غيره وهو الذي يقول : **﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾**[1] ؟

والجواب : إن الله وضع قوانين معينة ، وقدَّر الأمور تقديراً حكيماً عادلاً ، ثم حذَّر الإنسان من عواقب مخالفة القوانين - التي كشف عنها عن طريق الأنبياء والرسالات - وهذه العواقب طبيعية ، تترتب على المخالفة ، سواءاً رضي الإنسان أم أبى .

فكما أنه إذا أطلق شخص ما النار على شخص آخر بريء ، فإن هذا الشخص سيموت حتماً ، ولا يعتبر موته هذا مخالفاً للعدالة الآلهية ، بحجة أنه **﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾** . كذلك فإن الأب إذا ارتكب جرائم معينة - حذَّر الله منها - فإن طفله قد يولد ناقصاً ، ويكون الأب هو المسؤول أولاً وأخيراً عن هذا النقص ، وليس الله .

---

(١) سورة فاطر الآية ١٨ .

٦

السعي لاقامة العدل :

وهنا تساؤل هام يقول :

ماذا تعني عدالة الله ؟ وما هي ضرورة الايمان بعدالته ؟وما يترتب على ذلك ؟

والجواب : إن العدالة جزء من ذات الله ، وليست صفة طارئة عليه ليمكن الإيمان بالله مجرداً عن العدالة . فالإيمان بالله يعني الإيمان بعدالته ، كما يعني الإيمان بقدرته ، كما يعني الإيمان بعلمه ، كما يعني الإيمان بحياته . . . الخ . كما ان الكفر بعدالة الله يعني الكفر بالله .

فالله ليس كأحدنا ذاتاً مجردة عن الصفات ، وإنما هو ذات تتحد مع الصفات اتحاد الذات مع نفسها . فلو آمنّا بإله لا عدالة له ، فليس ذلك الإله هو الله بلا تردد .

أما ماذا يترتب على ذلك ، فهو ـ على سبيل المثال :

١ ـ إن النجاح أو الفشل لأي فرد أو أمة أو مبدأ لن يكون إلا بالسير وفق قوانين العدالة ، وأسس الصدق .

صحيح ان بعض الأفراد ، أو الأمم ، يكسبون نجاحات باهرة على حساب قواعد العدالة ، ولكن ليست هذه النجاحات إلا فقاقيع صابون تنتفخ لفترة

محددة ثم تذوب .

٢ ـ إن الظلم لا يمكن ان يمرّ بسلام ، لأن الظلم خرق للعدالة ، وليس من العدل ان تمرّ عملية الخرق هذه بلا مجازاة ، إن لم يكن اليوم فغداً ، وإن لم يكن غداً فبعد غد ، وإن لم يكن في الدنيا ففي الآخرة . المهم ان الظلم لا يمرّ بلا عقاب .

حدث مرة أن التقى رجل بمتهم بالقتل كان يمثُل للإعدام .

وعندما سأله الرجل : هل أنت مجرمٌ فعلاً ؟

أجاب : لا .

قال : فالحكم الذي سينفذ فيك ليس عادلاً ؟

أجاب : إنه عادل ، ولا شك !

قال له : كيف يمكن ذلك ؟

أجاب : في الواقع ، أنا مجرم ، ولكنني لست مجرماً بالنسبة الى الجريمة التي سينفذ فيّ على أساسها حكم الإعدام . فأنا ارتكبت جريمة مماثلة ، في محل لم يطلع عليَّ أحد إلا الله . وأظن أنني أدفع الآن ثمن ذلك القتل ، وليس ثمن القتل الذي لا أعرف مرتكبه .

وطبيعي ان الظلم لا يجب ان يكون بحجم القتل حتى يجد جزاءه العادل ، يكفي أن تكذب على صديق لتواجه في يوم ما كذباً من صديق .

ويكفي أن تسبَّ بلا استحقاق ، ليسبّك شخص ما ، في وقت آخر ، بلا استحقاق .

ولا يعني هذا ان كل ظالم سيعاقبه الله ، لا بد من الصبر عليه ، لأن جزاء ومعاقبة الله شيء ، وضرورة مكافحة الظلم شيء آخر . إذن : فالذين يطالبون

الله ان ينصفهم في الوقت الذي يهملون هم السعي لأجل تحقيق هذا الانصاف ليسوا في الواقع مؤمنين بعدالة الله .

لأن الاعتماد على العدل الالهي ، والاستراحة على سرير الفقر والمرض والتخلف ، يعني مطالبة الله بتحقيق العدل على وجه الأرض بالجبر والاكراه . وهما بالنسبة إلى كائنات حرة كالإنسان هو الظلم بعينه .

لقد أعطى الله الإنسان : كل فرص العمل ، وأعطاه الفكر ثم أمره بالإستقلال ، كل ذلك من أجل مصلحته ، من دون أن يسمح له باهمال كل تلك الفرص ، وترك التفكير اعتماداً على أن يحقق الله خيره عن طريق المعجزة . لأن الله لو كان يريد أن يفعل ذلك لما خلق الدنيا رأساً .

وعلى كل حال : فإن العمل للعدل ، هو نوع من العدل الذي نحن مطالبون به .

أ ـ ولهذا :

فعندما مرض موسى بن عمران (عليه الصلاة والسلام) ، ورفض أن يراجع الطبيب قائلاً : « لا أُعالج حتى يشفيني الذي أمرضني » ، يعني الله ، عندما قال ذلك أوحى الله اليه :

لا أعالجك حتى تستشير الطبيب .

ب ـ ولهذا أيضاً :

أمر رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) الرجل الذي ترك جمله خارج الجامع توكلا على الله ، أن يعود اليه ويعهده ، قائلاً له :

اعقل وتوكل .

ج ـ ولهذا أيضاً :

عندما رأى الإمام علي (عليه الصلاة والسلام) المرأة التي كانت جالسة على رصيف الشارع تدعو الله أن يعالج ابلها الأجرب قال لها :

يا أمة الله أضيفي الى دعائك شيئاً من القارّ .

ولا نقصد من ذلك البرهنة على لا جدوائية الدعاء ، وانما المقصود أن مجرد الاعتماد على عدالة الله لا يكفي . بل لا بد من التوسل بالوسائل التي قال عنها الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) : « أبى الله أن يجري الأمور إلا بأسبابها » ثم الدعاء حتى تعطي هذه الوسائل نتائجها المطلوبة .

٧

لماذا تنتصر قوى الشر ؟

هناك مقطوعة شعرية تقول :

« أنا لا أستطيع أن أهضم كيف تجعل الخنازير تفترس الحملان ؟ » .

« وكيف تجعل قوى الشر تنتصر على قوى الخير ؟ وكيف تجعل السحب السوداء تستعمر تلول الجبال الهادئة ؟ » .

« أنا لا أستطيع أن أهضم : كيف تموت العصافير تحت مخالب الصقور ؟ » .

وهذه المقطوعة هي ، في الواقع ، مقالة كثيرين من الناس ، إذ كيف يمكن أن نؤمن بالعدالة ونحن نرى هزيمة الخير في مقابل الشر ؟

ولكن هذا الاستفهام وأمثاله ، يبدو تافهاً جداً إذا أخذنا بعين الاعتبار ما ذكرناه سابقاً من أن الإنسان هو الكائن الوحيد الذي منحه الله الحرية التامة في اختيار المواقف في الوقت الذي وفّر له كل متطلبات العمل ، واختيار الموقف ، ووضع تحت إرادته كل قوانين الكون وقواه .

ولكن ما ذنب الله اذا تقاعس الخيِّرون ، واستغل الأشرار هذا التقاعس لتقوية مراكزهم ؟

إن الله لم يهيء للجلادين أكثر مما هيَّأ للمصلحين ، فإذا ما تقاعس المصلحون وانتصر الجلادون ، فهل يجب ان نحمِّل الله مغبَّة ذلك ؟

إن الدولة التي تضع دوائر البريد والهاتف والماء والكهرباء في متناول استفادة الجميع ، لا تكون مسؤولة عن الذي لا يستفيدون منها ، ويعيشون في حالات تخلُّف مُزرية .

وهكذا الله . لقد خلق الكون منطقة مفتوحة لكل البشرية ، وعليهم هم أن يعرفوا ذلك ويستغلوه . أما الخنازير التي تفترس الحملان . . . والسحب السوداء التي تحتل قمم الجبال الهادئة . . . والعصافير التي تموت في ظل مخالب الصقور . . . وما الى ذلك من القضايا الشعرية ، فإن الله لم يُعطِها فرصاً أكثر مما أعطى ضحاياها ، إنما الضحايا هي التي تقاعست .

وما ذنب الله في ذلك ؟

٨

هل يعذب الله ؟ لماذا ؟

الطائشون في الحياة لا يفكرون في الموت إلا بعد أن يضعـوه في المزهـرية . ومنطقهم في ذلك :

« إننا نموت . . »

« حسناً . فهل سندخل الجحيم ؟ » .

« صحيح اننا نرتكب الخطايا ، » .

« وصحيح ان الخطيئة تتعقب لدى الانسان أشد العقـاب ، ولكن من يقول ان الله كالانسان يعذب على الخطيئة ؟ » .

« هـل الله ـ اذن ـ أشبه بجـلاد ؟ هل هـو إله نـاقم على العبـاد ؟ وهل هـو أخيراً يحب التعذيب ؟ » .

« إننـا نرتكب الخـطايا ، هـذا لا شك فيـه ، ولكننا نـرجـوا رحمـة الله التي وسعت كل شيء » .

ووضع الموت المهول ، في هذا الإطـار المائـع إن هو إلا محـاولة التهـرب من مواجهة الله مع الأيدي العاصية ، والوجوه الخاطئة .

غير ان التهرّب لا يغير الواقـع شيئاً . فـالله لا يحب التعذيب والنقمـة اذا لم

يكن هناك من يستحقها فهو : « أرحم الراحمين في موضع العفو والرحمة » ولكنه في الوقت ذاته « أشد المعاقبين في موضع النكال والنقمة »[1] .

ان العدالة هي التي تتطلب معاقبة العصاة ، والعطف على الطيبين ، فلو انعكس الأمر ، فعوقب الطيب ، وعُطف على العاصي أفلم يكن ذلك ظلماً لكلا الجانبين ؟

ان التظاهر بالاتكال على الله لن ينفع العصاة لأن الله لا يرحم إلا مستحقي الرحمة ، أما مستحقو العذاب فلن يذوقوا إلا وبال أمرهم . ولا شيء سوى ذلك .

والذين يسترسلون في ملاهيهم الخسيسة ، ولذائذهم الواطئة ويفكرون في الاخير أن الله سوف يتغاضى عن جميع آثامهم وشرورهم ، ويسامحهم في ذلك ويضعهم في الصف الذي يضع فيه الذين حرّموا على أنفسهم ملاذ الدنيا في سبيل الآخرين . . هؤلاء ينسون أن الله عادل . ومعنى ذلك انه يعاقب المخالفين ، ويكافىء الملتزمين . وأن اموره ليست مبنية على الفوضى ليفعل الطائشون ما يريدون في الحياة ان يفعلوه ، ثم يتربعوا على الارائك ينظرون .

ان حكومة بسيطة لا تملك من شئون الناس إلا تنظيم بعض قضاياهم تعاقب وبشدة كل من يخالف قوانينها وأنظمتها ، وترى في ذلك تحقيقاً للعدالة ، فكيف اذن ينتظر الطائشون ان يعفو الله عنهم ، ويجازيهم على أعمالهم الجزاء الحسن ؟

إن الله عادل ، ومعنى ذلك أن لكل طاعة لديه حساب ، ولكل عصيان لديه عقاب :

---

(١) من دعاء الافتتاح : « مفاتيح الجنان » للمرحوم القمي ص٣٦٠ .

﴿فمن يعمل مثقال ذرَّة خيراً يرَه * ومَن يعمل مثقال ذرَّة شرّاً يَره﴾[1] .

﴿أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً لا يستوون﴾[2].

﴿أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم جنات المأوى نُزُلاً بما كانوا يعملون﴾[3] .

﴿وأما الذين فسقوا فمأواهم النار كلما أرادوا أن يخرجوا منها أُعيدوا فيها وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذي كنتم به تكذِّبون﴾[4] . .

---

(١) سورة الزلزلة الاية ٧ ـ ٨ .

(٢) سورة السجدة الآية ١٨ .

(٣) سورة السجدة الآية ١٩ .

(٤) سورة السجدة الآية ٢٠

حاء
الرسل والرسالات

إذا وقف الإنسان لمدة خمس دقائق أمام المرآة ، فإنه سيجد أن كـل عضو في جسده قد وضع في محله المناسب ، فالعين مـوضوعـة في مكان مناسب. والأذن في مكان مناسب . والأنف في مكان مناسب . والشَعر في مكان مناسب ، بحيث لو دُحرجت العينان إلى مكان الاذنين ، وركزت الأذنان محل العينين ، ونقل الأنف إلى خلف الـرأس ، وهاجـر الشعر إلى داخـل الوجـه ، لأصبحت صورتـه أشبه بالصور الكاريكاتورية ذات المنظر البشع .

وأيضاً . .

لو نُقلت اليدان إلى محلِّ الرجلين ، والصـدر إلى مكان الـظهر ، والأصـابع إلى محل الجبهة، لأصبح الانسان حيواناً يستحيل عليه العيش بسهولة .

وكما في الأعضاء الخارجية كذلك في الأعضاء الداخلية : كل عضو موضوع في محله المناسب . حتى الخلايا فإنها تتمتع بموقعية مناسبة بدليل أن أقل تغيير في أقل جزء في داخل الانسان يؤدي إلى المرض . فالمـرض هو - في حقيقتـه - وقوع خلل جزئي في عضو من اعضاء الانسان .

وكل هذا يعني أن عدالة حقيقية يتمتع بها الانسان من الناحية الجسدية

ولكن هل القضية تختص بالانسان وحـده ؟ كلا . فكـما في الانسان كـذلك في الحيوان . . كذلك في الاشجار . . كذلك في أجزاء الكون :

« كل شيء بلا استثناء مقدّر في الحيـاة ، ويجري تنـظيمه بـانضباط كـامل .

فالالكترون لا ينتقل من مدار إلى مدار في فلك النواة إلا إذا أعطى أو أخذ جزءاً من الطاقة تساوي مقادير انتقاله ، وكأنه راكب في قطار لا يستطيع أن يستقل القطار إلا إذا دفع ثمن التذكرة » .

« وإذا كان الكون كله جدولاً من القوانين المنضبطة فان استنتاجنا للعدل الالهي يكون استنتاجاً واقعياً ، لأن الكون هو الذي يكشف عنه[1] » .

وإذا آمنا بعدالة الله في أجزاء الكون ، فاننا لا بد أن نؤمن بعدالته أيضاً في الهداية والارشاد . ذلك لأن العدالة تأبى أن يخلق الخلق بالملايين ويتركهم يتيهون في ظلام الجهل والغباء . خاصة بعد أن نجد أنه تعالى قد أرشد حتى الحيوانات إلى ما فيه خيرها ، فجعل لها غرائزها التي تهديها إلى صوابها . ﴿ربّنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى﴾[2] .

فكيف يمكن أن يترك الانسان بلا هداية ، ولا غرائز ؟

ان عدالة الله التي أبت على الكون إلا أن يسير ضمن خطوط متزنة هي التي تأبى عليه إلا أن يرسل إلى الأرض من يقود الانسان إلى ما فيه خيره ، ويضع له البرامج الكفيلة باسعاده . وهم الأنبياء .

قال أمير المؤمنين (عليه الصلاة والسلام) ـ في حديث طويل ـ إن الله (تعالى) قال للملائكة : ﴿إنّي جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبّح بحمدك ونقدّس لك﴾ وقالوا : اجعله منا ، فإنا لا نفسد في الأرض ، ولا نسفك الدماء : قال الله تعالى :

«يا ملائكتي إني أعلم ما لا تعلمون ، إني أريد أن أخلق خلقاً بيدي ،

(١) « عدالة الله » للمؤلف .

(٢) سورة طه الآية ٥٠ .

(٣) سورة البقرة الآية ٣٠ .

أجعل من ذريته انبياء مرسلين ، وعباداً صالحين : أئمة مهتدين ، أجعلهم خلفائي على خلقي في أرضي ينهونهم عن معاصيَّ ، وينذرونهم عذابي ، ويهدونهم إلى طاعتي ، ويسلكون بهم طريق سبيلي ، وأجعلهم حجة لي عذراً ونذراً »[1] .

لقد أراد الله العدل ، فأجبر الشمس والقمر والكواكب ان تجري في مدارات عادلة . وأجبر الأشجار والحيوانات ان تتبع أنظمة معينة . وأراد العدل فأجبر جسد الانسان أن يتبع نظاماً معيناً ، فالقلب يعمل ما دام الدم يجد طريقه في العروق والمعدة تشتغل ما دامت تجد « الوقود » والكبد يقوم بعمليته الاعتيادية ما دامت الروح في الجسد .

وأراد العدل ، فترك للانسان أن يعمل بوحي من وجدانه الذي زرعه فيه من عالم الذّر :

﴿ونفس وما سوّاها* فألهمها فجورها وتقواها* قد أفلح من زكّاها* وقد خاب من دساها﴾[2] .

ولكن الله أبى في الانسان ان يجبره على اتباع العدل كما فعل في الحيوانات والاشجار والكواكب ـ لأن إجباره على اتباع العدل يعني سلبه أهم ميزاته ، وهو : الحرية .

غير أنّ الله تعالى كثّف من وسائل توعية الإنسان في جانب الوجدان القابع في أعماقه ، فقد زود الله الإنسان بالعقل وزوده بالعلم ، ومع ذلك أرسل اليه الأنبياء والرسل وأنزل معهم المناهج والشرائع : ليذكروا الانسان بوجدانه ، ويحسّنوا سريرته ، وينظموا حياته ، ويهدوه سواء السبيل .

---

(١) كلمة الله ص ٨٨ .

(٢) سورة الشمس الاية ٧ ـ ١٠ .

من هنا كان إرسال الرسل قضية تقتضيها عدالة الله ، واذا لم نؤمن بهذه العدالة ، لم نجد أي داع الى إرسال الرسل ، ولكن حاجة الإنسان إلى الدين والرسالة هي التي تلح على ذلك بعد أن اثبتت التجارب البشرية حتى الآن عجز الانسان الى التوصل إلى النظام الأفضل ، والشريعة الأحسن لحياته .

إذن فما دام أن الله موجود ، فلا بد أن يكون عادلاً وما دام أنه عادل ، فلا بد أن يرسل الأنبياء .

يقول الامام الصادق (عليه الصلاة والسلام) في الإجابة على سؤال : من أين نثبت الانبياء والرسل :

«انّا لما أثبتنا أن لنا خالقاً صانعاً متعالياً عنا وعن جميع ما خلق ، وكان ذلك الصانع حكيماً متعالياً لم يجز أن يشاهده خلقه ، ولا أن يلامسوه فيباشرهم ويباشرونه ، ويحاجّهم ويحاجونّه ، ثبت أن له سفراء في خلقه ، يعبرّون عنه الى خلقه وعباده ، ويدلونهم على مصالحهم ومنافعهم ، وما به بقاؤهم ، وفي تركه فناؤهم فثبت الآمرون والناهون عن الحكيم العليم في خلقه والمعبرون عنه ـ عز وجل ـ وهم الأنبياء» .

اذا كان وجود الانسان على وجه الارض وجوداً موقتاً ، فلا بد من استغلال هذا الوجود استغلالاً كاملاً ، لئلا تفوت الفرصة ، وتصبح من النادمين .

إنّ كل لحظة من حياة الانسان لها قيمتها الخاصة ، وأي تفريط في ذلك يعني تفويت الشيء الكثير ، والكثير جداً .

يقول الشاعر :

انفاس عمرك اثمان الجنان فلا تشري بها لهباً في الحشر تشتعلُ

ولكن من أين نعرف : ما الذي يجب علينا أن نفعل لكي نكسب من (انفاس عمرنا) بدل أن نخسر بها ؟

لقد نسينا وقائع (عالم الذّر) ومع نسياننا لتلك الوقائع لم نعد قادرين ، بالمقدار المطلوب ، على معرفة ما ينفعنا وما يضرنا في الدار الدنيا والدار الآخرة على حد سواء .

فلا بد إذن من يد هادئة تمتد من السماء لتعرفنا على طريق الخير والسعادة في كلا الدارين . لأن البشرية برمتها نسيت القضايا ، ولأنها بالإضافة إلى ذلك ، لا تعرف من أمر الآخرة شيئاً .

فالآخرة مصير الانسان . ولكنها غيب ، ولا يعلم الغيب إلا الله .

وإذا كان الكون كلّه مخلوقاً بهدف ـ كما يدلّ على ذلك كل جزء من أجزائه ـ فلا بدّ أن يكون الانسان أيضاً مخلوقاً بهدف . فما هو الهدف من خلق الإنسان ؟ .

يقول الله تعالى في حديث قدّسي :

« قل لعبادي . .

لم اخلقكم لأربح عليكم ، ولكن لتربحوا عليّ »[1] .

غير أنه لا يمكن « الربح على الله » إلا بالسير على منهاجه ، ولا يكون هذا الربح إلا في « عالم الأخرة » .

وأبت رحمة الله إلا أن يكشف للانسان بوضوح عما ينفع في الآخرة وعما يضر . فأرسل الأنبياء الذين جاءوا : « ليذكروا الناس بمنسي نعمته ـ تعالى ـ وليثيروا لهم دفائن العقول » كما قال الإمام علي (عليه السلام) ـ.

وهكذا هبط علينا مائة وعشرون الف نبي ورسول ، كل واحد منهم يحمل على كتفيه تباشير السماء إلى الانسان وكل واحد منهم يكشف للانسان عن ماضيه وحاضره ، ومصيره ، ويضع له المنهاج الذي يكفل له سعادة الحاضر والمصير .

---

(١) كلمة الله ص ـ ١٦٩ .

وارسال الرسل ـ كان ضرورياً لحياة الإنسان من جهتين :

الجهة الأولى ـ لاستكشاف وضعه فيما بعد الموت أي في الآخرة ، لأن غير الأنبياء لا يستطيعون بأي شكل من الأشكال بيان تأثير أعمال الانسان في الدنيا على وضعه في الآخرة . فالقضية لا ترتبط بأمر قائم تحت مقاييس هذا العالم ليمكن معرفة تفاصيلها عن طريق التحليل في المختبرات ، وإنما ترتبط بأمور تحكمها مقاييس تختلف كلية عن مقاييس هذا العالم .

فعلينا اذن ـ أن نتعبد بكل تعاليم الانبياء بلا زيادة أو نقصان إذ لعل زيادة بسيطة أو نقصان بسيط يؤدي إلى سقطة أخروية لا يمكن القيام عنها .

إن حالة الانسان في الدنيا تشبه إلى حد بعيد حالة الجنين في رحم أمه فان كل حركة للجنين قد تؤدي إلى بروز حالات معينة في مقتبل عمره فلو افترضنا أننا اعطينا للجنين حرية العمل ، وافترضنا أنه تفهم حالته ، فانه لن يستطيع ان يعرف ماذا سيكون وضعه فيما بعد الولادة ولذلك فانه لا يستطيع أن يعرف آثار تصرفاته في رحم امه ، على وضعه بعد الولادة . وربما سيكون أول تصرف يصدر عنه انه يقوم بقلع عينيه ، لأنه لا يستطيع أن يعرف ، وهو راقد داخل ثلاث ظلمات فوائد العين . ومن ثم لا يستطيع أن يعرف آثار تعمية العين .

وكما أن الجنين لا يفهم ذلك إلا عن طريق من ولد ، وعرف الأشياء والأعضاء ونوعية الحياة ، ومتطلباتها ، كذلك الانسان في الحياة الدنيا : انه لا يستطيع أن يفهم أهمية واجبات الله لأنه لا يعرف نوعية ومتطلبات الحياة الاخرى . وليس عليه إذا أراد أن يكون سعيداً في تلك الحياة إلا ، أن يلتزم بمنهاج الانبياء ، كلمة كلمة ، وخطوة خطوة .

إذ لو سمح الإنسان لنفسه أن ينساق وراء أهوائه ورغباته فإنه سيرتكب كل المحرمات ، وبذلك يخلف آثاراً سيئة على مستقبله الاخروي .

من يقول . . لعلَّ ارتكـاب الزنـا هنا ، يؤدي ـ مثـلا ـ إلى عمى العينين في الآخرة ؟

ولعلَّ ترك صلاة الصبح هنا ، يؤدي إلى العرج في الآخرة ؟

ان مقـاييسنـا لا تستـطيـع أن تكشف لنـا عن آثـار أعمـالنـا ، عـلى الحيـاة الاخرى ، تماما كما أن مقاييس الجنين لا تستطيع أن تكشف لـه عن آثار أعمـاله على الحياة الدنيا .

من هنا فانا بحاجة إلى من يكشف لنا عن آثار أعمالنا في الدنيـا على حيـاتنا في الآخرة . وهم الأنبياء .

إن الأنبياء فقط يستطيعون أن يسلطوا الأضواء الكشافة على ما نحتـاج ، أو لا نحتاج اليه ، في الآخرة .

وعلينا أن نؤمن بكلمات الله التي يحملها الينا الأنبياء ، حتى وإن كانت غـير واضحـة لنا تمـاماً . لأنّ هـذه الكلمات تكشف عن حقـائق واقعـة لا نستـطيـع اكتشافها نحن بوسائلنا القاصرة .

وعلينا أيضاً أن نحمل أقوال الأنبياء عن آثار اعمال الدنيا على الآخرة محمل الجدّ وليس محملَ التشبيه والتمثيل .

فإذا قال الله تعالى :

﴿إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً﴾[1] .

فلا بدَّ أن نؤمن ان التفاحة المسروقة من مـال اليتيم ، تتحول إلى نـار تصلي

---

(١) سورة النساء الآية ١٠ .

بمجرد أن يأكلها الإنسان . ولكنها نارٌ لا تحكمها مقاييس الدنيا بل مقاييس الآخرة فهي موجودة الآن ، ولكنها ستحرق فقط بعد الموت .

واذا قال الامام الصادق (عليه الصلاة والسلام) :

« من أعان على مؤمن بشطر كلمة لقى الله عز وجل يوم القيامة مكتوباً بين عينيه : آيس من رحمتي »(١) .

فلا بد أن نؤمن أنه سيكون مكتوباً بين عينيه ذلك فعلاً ، وان القضية ليست قضية تمثيل وتشبيه .

ويطرح ها هنا سؤال وهو : هناك كلمات مأثورة من الانبياء تفيد بأن بعض الاعمال الصغيرة لها تأثير كبير على وضعنا في الآخرة ، مع أن العقل البشري لا يستطيع أن يهضم أن اثاراً كبيرة كالتي ذكرت في هذه الكلمات يمكن أن تترتب على مثل تلك المعاصي الصغيرة ؟

والجواب : ان كِبرَ حجم المعصية وصغرها في نظرنا لا يحدد آثارها الآخروية ، لأن أهمية المعصية أو لا أهميتها لا تحدد من قبل الإنسان ، فالانسان لا يعرف أثار العمل . وواضح ان اثار العمل هي التي تحدد نوعيته لا حجمه الخارجي .

ان الازرار الصغيرة قد تحمل على كتفها قوى كثيرة ـ مثلاً ـ الأزرار التي ترتبط باطلاق الصواريخ ذات الرؤوس النووية فهي وإن كانت في نظرنا صغيرة ، ولكن خطرها ليس بحجم ما نرى منها ، وإنما بحجم الآثار التي تترتب عليها .

وهكذا أعمال الإنسان . إنها قد تكون صغيرة في نظر بعضنا ولكن ما

---

(١) الاصول من الكافي ج ٢ ص ٣٦٨ .

يترتب عليها قد تكون أموراً كثيرة وخطيرة جداً .

الجهة الثانية ـ لسعادة الإنسان في الدنيا .

فنحن نعيش وسط مجموعة من القوانين الكونية المنضبطة وهي قوانين اكثرها غير معلوم للإنسان . ولأنها غير معلومة للإنسان فإنه لا يستطيع أن يعرف مصالحه الحياتية . لأن مصالحه ترتبط بشكل جذري بالروابط الطبيعية الحاكمة في الارض .

وأدل دليل على جهل الإنسان بالروابط الكونية هو كثرة ما يرتكبه من حماقات . وكثرة تراجعه من مواقعه الخاطئة ، فلولا جهل الانسان لما كان أيّ داع للتراجع عن مواقف يبنيها بعزم وإصرار .

وإذا فوّضنا الى الانسان مهمة تشريع المناهج والخطط التي يجب السير عليها ، فما الذي يحدث ؟

يكفي أن نلقي نظرة فاحصة على ما يجري الآن في العالم كلّه من حروب ، ونزاعات ، وفساد عريض يلف كل جزء من الأرض ولا يخلو منها أي بلد من بلدان العالم سواء الصناعية منها أو البدائية . يكفي أن نلقي نظرة فاحصة على ذلك لنعرف نتائج هذا التفويض .

وإذا كان ما نشاهده اليوم نتيجة طبيعية لابتعاد الانسان بعض الشيء ، عن مناهج الأنبياء ، فكيف ستكون الصورة لو ابتعد كليةّ عن هذه المناهج ؟

ان الانسان يخضع من حيث يريد أو لا يريد لمصالحه ، وشهواته ، وهو لذلك لا يستطيع أن يشرّع إلاّ وفق مصالحه الخاصة . ولهذا فإنّ المشرّعين في العالم ينحازون دائماً لجانب على حساب جانب آخر .

وبسبب ذلك يقع :

١ ـ التمييز العنصري

٢ ـ التمييز القومي .

٣ ـ التمييز القبلي .

فهل هناك بلد لا يعاني من أحد هذه الأنواع من التمييز غير الإنساني المغلّف بالقانون ؟

أمّا الأنبياء ، فانّهم :

أولاً ـ لا يخضعون لأهوائهم ، لأنّهم معصومون عن الخطأ والمعصية .

ثانياً ـ لا يتكلمون عن هواهم الخاص ، وإنما ـ كما قال القرآن الكريم عن نبيّ الاسلام : ﴿**وما ينطق عن الهوى * إن هو إلاّ وحي يوحى**﴾[1] .

وواضح أنه ليس بين الله وبين أحد قرابة ، ولذلك فلا يمكن أن تنحاز شرائع الانبياء لايّ جانب إلاّ إذا كان ذلك الجانب يستحق في الواقع هذا الانحياز على أساس :

﴿**إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم**﴾[2] .

والخلاصة : انّ على الانسان أن يتبع الانبياء :

أولاً ـ لكي يسعد في الآخرة .

ثانياً ـ لكي يسعد في الدنيا .

فسعادة الدنيا لا يمكن الحصول عليها إلا عن طريق الانسجام مع السنن الكونية . ذلك لأنّ السعادة تكمن دائماً في الانسجام فكلمة : انا سعيد بزوجتي

---

(١) سورة النجم الآية ٣ ـ ٤ .

(٢) سورة الحجرات الآية ١٣ .

تعني : انا منسجم معها . وكلمة : انا سعيد ببلدي تعني : انا منسجم فيها مع الآخرين .

وهكذا فإن سعادة الإنسان لا يمكن تحقيقها إلا إذا تحقق انسجام كامل بين بني الانسان وبين سنن الكون . وطبيعي أن البشرية لم تتعلم بعد سوى الشيء القليل جداً عن هذه السنن .

أمّا الله فهو خالق الكون ، وباليقين هو أعرف بما يحافظ على ترابط وانسجام الانسان مع ما في الكون من أشياء .

فمعرفة الرّوابط التي هي شرط ضروري لتحقيق السعادة من قبل النظام أمر لا يحصل إلا للانبياء .

ولهذا فإن كلمات الانبياء إنما هي كشف للروابط ، وليست مجرد نظريات :

فمثلاً قول الانبياء :

« ما من عبد يسرَّ خيراً إلا لم تذهب الايام حتى يظهر الله له خيراً ، وما من عبد يسرَّ شراً إلا لم تذهب الايام حتى يظهر الله له شراً »[1] .

وقوله :

« إن الذنب يحرم العبد الرزق »[2] .

وقوله :

« حق على الله أن لا يُعصى في دار إلَّا اضحاها للشمس حتى تطهرها »[3] .

هذه الأقوال هي روابط كونية يكشف عنها الأنبياء ، تماماً كما هي رابطة

---

(١) الأصول من الكافي ج ٢ ص ٢٩٦ .

(٢) ،(٣) الأصول من الكافي ج ٢ ص ٢٧٢ .

كونية قوله : « إذا كثر الزنا كثر موت الفجأة » فمن ترى كان يمكنه أن يعرف كل ذلك غير الله ؟ .

ماذا يريد منا الأنبياء ؟

على ضوء ما تقدم نستطيع أن نجيب على سؤال : « ماذا يريد منا الانبياء ؟ » بما يلي :

لا شك أن الانبياء لا يريدون منا أن نطعمهم أو نكسوهم أو ندفع اليهم الضرائب . فما أقل كل ذلك بالنسبة إلى رجال السماء ، وكلما يريد هؤلاء الطيبون هو أن نصبح مثلهم طيبين ، وأن نفتح عيوننا على ما ينفع وما يضر ، ونمشي على خطوط الضوء ، وليس في متاهات الظلام .

يقول القرآن الكريم :

﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة﴾[1] .

ان الانبياء يريدون أن نعود إلى رشدنا ، وان نشحذ عقولنا وان نفكر فنعمل ، وليس نعمل ثم نفكر في نتائج أعمالنا .

كل نبي جاء إلى الناس كان شعاره :

﴿لا أسألكم عليه (على الهداية) أجراً ، إن أجري إلا على الذي فطرني (خلقني) أفلا تعقلون﴾[2] ؟

إنهم كالأمطار الخيرة ، يهبطون علينا ، لا لشيء إلا من أجل أن تنبت أعشاب عقولنا . ولا يرجون من وراء ذلك إلا رضا الله والدار الآخرة .

وكل ما تحمله هؤلاء كان في سبيل خير الانسان ، وسعادته ، ورفاهيته في

---

(١) سورة الأحزاب الآية ٢١ .
(٢) سورة هود الاية ٥١ .

الحياتين : الدنيا والاخرى .

فما تحمله النبي يحيى (عليه السلام) من الذبح في طشت !.

وما تحمله النبي زكريا (عليه الصلاة والسلام) من قطع أوصاله بالمنشار داخل شجرة ! .

وما تحمله موسى وعيسى والنبيون جميعاً ، من أذى قومهم وتعنتهم . !

وما تحمله الرسول الأعظم ، من التهم والعداء ، والتشريد حتى قال : ما أوذي نبي بمثل ما أوذيت . !

كل ذلك إنما كان من أجلي أنا . . ومن أجلك أنت ، ومن أجل بني الانسان جميعاً ، إذ لم تكن لهؤلاء الطيبين أية مصلحة سوى تحقيق رسالاتهم الخيرة .

فأية مصلحة يمكن ان تتصورها للرسول الأعظم ، وهو يخوض غمار سبعين حرباً خلال عشر سنين . ؟

وأية مصلحة يمكن أن تكون لديه ، وهو يرفض عرض قريش السخي بتقديم ما يريد من أموال وفتيات وسلطان ويقول قولته الشهيرة :

« . . والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر (الرسالة) ما تركته » . ؟

ان الأنبياء يريدون لنا السعادة . فهم يسعون جاهدين لاكتساح الشقاء من على كل بقعة من الأرض . يريدون أن يعرّفوا الانسان على ما يملك من كنوز في أعماقه ، وعلى ما يستطيع أن يفعله من خير وسعادة .

واتباعنا لهم . لا يربحهم شيئاً ولكنه سيربحنا حتماً . وهذه حقيقة لا شك فيها . . .

الايمان بالانبياء جميعاً

يبلغ عدد الانبياء مائة وأربعة وعشرون الف نبي ، أرسلهم الله في مناطق مختلفة ، وعلى فترات متفاوتة زمنياً .

وكان آدم (عليه السلام) بداية سلسلة الأنبياء . .

وكان محمد بن عبد الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ختام هذه السلسلة[1] . . وواضح ان على الانسان أن يؤمن بالأنبياء جميعاً ، وأن يعمل بتعاليمهم بلا تفرقة . وذلك لأن الانبياء هم رسل الله ، وما دام ان الله لا يمكن ان يخطيء فان على البشرية أن تتعبد بكل كلماته ابتداءاً من التي نزلت على آدم ، وانتهاءاً بما نزلت على محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) .

﴿قولوا آمنّا بالله وما أُنزل إلينا وما أُنزل الى إبراهيم واسماعيل واسحق

---

(١) بعث الرسول الأعظم : محمد بن عبد الله بن عبد مناف بن هاشم ، في عام ٦١٠ م وكان عمره يومذاك أربعون عاماً ، حين نزل عليه جبرئيل وهو يتعبد في غار حراء القريبة من مكة . وقال له : إقرأ . قال النبي : ما أقرأ ؟ قال : إقرأ . قال : ما أقرأ ؟ قال : إقرأ . قال النبيّ : ما أقرأ ولست بقاريء ؟ قال جبرئيل : **﴿بسم الله الرحمن الرحيم اقرأ باسم ربّك الذي خلق* خلق الإنسان من علق* إقرأ وربّك الأكرم* الذي علّم بالقلم* علّم الإنسان ما لم يعلم*. .﴾** بعدها غادر النبي غار حرّاء ليدعو مجتمع قريش الى الدين الذي نزل عليه ، وكان أول عمل قام به أن هدى زوجته خديجة ، وكافله أبا طالب ، وابن عمه علياً إلى الاسلام فقبلوه عن وعي ومعرفة . ولكن لم يقبل الاسلام من قريش إلا نفر قليل . ولما بدأ الاسلام يدب إلى نفوس الناس ، قاومته قريش بقوة وعنف مما اضطر النبي إلى الهجرة إلى « يثرب » (المدينة المنورة ، حالياً) ومن هناك استقر الاسلام . توفي النبي عام ١١ هجرية وكان عمره اذ ذاك ٦٣ عاماً قضى ٢٣ عاماً منها في نشر رسالة الله .

وخلال هذه الفترة نزلت عليه ٦,٣٤٢ ـ آية ضمن ١١٤ ـ سورة .

ويبلغ عدد المسلمين اليوم : مليارد نسمة موزعين في كل انحاء العالم .

ويعقوب والأسباط وما أُوتي موسى وعيسى وما أُوتي النبيّون من ربّهم لا نفرِّق بين أحد منهم ونحن له مسلمون﴾[1] .

ويقول ايضاً في صفات المتقين :

﴿والذين يؤمنون بما أُنزل إليك وما أُنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون* أُولئك على هدى من ربّهم وأُولئك هم المفلحون﴾[2] .

من هنا كان الأخذ بتعاليم آدم ونصائحه ضرورياً بنفس النسبة الذي هو ضروري الاخذ بتعاليم ونصائح نوح ، وابراهيم ، وموسى وعيسى ومحمد (صلى الله عليه وآله وسلم) .

ويبرز هنا سؤال هو : لماذا أرسل الله اكثر من نبي ؟ ولماذا جاء هؤلاء الانبياء في فترات معينة من تاريخ الانسان ؟

والجواب : ان بعث الانبياء على فترات من الزمن كان ضرورياً جداً من حيث ترقيةالانسان ، ذلك لأن الرسالات كانت تفقد بمرور الزمن ، قدرتها على التفاعل مع الحياة ، ومن ثمّ قدرتها على تغيير المجتمعات عما كانت تعتاد عليه ، بحيث كان ظهور رجال من طراز موسى ، وعيسى ، ومحمد (صلى الله عليه وآله وسلم) ضرورياً من الناحية القيادية ، إلى جانب الناحية الرسالية ، لأن من دون قيادة هؤلاء المباشرة كان يستحيل احداث تغيرات جذرية في بنيات المجتمعات البشرية .

وكان ضرورياً أن يكون هذا الطراز « انبياء » وليس افراداً عاديين لأن الانسان العادي مهما كان عبقرياً فإنه يتأثر بمجتمعه ، ويظل يحمل ، من حيث يدري أو لا يدري ، ترسبات فكرية وتقليدية من غبار المجتمع الذي ينبع منه

---

(١) سورة البقرة الاية ١٣٦ .

(٢) سورة البقرة الاية ٤ ـ ٥ .

ويتثقف فيه . بينما لا يمكن للانبياء أن يحملوا أية ترسبات ، أو يتأثروا بأية عوامل خارجية ، وذلك لاتصالهم المباشر بالله ، وعصمتهم عن الانزلاق في مهاوي المصالح والشهوات .

ولأنّ ظهور الأنبياء كان ضرورياً من الناحية القيادية ، فاننا نجد أن منعطفات التاريخ تبتدىءمن انبعاث نبي من الانبياء ، وليس من ظهور ثورات اجتماعية ـ كما يحلو للخرافيين التشدق به ـ فهجرة المجتمع الإنساني من التوحش إلى التحضر ، ومن التحضر إلى التعلمّ إنما تمت بهداية مباشرة من الأنبياء ، وليس بجهود أيّ أفراد آخرين .

وهكذا كان من الضروري أن يأتي أكثر من نبي ليحدث على الأرض أكثر من تغيير اجتماعي وفكري . .

ويبرز هنا سؤال آخر هو : إذا كان ظهور عدة آلاف من الأنبياء ضروريا فهل كان ظهور عدة رسالات ضرورياً كذلك ؟ ثم هل كان إختلاف الرسالات من بعض النواحي ضرورياً هو الأخر ؟ ولماذا .؟

والجواب : ان ظروف الانسان الخاصة عبر التاريخ ومدى نضجه العقلي هما اللذان كانا يفرضان نوعاً خاصاً من التعاليم ومقداراً معيناً من الواجبات والفرائض .

فإنسان زمان آدم ربما لم يكن قد وصل إلى نضج عقلي يسمح له أن يتفهم كل تعاليم الله ، ولذلك فان مرحلة نبوة آدم كانت مرحلة محدودة انتهت ببعث النبي الذي جاء بعده ، لأنّ تعاليم تلك المرحلة كانت تعاليم بدائية نوعاً ما ، تتناسب مع عقلية الانسان فيها .

وهكذا كان الأمر بالنسبة إلى النبي موسى ، والسيد المسيح ، وغيرهما من الأنبياء العظام . فان هؤلاء لم يحملوا إلى الناس كل كلمات الله وانما حملوا بعضاً

منها ، لأن العقول لم تكن تتحمل أكثر من ذلك .

ونستطيع أن نشبه أدوار الإنسان ، ونسبتها إلى الرسالات بادوار الطفل وهو ينتقل في المدرسة من صف الى صف ، ومن مرحلة الى مرحلة ، حتى ينتهي به الدور الى الدراسة الجامعية .

فالإنسان البدائي ، في الزمن السحيق ، تلقى من انبياء الله الحقائق الاولية تماماً كما أن الطفل يتلقى في الصف الاول أوليات العلوم ثم كلما ارتقى الى مدارج العقل نزلت عليه شرائع أكثر عمقاً وشمولاً حتى إذا وصل إلى مرحلة النضج العقلي نزلت عليه شريعة الاسلام بكل عمقها وشمولها ، واختتمت به الرسالات .

فالاسلام بالنسبة إلى الانسان ، كالدراسة الجامعية بالنسبة إلى الطفل ، يعطي الكلمة الفاصلة الاخيرة عن المناهج الضرورية لحياة الانسان ولهذا فقد انتهت الرسالات السماوية .

ويقول القرآن الكريم :

﴿ونزّلنا عليك الكتاب تبياناً لكلّ شيء﴾[1] ولم يعد بعد « تبيان كل شيء » أية حاجة إلى أية رسالة جديدة لان النضج البشري وصل من حيث العقل إلى منتهاه وبدأ تطوره من ناحية الادوات والوسائل .

يقول الرسول الاعظم ، وهو يحدّد مهمته الرسالية :

« إنما بعثت لأتمم مكارم الاخلاق »[2] .

ويبرز هنا سؤال ثالث هو : كيف يتم الاتصال بين النبي وبين الله ، ولماذا

---

(١) سورة النحل الآية ٨٩.

(٢) راجع كتاب : « مكارم الاخلاق » للشيخ الطبرسي .

لا يشاهده الناس ؟

والجواب : اننا لا نستطيع في الواقع أن ندرك حقيقة هذا الاتصال . لأن مقاييس هذا الاتصال ليست نفسها مقاييس الاتصال بيننا نحن البشر ، غير أننا نستطيع على سبيل المثال ـ ان نذكر حدوث كثير من الوقائع مع عجزنا عن ادراكها . فالعلم الحديث يكشف عن وقوع حوادث كثيرة من حولنا في كل لحظة مع العلم اننا لا ندركها ، واستطاع العلم أن يكشف عنها بعد أن اخترع آلات دقيقة لتسجيل بعض الأصوات مما ظهر معه وجود اصوات وأمواج ضخمة جداً حول كل فرد ، مع أنه لا يسمعها .

ومن الاجهزة العلمية ما وصل التقدم فيه إلى حدّ انها تسجل صدام الاشعة ـ الكونية في الفضاء .

لقد اخترعت آلات كثيرة اثبتت انها تستطيع ادراك وتسجيل كثير جداً من الاحداث التي لا يمكننا التعرف عليها بالطرق السمعية العادية .

وهذه الطاقة غير العادية للسماع لا تخص الآلات العلمية الحديثة وانما وهبها الله لبعض الحيوانات ايضاً . فاذا كان جهاز سماع الانسان محدوداً إلى درجة معقولة ، فان اجهزة سماع بعض الحيوانات تختلف كل الاختلاف عن الانسان وهكذا في الشم فالكلب مثلاً يستطيع أن يشم ريح الحيوان الذي مرّ من الطريق . ولهذا فقد استغل الانسان الكلاب في البحث عن المجرمين ، فالقفل الذي كسره اللص يشمه الكلب المدرّب ، ثم ينطلق مقتفياً أثر الرائحة المعينة التي وجدها عند القفل المكسور ، وفجأة نراه يمسك باللّص من بين آلاف المارة .

وهناك حيوانات كثيرة أخرى ، تسمع أصواتاً تخرج عن قدرة أسماعنا ، حتى أنه يستطيع أن يسمع ويحس الحركة التي تحدث في نصف القطر من ذرة الهيدروجين .

وكل هذا يعني أن هناك طرقاً يمكن اجراء الاتصال بواسطتها تختلف تماماً عن الطرق العادية التي يستعملها الناس .

من هنا ، فلا بد من الايمان بامكانية اتصال انسان ما على وجه الارض بخالق الكون ، وان يسمع الصوت الذي يخلقه ، من دون أن يستطيع الذين يعيشون حوله من سماعه .

إذ ما دام من الممكن أن توجد في هذا العالم حركات واصوات لا تسمعها آذان الانسان ، وتسجلها الآلات التي اخترعها الانسان فإن من الممكن أيضاً ان تلتقط آذان النبي بارادة الله تعالى ، أصواتاً يخلقها الله ، ولا تلتقطها الآذان الاخرى .

من أين نعرف النبي ؟

كما أن أية دولة عندما ترسل سفيرها إلى دولة أخرى تزوده بأوراق اعتماد ، تثبت ـ من جهة ـ تمثيله لبلاده ، وتقطع من جهة أخرى ـ الطريق على من يدّعي الممثلية بلا استحقاق . .

كذلك الله . . عندما يرسل نبياً إلى أمة ما ، يزوده بكافة البراهين التي تثبت ـ من جهة ـ رسالته وتقطع الطريق ـ من جهة أخرى ـ على كل من تسول له نفسه بادعاء رسالة كاذبة .

وهذه البراهين تنقسم عادة إلى قسمين :

القسم الاول ـ ما يختص بالذين يعاصرون النبي .

القسم الثاني ـ ما يعمّ المعاصرين وغيرهم .

ويتشكل القسم الاول من « المعجزات الوقتية » مثل « تبدّل العصى إلى أفعى » بيد موسى (عليه الصلاة والسلام) . و « إحياء الموتى » على يدي السيد

المسيح (عليه الصلاة والسلام) و « تكلم الحصى » على كفّ الرسول الأعظم (صلى الله عليه وآله وسلم) .

ويتشكل القسم الثاني ، من « المعجزات التي لا تفقد معجزيتها » خلال الازمان .

وإذا لاحظنا تاريخ الانبياء نجد أن جميعهم قدّموا معاجز لاممهم حتى آمنوا بهم ، بالاضافة إلى أن التعاليم الرائعة التي قدموها للانسان كلها معاجز إذ يستحيل على أمثالهم أن يقدموها في تلك الازمنة السحيقة إلا إذا كانت صادرة من منابع السماء .

ولكن بصورة عامة فإن معاجز الانبياء أصبحت تاريخاً بالنسبة لنا في الوقت الحاضر ، فنحن نستطيع أن نتعرف عليها ، فقط عن طريق فجر صادق . إذ ليست هنالك أية معاجز حاضرة للنبي موسى ، أو للنبي عيسى أو أي نبي سابق على ذلك .

وهذا أيضاً يؤكد محدودية رسالة الانبياء بصورة عامة ـ باستثناء رسالة الرسول الأعظم (صلى الله عليه وآله وسلم) ـ بأزمنة خاصة .

غير أن معجزة الاسلام لا تزال موجودة ، ويستطيع أي شخص أن يتعرف عليها في أي زمان ومكان .

فما هي تلك المعجزة .؟

قبل الاجابة على ذلك لا بد من البحث بصورة غير مفصلة عن الرسول الاعظم ورسالة الاسلام كحديث تاريخي .

تتحدث التواريخ بصورة عامة أن النبي كان معروفاً في قومه قبل إعلان الرسالة بالصدق ، واداء الامانة ، ومضت عليه أربعون سنة ، وهو مثال في هاتين الخصلتين . حتى أن كل رجل كان يقصد الخروج من مكة ، كان يودع

أمواله لدى النبي ، دون رجال عشيرته . ثم أعلن الرسالة فجأة ، وبلا تعلّم من أحد .

وجاء إعلانه للرسالة كالتالي :

جمع رجال قريش حول جبل صفا قائلاً لهم :

يا بطون قريش :

ان الرائد لا يكذب أهله ، أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم ، أكنتم تصدقوني !

فأجابوا بصوت واحد : نعم .. نعم .. ما جرّبنا عليك كذباً .

وأعلن رسالته . ولكنهم لم يصدقوه ..

فقدم لهم معاجز متنوعة وكثيرة ، استطاعت أن تهدي الكثيرين إلى اعتناق الاسلام .

وكان من الطبيعي جداً أن يقدم النبي للناس مثل تلك المعاجز بعد أن أعلن لهم بصراحة وأكثر من مرة ، ان كل الانبياء كانوا يملكون معاجز خاصة بهم . فلو لم يكن يقدم لهم المعاجز لكان الناس يقولون له ـ: انك تقول ان كل نبي كان يملك المعجزة . فأين هي معجزتك حتى نصدق برسالتك ؟

ولكن التاريخ لا يحفل بهذا الطراز من المجابهة . وهذا يعني أن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قد قدّم لهم مثلاً معاجز خاصة ، كانت ربما اقوى من معاجز الأنبياء السابقين .

وعلى أي حال فإن آثار النبوة ، وادّلة الرسالة كلها موجودة في شخص الرسول الأعظم (صلى الله عليه وآله وسلم). فأي دليل يدل على نبوة موسى(عليه الصلاة والسلام) ولا يدل على نبوة الرسول الأعظم ؟

وأي دليـل يمكن أن يقدمـه النصارى لنبـوة السيد المسيـح ولا نجد مثيله في الرسول الأعظم ؟

ان انكار نبوة رسـول الاسلام لا يمكن ان يمـرّ إلا بانكـار نبوة بقيـة الرسـل والأنبيـاء على أسـاس أنه لـو لم يكن شخص كمحمد بن عبـد الله نبيـاً من قبـل الله ، فليس هناك أي نبي على وجه الأرض .

فاذا آمنا بصورة اجمالية بأن الله قد أرسل انبياء إلى الارض فلا بد أن نعتقد أن رسول الاسلام هو أحدهم بلا ترديد(١) .

وكيف لا نؤمن به ، وهو الذي هز مرابض الشرك والعبودية حين ولادته :

يقول الامام الصادق (عليه الصلاة والسلام) : كان ابليس لعنه الله يخترق السماوات السبع ، فلما ولـد عيسىٰ (عليه الصـلاة والسلام) حجب عن ثـلاث سماوات ، وكان يختـرق أربع سمـاوات ، فلما ولد رسـول الله (صلى الله عليـه وآلـه وسلم) حجب عن السبع كلهـا ، ورميت الشيـاطـين بـالنجـوم ، وقـالت قريش : هذا قيام الساعة الذي كنا نسمع أهـل الكتب يذكـرونه ، وقـال عمرو بن امية ـ وكان من أزجر اهل الجاهلية : انظروا هذه النجـوم التي يهتدى بهـا ، ويعرف بها أزمان الشتاء والصيف ، فـإن كان رمي بهـا فهو هـلاك كل شيء ، وان كانت نبتت ورمي بغيرها فهو أمر حدث ، وأصبحت الأصنام كلها صبيحـة ولـد النبي (صلى الله عليـه وآلـه وسلم) ليس منهـا صنم إلا وهـو منكب عـلى وجهه ، وارتجت في تلك الليلة إيوان كسرىٰ ، وسقطت منه أربعة عشر شرفة ،

---

(١) يقول الدكتور ليتز : ـ انني لأجرؤ بكل أدب أن أقول : ان الله هو مصدر ينابيـع الخير والبركات كلها لـو كان يـوحي الى عباده ، فـدين محمد هـو دين الوحي ، ولـو كانت آيات الإيثار والأمانة والاعتقاد الراسخ القوي ووسائل التمييز بين الخير والشرّ ودفع الباطل ، هي الشاهدة على الإلهام فرسالة محمد هي هذا الإلهام .

راجع : Life of Mohammad by. Abul Fadl

وغاضت بحيرة ساوة ، وفاض وادي السماوة ، وخمدت نيران فارس ، ولم تخمد قبـل ذلك بـألف عام ، ورأى المؤبـذان في تلك الليلة في المنام إبـلاً صعابـاً تقود خيـلا عرابـا . قد قـطعت دجلة ، وانسربت في بـلادهم ، وانقصم طـاق الملك كسرىٰ من وسطه ، وانخـرقت عليه دجلة العذراء ، وانتشر في تلك الليلة نور من قبـل الحجـاز ثم استـطار حتى بلغ المشـرق ، ولم يبق سـريـر لملك من ملوك الـدنيا إلا أصبـح منكوسـاً ، والملك مخرسـاً لا يتكلم يومـه ذلك ، وانتـزع علم الكهنـة ، وبـطل سحـر السحـرة ، ولم تبق كـاهنـة في العــرب إلا حجبت عن صاحبها ، وعظمت قريش في العرب ، وسموا آل الله عز وجل[١] .

ولو أردنا أن نبحث في قضية نبوة « الرسول الأعظم » بشكل موضوعي فـلا بد أن نعتقد فيه (صلى الله عليه وآله وسلم) أحد أمور ثلاثة :

الأول : أن يكون سفيها ، أو حسب تعبير قريش مجنوناً .

ولا شك أن هذا الاحتمال ليس أقل سخفـاً من احتمال أن تكـون الشمس مجرد شمعة صغيرة تدور في صينية في السماء .

اذ كيف يكون « باني أمّة » ضخمة تعيش الآن ، وبعد مرور الف وأربعمائة عام على اعلان دعوته ، كإحدى أقوى الامم وتقـوم باسمهـا مجموعـة كبيرة من الدول ، مجرد رجل مجنون ؟

ولـو سمحنا لانفسنـا أن نعتقد أن محمـد بن عبد الله هـذا ، كان سفيهـاً أو مجنوناً ، فهل يسلم أي عبقري في التاريخ من هذه التهمة ؟ .

يقول برفسيور مسيحي هو : « بورسورت سميث » في الرسول الاعظم :

« عندما ألقى نظرة اجمالية استعرض فيها صفاته وبطولاته ، ما كان منها في

---

(١) بحار الأنوار ج ١٥ ص ٢٥٧ .

بدء نبوته ، وما حدث منها فيما بعد ، وعندما أرى أصحابه الذين نفخ فيهم روح الحياة ، وكم من البطولات المعجزة أحدثوا ـ عندما أفعل ذلك ـ أجده أقدس الناس ، وأعلاهم مرتبة ، حتى ان الانسانية لم تعرف له مثيلاً »[1] .

هذا ما يقوله انسان غير مسلم ، عن الرسول الأعظم ، بعد مرور أكثر من الف سنة على وفاته ، فهل يمكن الاعتقاد بأن « الذي لم تعرف له الانسانية مثيلاً » كان مجنوناً ؟

إن ميزان التعقل يتعرض لنسف كلّي لو أصبح رسول الاسلام شخصاً غير عاقل ، ولن يبقى بعد ذلك أي فرق بين العاقل والمجنون ، لو لم نقل ان العاقل يصبح هو الذي يَستحِقُّ تهمة الجنون ، بينما يصبح المجنون أحد اعقل العقلاء .

الثاني ـ ان يكون . . كاذباً . على اعتبار أن يكون الفكر الإسلامي من إنتاج عقله وليس موحىً به من قبل السماء .

وهذا الاحتمال ، كسابقه ، أبعد ما يكون عن القبول :

أولاً ـ لأن الرسول الأعظم أعلن عن رسالته بعد مرور أربعين سنة من حياة الصدق والأمانة ـ كما ذكرنا قبل صفحات ، وواضح أن الكاذب لا يمكن أن يصبح كاذباً بين ليلة أو ضحاها . كما أنه لا يمكن لاي كاذب ان يظل مخلصاً لكذبه إلى حد الفداء والتضحية .

. . عندما جاء إلى امبراطور الروم « هرقل » كتاب الرسول الأعظم (صلى الله عليه وآله وسلم) يطلبه فيه أن يعتنق الدين الجديد ، أمر الامبراطور رجاله باحضار رجل من قوم الرسول في ديوانه ، وكان بعض التجار من قريش يقومون برحلة تجارية في بلاد الشام ، فجيء بهم إلى ديوان الامبراطور ، وسألهم هرقل عن اقربهم نسباً إلى الرسول الأعظم ، فقدّم أبو سفيان نفسه اليه . وجرى بينهما

---

(١) راجع : « الاسلام يتحدى » .

حديث تاريخي هام ، جاء فيه :

هرقل : هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟

أبو سفيان : لا .

هرقل : هل يغدر ؟

أبو سفيان : لا . نحن منه في مدة لا ندري ما هو فاعل فيها .

فقال هرقل : ليس ممكن أن يدّعي الرجل الكذب على الناس ثم يكذب على . . الله .

إن الذي لا شك فيه هو أن الرسول الأعظم كان يؤمن ايماناً كاملاً برسالته ، ولم يشك في اية لحظة بما كان يدعو اليه .

اليس هو الذي أوحى اليه الله تعالى :

﴿ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو قال أوحى إليّ ولم يوح اليه شيء ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله﴾[1] .

﴿ولو ترى اذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطو أيديهم اخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون﴾[2] .

وهل يمكن بعد هذا الكلام الصارم الذي كان الرسول الأعظم يؤمن به حتماً ، أن يشك في رسالته أو يكذب فيها ؟

ثانياً ـ إنّ من يضمر شيئاً في قلبه ، لا بدّ أن تظهر آثاره على فلتات لسانه أو على قسمات وجهه . فالكاذب قد يستطيع أن يخفي كذبه ، في قضية واحدة ،

---

(١)،(٢) سورة الانعام الاية ٩٣ .

وحالة واحدة ، وزمان محدود . أمّا أن يستطيع الكذب لمدة ٢٤ ـ سنة ، وفي كل الحـالات : سلماً وحربـاً ليلاً ونهاراً . وفي كـل القضايـا من دون أن يظهـر عليه ذلك فانه لأمر غير معقول بالطبع .

ثالثاً ـ إننا نجد أن أقرب الناس إلى الرسول الأعـظم ، قد آمن بـه بالـرغم من وجود فارق كبـير في السن الأمر الـذي كان يمنـع الشخص عادة وخـاصة في المجتمع الجاهلي ، من اتباع الأصغر سناً ، ولم يكن لهم أيّ مطمع ماديّ ، لأنهم آمنوا به في الوقت الذي كـان ايمانهم يكلفهم حيـاتهم ، فكان يُفـرض عليهم أن يتجردوا عن مصالحهم الخاصة وأن يخوضوا الحروب المتتالية . بل قد كان يفرض عليهم أن يقتتلوا مع ابنائهم .

يقول الإمام علي (عليه الصلاة والسلام) :

« ولقد كنا مع رسول الله نقتل آباءنا وأبناءنا وإخواننا وأعمامنا ، ما يزيدنـا ذلك إلا ايمانـاً وتسليماً ومضيـاً على اللقم ، وصبـراً على مضض الألم ، وجـداً في جهاد العدّو » .

« ولقد كان الـرجل منّـا والآخر من عـدونا ، يتصـاولان تصاول الفحلين ، يتخالسان انفسهما : ايهما يسقي صاحبه كأس المنون ، فمرة لنا من عدونا ومـرة لعدونا منا »[1] .

وواضـح انّ المنتسبين إلى الشخص هم أعـرف به من أي شخص آخـر ولو كان في قضية النبي أي احتمال لكذب لما آمن به اقـرباؤه الأكبـر منهم سناً ، في وقت كان يلزم عليهم فيه أن يقتلوا أبناءهم وآباءهم ومع ذلك فأية مصلحـة يمكن أن تفترض لهؤلاء في ذلك ؟

رابعـاً ـ لو افتـرضنا ـ مـع كل الأدلـة المعاكسـة ـ أن الرسـول الأعظم كـان

---

(١) نهج البلاغـة ج١ ص١٠٤ .

كاذباً ، فما هو الداعي لهذا الكذب ؟

لا شـك أن النبي لم يكن يعرف ـ حسب هـذا الافتـراض ـ الغيب ومن ثم فلم يكن يعرف أن الأمر سينتهي به إلى السيطرة التـامة عـلى الجزيـرة العربيـة ، فلماذا الكذب الكبير ؟ ولماذا تحمل المسؤليات والأتعاب الجسام ؟

هـل كان يهـدف إلى غرض مـادي ؟ فلماذا رفض إذن السيـادة والـزعـامـة والأموال والنساء الفاتنات عندما عـرضتها قـريش عليه في مقـابل السكـوت عن دعوته ؟

ولماذا رفض الخضوع للإغراء المادي منذ البداية ؟

ولماذا بعد ذلك تجرد طيلة حياته من الملاذ ، وعاش حياة الزهد ، حتى انه لم يشبع من برّ قط . وكانت تمر عليـه الشهور ولا تـوقد في بيتـه نار بـل كان يـأكل الأسـودين : التمر والخـل ؟ مـع العلم أن المفـروض أنـه لم يكن يعـرف نتيجـة دعوته ؟

خامساً ـ لو افترضنـا أن الرسـول الأعظم كـان كاذبـاً من حيث الشخص ، فلا بدّ من الايمان به من حيث المبادىء حتما . إذ ليس هنـاك أيّ شيء في مبادئـه تخالف الواقع ، أو لا تتفق مع سنن الكون والحياة .

والواقع فاننا نؤمن بالاسلام ، ليس فقط لاننا نؤمن بمحمد ابن عبد الله .

وانمـا لاننا نجـد من أعماق أنفسنـا كافـة الدوافـع إلى الأيمـان بـه ، وليس الرسول الأعظم إلا مذكـراً بما يقبـع هناك . . في أعمـاق وجداننـا تمامـاً كما اننـا نؤمن بوجود الله ، لا لأن الرسول الأعظم يقول ذلـك ، وانما لأن الله مـوجود ، وقـد عرفنـا نفسه بصـورة ملزمة . وكـما نؤمن بالآخـرة ، لا لأن الانبياء يقـولون بذلك ، بل لانه من مستلزمات الايمان بالله .

لقـد قيل لـلامام عـلي (عليه الصـلاة والسـلام) مـرة : هـل عـرفت الله

بمحمد ، أم عرفت محمداً بالله ؟

فأجاب : بل عرفت محمداً بالله .

أي انه (عليه الصلاة والسلام) عـرف الله أولاً ، وعندما وجد أن محمـداً يدعو اليه عرف أنه صادق .

وهكذا فان على الانسان أن يؤمن بالاسلام ، لا لأنَّ كل مبادئه وصلت الينا عبر الرسول الأعظم فقط ، وانما لأن هذه المبادىء تستطيع إذا ما طبقهـا الانسان ان تحل كافة المشاكل المعاصرة وان ترفع من قيمته إلى مدارج الخير والسعادة .

وإذا ثبت ان الرسول الأعظم لم يكن كاذبـاً ، ولا مجنونـاً ، فانـه يبقى هناك احتمالان لا ثالث لهما :

الأول ـ أن يكون ساحراً .

الثاني ـ ان يكون نبياً .

وواضح ان السحر لا يستـطيع بـأي شكل من الأشكـال أن يؤسس دولة ، ويضع ثقافة ، وحضارة فكرية ، ويخلق بـالاضافـة إلى ذلك أمـة كبيرة تمتـد على جسد الكرة الأرضية ؟

هـل استـطاع أحـد حتى الآن ان يكسب كـرسيـاً في البـرلمـان عن طـريق السحر ؟ أم هل استطاع أحد أن يبني بيتاً بحجرة واحدة عن طريق السحر ؟

فكيف اذن خلق النبي أكبر دولة ، وصنع أضخم أمة عن طريق السحر ؟

ثم كيف امتـدت آثار سحـره المزعـوم إلى هـذا القـرن ؟ . . وكيف لم يتنبـه المليارد انسان الذين يعتنقون دينه كل هذا الوقت ، انهم مسحورون ؟

وبعـد ان تبخرت كـل الاحتمالات التي قـد تحوم حـول شخصية الـرسـول الأعظم ، فقد أصبح مفروضاً أن نؤمن بالاحتمـال الأخير ، وهـو ان يكون نبيـاً

من قبل الله ـ كما هو كذلك فعلاً .

خلاصة الحديث

وخلاصة الحديث اننا نجد انفسنا بعد الف واربعمائة عام على اعلان الرسالة أمام الخيار الذي واجهته قريش ابان ذلك : إما الايمان بأن النبي كان ساحراً أو كذاباً أو مجنوناً . وإما الايمان بأنه كان نبياً .

وإذا كانت احتمالات : السحر والكذب والجنون غير معقولة بالمرة ، فلا بد من الايمان بنبوته .

القرآن : معجزة خالدة

كما ذكرنا في صفحات سابقة فان رسالة الاسلام تختلف من ناحية مدى امتدادها الزمني عن الرسالات السابقة عليها ، ولذلك فان معجزة هذه الرسالة ليست ـ كباقي المعاجز ـ وقتية وانما هي موجودة على مر الازمان والعصور .

وهذه المعجزة ، التي هي القرآن الكريم ، تدل بوضوح على نبوة الرسول الأعظم ، بحيث لا تدع أي مجال للشك أو الريب فيها .

وهذا الكتاب ـ ذو أكثر من ستة آلاف آية ـ تحدى ولا يزال كل أجيال الانسان ان يأتوا بمثله ، فلم يستطع أحد خلال أربعة عشر قرناً أن يرد التحدي .

اليس يكفي دليلاً على النبوة أن يأتي رجل من البادية لا يقرأ ولا يكتب ، وينشر كتاباً لا يوجد فيه خطأ واحد .

ولا تمر القرون إلا ويكتشف فيه الانسان المزيد من الحقائق والمزيد من المعلومات الهامة ، والمزيد من السنن الكونية ثم يقول :

﴿ .. ان كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله

وادعوا شهداءكم من دون الله ان كنتم صادقين﴾[1] .

ثم يسجل هذا التحدي في الصفحات الاولى من الكتاب ، فلا يستطيع أحد أن يتحداه حتى بمثل سورة **﴿إنا اعطيناك الكوثر﴾** ذات السطر الواحد ؟

انّ تطور الانسان كشف حتى الآن : انه ما من كتاب صدر في زمان إلا وصدر أحسن منه بعد ذلك . وهذه سنة طبيعية ترتبط بتطور الفكر البشري الذي لا يشك فيه انسان .

فلماذا أصبح القرآن يقطع عكس هذا الطريق ، بحيث لا يمر زمان إلا ويكتشف الناس عمقه ، وأهميته ، ومن ثم استحالة الاتيان بمثله ؟

ولو افترضنا ان محمداً (صلى الله عليه وآله وسلم) كان عبقرياً ، فاستطاع ان يأتي بما لم يأت به قومه ، فاننا سنجابه حقيقة هامة هي ان العباقرة يعتبرون عباقرة بالنظر إلى مستوى الذين يعيشون معهم . فهم عمالقة ، فقط لان الذين يعاصرونهم اقزام ، بينما الرسول الاعظم ـ على العكس ـ يزداد القاً وشموخاً كلما تقدم الناس وتعلموا . وكتابه أيضاً على العكس يزداد أهمية وعظمة كلما تقدم العلم وتعمق . وبينما يأكل الدهر على الكتب ويشرب ، فان القرآن يتجذر ، ويتعظم . ويبقى الكتاب الذي لا يبلى .

وكلما اكتشف العلم شيئاً ذكره القرآن ، أدهش العلماء : كيف ان كتاباً بهذا العمق والشمول نزل قبل أكثر من الف عام !

وانت . .

إذا كنت تشك في أمر القرآن ، فما عليك إلا ان تكمل دراستك الجامعية وتتخصص في الادب العربي ، ثم تجلس مدة عشرين عاماً وراء الطاولة في محاولة لتأليف سورة واحدة تشبه سور القرآن .

---

(١) سورة البقرة الاية ٢٣ .

جرّب العملية . . لتجد : أن من المستحيل أن يكون رجل أُميّ كان يعيش في مجتمع كان أقصى ثقافته أنه يستطيع العد إلى العشرة ، هو مؤلف القرآن العظيم .

وهنا قد يبرز سؤال هو: ما هو موطن أهمية القرآن ؟

والجواب : ليست أهمية القرآن بالطبع كامنة في بنائه البلاغي الرائع فحسب ، لأن هذا البناء الادبي لا يفهمه إلا العرب فقط بينما القرآن ليس كتاباً خاصاً بأمة دون أخرى ، وإنما هي كامنة في الدرجة الاولى في تلك الحقائق الازلية التي تحتضنها آيات القرآن ، وفي ذلك الانسجام العميق بين تشريعاته والسنن الكونية الخالدة .

ومع أن القرآن كتاب هداية جاء لبناء الانسان ، وليس كتاب معلومات خارجية ، جاء للكشف عن أسرار الكون والحياة . فانه يحتوي في اماكن عديدة منه على حقائق كونية لم يعرفها الانسان إلا في النصف الثاني من القرن العشرين .

وواضح ان التكلم في قضايا العلم قبل اكتشافها دليل صارخ على معجزيته الخارقة .

واليك بعض الشواهد على ذلك :

١

يقول القرآن الكريم :

﴿وألقى في الارض رواسي أن تميد بكم﴾[١] .

---

(١) سورة لقمان الاية ١٠ .

تكشف هـذه الآية عن قـانون ظـل مجهـولاً طـوال قـرون الانسـان كلهـا ، واكتشفوه مؤخراً وهو قانون « التوازن » الذي يؤكد أن المادة الاقل وزنـاً ارتفعت على سطح الارض في حين أصبحت امكنة المادة الثقيلة خنـادق هاويـة ، وهي التي نـراها الآن في شكـل البحار وهكـذا استـطاع الارتفـاع والانخفـاض أن يحافظ على توازن الارض .

٢

يقول القرآن الكريم :

﴿بلى قادرين على أن نسوّي بنانه﴾[٢] .

تكشف هذه الآية عن أهميـة « البنان » وهـو الحامـل للخطوط التي لا يشبـه فيهـا بنان انسـان بنان انسـان آخر ، فلكـل فرد يعيش عـلى وجـه الارض بنـان خاص به ، يختلف فيه كلية عن جميع الناس .

٣

يقول القرآن الكريم :

﴿حرّم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير﴾[٣] .

تكشف هـذه الآية عن حقيقـة هـامـة هي : ضـرر الـدم ، والميتـة ، ولحم الخنـزير عـلى جسم الانسان . فـالتحليـلات التي اجـريت للدم أثبتت أن الـدم يحتـوي على كميـة كبيرة من « حَمض البـوليك » المصـطلح عليـه بـ uric acid ، وهي مادة سامة تضرّ بالصحة لو استعملها الانسان كغذاء . وهذا هو السر أيضاً في تحريم لحم الميتة ، وتشريع طريقة خاصة في ذبح الحيوانـات ، وهذه الـطريقة

---

(١) سورة القيامة الآية ٤ .

(٢) سورة البقـرة الآية ١٧٣ .

التي تـوجب قطع الاوردة التي تـوجـد في العنق حتى يخـرج كـل الـدم من جسم الضحيـة لئلا يتجمـد في العـروق . وبهـذه الـطريقـة يمكن الحيلولـة دون تسمم اللحم ، لأن الحيوان الميت تسـري مـادة حمض البـوليـك ، من دمـه إلى اجـزاء جسده ، فيصبح اللحم مسموماً كلية .

فالدّم محرّم الاستعمال ، لاحتوائه عـلى مادة حمض البـوليك السـامة والميت محرم الاستعمال ايضاً ، لأن دمه المتجمد في جسمه يسبب تسمم لحمه .

أما الخنزير فقد حرم القرآن استعماله كذلك . والآن يكشف العلم الحديث أن لحم الخنزير يحتوي على اكبر كمية من « حمض البوليك » بين سائر الحيوانـات الموجودة ، فالحيوانـات كلها تقـريباً ، تفـرز هذه المـادة خارج الجسم عن طـريق البول ، وجسم الإنسان يفرز تسعين في المـائة من هـذه المادة بمسـاعدة الكليتـين بينما الخنزير لا يستطيع اخراج اكثر من ٢ ٪ من هذه المادة من جسمه ، وتصبـح الكمية الباقية وهي ٩٨ ٪ جزءاً في لحمه ، ولذلك يشكو الخنـزير دائـماً من آلام المفـاصل ، والـذين ياكلون لحمـه يشكـون هم أيضـاً من هـذه الآلام ومن آلام الروماتيزم .

٤

يقول القرآن الكريم :

﴿ومـا من دابـة فـي الأرض ولا طـائـر يـطير بجنـاحيـه إلاَّ أمـمٌ امثالكم﴾[1] .

تكشف هذه الآية عن « حضارة الحيوانات » التي تشبه إلى حد بعيد حضارة الإنسـان . فهي تصرح بـأن الدواب (الحيـوانات التي تـدب على الارض) هي

(١) سورة الانعام الآية ٣٨.

أمم امثال أمم الناس .

وهذا ما اثبته العلم الحديث .

أ ـ فالفيلة تعقد ـ كالإنسان تماماً ـ المحاكم للمخالفات التي تقع من بعضها ، وتصدر المحكمة بعد التثبت من شهود الإثبات حكمها العادل على الفيل المذنب بالنفي عن الجماعة ليعيش وحيداً في عزلته .

ب ـ والنمل يبني المدن ـ تماماً كما يبني الإنسان ـ ويضع النظم ، ويتعاون مع بني جنسه ، ويرعى الأبقار التي هي خنافس صغيرة يربيها في داخل الارض لفترة طويلة حتى تفقد بصرها فتظل تطيع النمل بعد أن تكبر .

وكما أن الإنسان يسخر الحيوانات لمنافعه . كذلك فإن النمل يسخر الحيوانات الاقل قوة منه لمنافعه . فبق النبات التي هي حشرة من الحشرات يعسر استئصالها ، يستعملها النمل كحيوان مسخر يدر عليه الخير والحليب !

ففي الربيع الباكر يرسل النمل « الرسل » و « الصيادين » ليجمعوا بيض هذا البق ، حتى إذا جمعت ، وضعها داخل محل خاص لتفقس على طريقة طبيعية ، وعندها تربى الصغار حسب نظام خاص للسخرة ، فإذا كبرت تقوم جماعة من النمل بحلبها عن طريق مسها بقرونها النملاوية الصغيرة . وهذه الحشرة تنتج ٤٨ قطرة من العسل كل يوم أي بمقدار يزيد على ما تنتجه أبقار الإنسان مائة مرة ـ مع حفظ النسبة بين البقرة وهذه الحشرة ـ .

ج ـ وكما يزرع الانسان يزرع النمل ايضاً . فقد لاحظ العلماء ان النمل كثيراً ما يقوم بزرع مساحات كبيرة وعلى احسن ما يقضي به « علم الزراعة » وانه عندما تنبت بعض الاعشاب الطفيلية التي تجتمع حولها الديدان الضارة فان جماعة من النمل تقوم بازالة هذه الطفيليات ، وتطرد الديدان كما تقوم جماعة بعمليات الحراسة المشددة على المزارع .

وهكذا اثبت العلماء بعد الف عام انه **﴿وما من دابة في الارض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم امثالكم﴾** كما قال القرآن الكريم .

٥

يقول القرآن الكريم :

﴿والأرض بعد ذلك دحاها . .﴾(١) .

أي بسطها بعد أن كانت كتلة واحدة . . وهذه الآية تكشف عن حقيقة ظلت مجهولة لفترة طويلة ، وهي أن الارض لم تخلق على ما هي عليه الآن ، وانما كانت مجمّدة قبل كل شيء ثم جرى بسطها شيئاً فشيئاً حتى أصبحت ذات قارات متعددة كما نشاهدها في الوقت الحاضر .

هذا ما عرفه الانسان قبل مدة وجيزة جداً .

ويستدل العالم « الفريد فيجبر » عالم الارصاد الجوية ، الالماني على ان كل الارض التي يشملها العالم كانت في وقت ما ، متصلة ببعضها تقريباً في كتلة ضخمة واحدة ، ولكنها لم تلبث ان انشطرت ، يستدل على ذلك بأن القارات يمكن أن تتشابك في بعضها تقريباً وسلاسل الجبال تستمر ممتدة ، وتوجد في مختلف القارات نفس انواع الحيوانات والنباتات .

ويبدو أن هذا الانشطار لا يزال مستمراً وقد كان من نتيجته أن انشقت جزيرة « مدغشقر » عن قارة افريقيا . وقد يحدث بعد آلاف من السنين ـ كما يتنبأ العلماء ـ أن الصومال والاقليم الواقع إلى الشرق مما يعرف باسم « وادي الاخدود الكبير » تصبح كلها جزائر (٢) .

---

(١) سورة النازعات الآية ٣٠ .

(٢) راجع مجلة « المعرفة » ٢٤ ـ ص ٢١٣ .

يقول الفيلسوف الفرنسي : « الكسي لوازون » : ليس بين المسائل العلمية المكتشفة حديثاً أو المكتشفات الحديثة مسألة تتعارض مع القرآن[1] .

ان العلماء يمضون عمراً طويلاً قد يمتد مائة عام في المختبرات والجامعات يدرسون ويتعلمون ، ثم يمضون أمداً اطول من ذلك في البحث والملاحظة والتنقيب حتى يهتدون ـ بالمعاونة مع عشرات الاجهزة الحديثة ـ إلى بعض اسرار الآيات القرآنية فهل من المعقول أن يكون كل القرآن ـ الذي لم يكتشفه العلم الحديث بصورة كلية بعد ـ من صنع فكر انسان امّي ولد في الجزيرة العربية ومات فيها قبل اكثر من الف عام .

كل ذلك . . بالاضافة إلى ما في القرآن الكريم من تشريعات ونظم ، ومبادىء لا يمكن للانسان أن يسعد في الحياة إلا بالاخذ بها . . فأي عقل يمكن أن يصدِّق ان ذلك كله من نتاج فكر عتيق نبت في جزيرة العرب القاحلة عن الفكر ؟ .

أي عقل ؟

يقول الامام علي (عليه الصلاة والسلام) وهو يصف مبعث الرسول الاعظم ، والقرآن :

« . . . فبعث محمداً (صلى الله عليه وآله وسلم) بالحق ليخرج عباده من عبادة الأوثان إلى عبادته ، ومن طاعة الشيطان إلى طاعته بقرآن قد بيّنه واحكمه (اتقن صنعه) ليعلم العباد ربهم إذ جهلوه ، وليقرّوا به إذا جحدوه (انكروه) وليثبتوه بعد اذ انكروه . فتجلى (الله) سبحانه لهم في كتابه من غير أن يكونوا رأوه بما أراهم من قدرته وخوفهم من سطوته »[2] .

---

(١) « منبر الاسلام » سنة ٢٥ ، رزق ، ٦٨ ـ ١٢٦ .

(٢) نهج البلاغة ج ٢ ص ٣٠ .

ويقول ايضاً :

« أرسله (أرسل النبي محمد (صلى الله عليه وآله وسلم)) على حين فترة من الرسل » .

« وطول هجعة من الأمم وانتقاض من المبرم (نقض المعاهدات الرسالية) فجاءهم بتصديق الذي بين يديه ، والنور المقتدى به ، ذلك القرآن فاستنطقوه ، ولن ينطق .

ولكن اخبركم عنه : الا أن فيه علم ما يأتي ، والحديث عن الماضي ، ودواء دائكم ، ونظم ما بينكم »[1] .

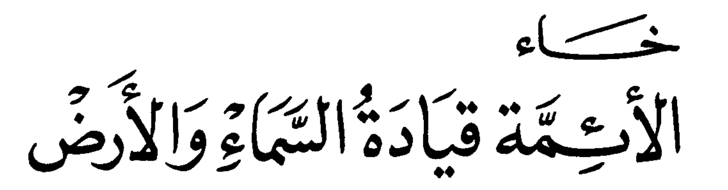
ويقول ايضاً :

« اعلموا أن هذا القرآن هو الناصح الذي لا يغش ، والهادي الذي لا يضل ، والمحدث الذي لا يكذب وما جالس هذا القرآن أحدٌ إلا قام عنه بزيادة أو نقصان : زيادة في هدى ، أو نقصان في عمى .وأعلموا . . انه ليس على أحد بعد القرآن من فاقة ، ولا لاحد قبل القرآن من غنى ، فاستشفوه من ادوائكم ، واستعينوا به على لأوائكم (شدائدكم) فإن فيه شفاءاً من اكبر الداء وهو الكفر والنفاق والغي والضلال »[2] .

---

(١) المصدر ج ٢ ص٥٣ .

(٢) المصدر ج ٢ ص ٩١ .


خاء
الأئمة قيادة السماء والأرض

الحاجة إلى النبي ، ليست بسبب الحاجة إلى الرسالة ، لأنّ الرسالة ضرورية كتشريع وكنظام وكمنهاج . بينما الحاجة إلى النبي هي الحاجة إلى قيادة تقوم بتطبيق التشريع والنظام والمنهاج .

ومن هنا . . فإن الله لم يرسل رسالة إلا على يدي رسول ، فلم يكتف مثلاً بانزال كتاب سماوي عن طريق ما على أية أمة في التاريخ ، في الوقت الذي اكتفى في مناسبات وازمان عديدة بارسال الانبياء من دون رسالات .

وهذا يعني أن وجود النبي ضرورة ، إلى جنب وجود الرسالة ، وليس بسبب وجود الرسالة . لأن وجود النبي يعني وجود « قيادة » أما وجود الرسالة فيعني مجرد وجود « المبدأ » .

وإذا كانت الرسالات قد انتهت بعد نزول آخر كلمة للسماء وهي كلمة الإسلام ، وبذلك انتهى عهد الرسل أيضاً ، فهل انتهت الحاجة إلى القيادة لتطبيق شرائع الإسلام ؟

ليس هناك من يستطيع القول أن البشرية لم تعد بحاجة الى قيادة حكيمة تنبع تنظيماتها من ذات الرسالات السماوية لتستطيع تطبيقها على بني الانسان ، لان الانسان هو الانسان لم يتغير فيه شيء منذ آلاف الأعوام ، إلا ان غرائزه شحذت بشكل رهيب ، فاصبحت حاجته إلى القيادة السماوية اليوم أكثر من حاجته يوم بعث الأنبياء .

فهل من انبياء في الوقت الحاضر . ؟

طبعاً . . لا .

لان الانبياء جاؤا لتبليغ الرسالات ، وقد قررت ارادة الله انهاء الرسالات والرسل معاً . ولكن ليس من المعقول انهاء القيادات الرسالية أيضاً ، بل لا بد من وجود قيادات من هذا النوع يُعين خطوطها العامة والخاصة : آخر الرسالات ، وتعين الأشخاص الذين سيتحملون تلك القيادات تعييناً مباشراً كما كانت تعين الرسل .

هذا هو جوهر القضية التي تسمى بـ « الخلافة الاسلامية » أو « الإمامة » .

ومن الواضح ان من غير المعقول ان يهمل الله الانسان في عصور ما بعد الرسالات ، ولا يعين له القيادة بالأشخاص والهويات بعد أن افادت كل تجاربه ان مجرد وجود الرسالة بين يديه لا يكفي لانقاذه من السقوط في هوى الضياع والتمزق .

اذن . . فلا بد من قيادة تفرض على الانسان من فوق ليجد دافعاً ذاتياً للانصياع لها ، تماماً كما لا بد له من شريعة تفرض عليه من فوق ليجد مثل ذلك الدافع .

اذ لو جاز لنا ان نختار القيادات لتحمل مسؤلياتها الرسالية : فلماذا لا يجوز لنا أن نختار الأنبياء أيضاً ، بدل ان يختارهم الله ؟ وأي فرق بين النبي والامام ؟

إن قضية الامامة ليست قضية هينة ليخولها الله إلى الانسان ، بكل ما فيه من غرائز وميول واتجاهات ، لان لها التأثير الاكبر على الرسالة ، وما دام ان الله يريد تطبيق الرسالة فلا بد ان يوفر كافة الظروف المؤدية إلى ذلك ، والأهم من كل شيء هنا هو بالطبع تعيين القيادة .

فمن دون قيادة رسالية لا يمكن تطبيق الرسالة .

فاذا كان الله يريد « تطبيق الرسالة » فلا بد من تعيين القيادة الرسالية .

من هنا فاننا نعتقد ان الله لم يترك الأرض في أية لحظة من لحظات عمرها الطويل من دون « حجة » أي من دون قيادة إلهية ، وانه تعالى لم يكتف بمجرد وجود الرسالة بين الناس .

يقول الله في حديث قدسي :

« . . إني لم أترك الأرض إلا وفيها عالم تعرف به طاعتي وهداي ، ويكون نجاة فيما بين قبض النبي إلى خروج النبي الآخر ، ولم أكن أترك ابليس يضل الناس وليس في الأرض حجة لي وداع اليّ ، وهادٍ إلى سبيلي ، وعارف بأمري ، واني قضيت لكل قوم هادياً أهدي به السعداء ويكون حجة لي على الاشقياء »[1] .

وإذا كان الله لا يترك الأرض إلا وفيها عالم تعرف به طاعته وهداه ما بين قبض النبي إلى خروج النبي الآخر ، فإن من الطبيعي انه تعالى لم يترك الارض هذه المرة ايضاً من هذا الطراز من « العلماء » الذين يعني بهم الله « القيادات الرسالية » خاصة وان غياب النبي كان أبدياً هذه المرة وليس موقتاً .

وأما الأدلة التي يمكن عرضها في هذه العجالة ، في قضية الامامة فهي :

واحد ـ اننا نجد أن كل مسؤول مهما كان حجم مسؤوليته لا يغيب مهما كانت فترة غيابه قصيرة إلا ان يعيّن خلفاً له .

لماذا .؟ لأنه يعرف أن ترك موقعه فارغاً يعني احداث فوضى ونزاعات لا تؤمن عواقبها .

والقضية ليست خاصة بفئة دون أخرى ، فحتى صاحب الحانوت الصغير

---

(١) كلمة الله ص١٠٣ .

الذي لا تبلغ قيمة كل محتوياته عشرة دنانير فقط إذا أراد الخروج لفترة نصف ساعة ليس أكثر فانه يعين خلفاً في محله ليقوم بمهام عمله . وإذا لم يجد من يعينه لذلك فانه سيطلب من جاره أن يتحمل مسؤولية حانوته .

فإذا كان صاحب حانوت صغير ، يريد الغياب لفترة قصيرة يعرف ـ بارشاد من عقله ـ ان عليه أن يعين خلفاً له ، إذا كان يريد أن يجد حانوته ـ عند الرجوع ـ على حالتها الطبيعية ، فهل من المعقول ان يترك النبي وهو يخلِّف وراءه امة كاملة ودولة قائمة من يقود الامة في الوقت الذي كان يتركها حتى الابد .

الطفل الصغير الذي لا يتجاوز عمره الثمانية أعوام عندما يترك كتبه في الغرفة لقضاء حاجة لا تستغرق سوى لحظات يقول لأمه : ماما ضعي بالك عند كتبي حتى لا يمزقها أخي الصغير وبذلك يخلِّف أمه على كتبه ، فكيف يمكن لرسول الله (صلّى الله عليه وآله) الذي كان يترك « كتاب الله » والامة التي ضحى بكل حياته في سبيل تربيتها وتنشئتها من دون أن يخلِّف عليهم احداً . ؟

ولو نظرنا إلى المسألة من زاوية معالجات الانسان المعاصرة فاننا نجد ان كل ملك أو رئيس جمهورية يعين قبل أن يفكر في الموت في الشخص الذي سيخلفه ، ليس للمحافظة على سيادة أقربائه . وإنما للمحافظة على النظام الذي يحكم تحت ظلِّه .

وإذا كان هذا العمل عقلانياً ١٠٠ ٪ افلا يعني أن تعكيس القضية يعتبر عملاً عشوائياً ؟ ثم هل يعقل ان يرتكب الرسول الاعظم عملاً عشوائياً وهو المعصوم عن الأخطاء ؟! .

إثنين ـ ان الاسلام دين كامل بدليل قول الله تعالى :

﴿اليـوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمـتي ورضـيت لـكم الإسـلام ديناً﴾[1] .

ومعنى ذلك انه تطرق بالتفصيـل لكل جـوانب الانسان والحيـاة . ولا يعقل بعد ذلك ان يكون قد أهمل أعظم مشكلة تواجه مجتمعات الانسان وهي مشكلة « القيادة » وكيف يجب ان تكون ؟

فهل من الممكن للاسلام الذي يصدر ما لا يقل عن ١٠ احكام في موضوع « تنظيف الأسنان » فقط ، أن يهمل قضية القيادة ؟

إن الاسلام دين « مبدئي » يقـوم على أسـاس من « قيم » ومبادىء معينـة ، وليس على أساس الهوى والمزاج ، فلا بد إذن أن تكـون قيادتـه أيضاً منبثقـة عن تلك القيم والمبـادىء من دون أن تكون متروكة لأهـواء الناس ورغبـاتهم ، لأن ذلك سيفقده أهم ميزاته ، وهي مبدئيته .

ونحن نجد ان أي دستور تضعه أية فئـة في أية بـلاد يتطرق أول مـا يتطرق لقضيّة القيادة ، ونوعيته ، ومؤهّلات القائد وواجباته ، وقضايـا الإدارة . الخ ، فكيف يمكن للإسلام كصـاحب مبدأ ، وصـاحب دستور خـاص في الحياة أن يهمل هذا الجانب الحيوي والهام إهمالاً كلّياً ؟

ثـلاثة ـ إذا قلنـا إن الاسلام خـوّل سلطة تعيين القيـادة بعـد الـرسـول إلى الناس ، فإننا سنجابه ثلاث مشاكل هي :

أولاً ـ إننا نجد أن رجال المجتمع هم أكـثر جهالـة من معرفـة ما يضرهم وما ينفعهم ، لان المجتمع ـ أي مجتمع ـ إذا نظرنـا اليه ككـل نجد أنـه لا يتمتع بالعلم والوعي والخبرة بالمقدار اللازم ، وهي أمور لا بد منها في تنظيم القيادة .

ثانياً ـ إننا نجد أن معنى تخـويل القضيـة إلى المجتمع هـو تركهـا على زورق

---

(١) سورة المائدة الآية ٣ .

الأهواء الأمر الذي قد يجـر المجتمع إلى إرتكـاب اكبر الجـرائم ، بسبب انتخاب اشخاص غير صالحين للقيادة . ذلك لان التخويل إذا كان للاكثرية فلن يتعـدى الامر لعبة الانتخابات التي تجري حالياً في كل الدول الديمقـراطية ، ويعـاني منها كل الناس بلا استثناء ، وإذا كان للاقلية فالامر اكثر اثارة للدهشة إذ كيف يمكن التخويل للاقلية لكي تحكم في مصير الاكثرية .

بـالاضافـة إلى أن المجتمع بحكم تكـوينه من أفـراد يخضعون لـلاعتبـارات المصلحية والشهوية قد ينتخبون ـ كما ينتخبون فعلا في كثير من البلاد ـ من يوافق شهواتهم ، وليس من يوافق مصالحهم .

ثالثاً ـ إننـا نجد أن قيـادة الاجماع النـاقص ، أو الانتخاب ـ حسب التعبـير الحديث ـ مخالفة كلية لجذور الاسلام الفكـرية التي تقـوم على أسـاس أن الله هو مصـدر التشريـع وان دين الله لا يميل مـع هوى ايـة مجموعـة من النـاس . وأن الحاكمية هي أولاً وأخيراً لله ، ولا تمتد إلى أي رجل إلا اذا خوله الله بذلك .

رابعاً ـ إننا نجد ان هذه القيادة اسفرت تـاريخياً عن اسـوأ النتائـج حيث : تربع ـ بالاعتماد عليهـا ـ رجال امثـال يزيـد بن معاويـة ، والحجاج بن يـوسف الثقفي وما شابه ، على مسـاند الحكم ونحن نـربأ بـالاسلام ان يـرتضي خليفة تكون عاقبته هكذا .

أربعـة ـ إن الاحـداث التي تعقبت مـوت النبي من خـلاف عـريض بـين الامة ، ومن الدماء الغزيرة التي أُريقت هنا وهنـاك كشفت عن حاجـة ملحة إلى التعيين فهل كـان النبي يعرف ذلـك أم لا يعرف ؟ إذا كـان يعرف فكيف رضي بذلك ؟ وإذا لم يكن يعرف فكيف كان نبياً ؟

من هنا فان علينا أن نؤمن بأن للاسلام قيادة منتزعة من صميم مبادئه .

فان طبيعة الاسلام هي الإيمان والـطاعة لأنـه دين نزل من السـماء بلا إرادة

من الإنسان ، فلا بد أن تكون قيادته منتزعة من إرادة السماء بلا إرادة من الانسان .

فما هي تلك القيادة ؟

يحدّدها الرسول الأعظم تحديداً دقيقاً وتاماً في نصوص متواترة يرويها المسلمون بلا استثناء .

وقبل أن نستعرض بعض تلك النصوص لا بأس بذكر مواصفات « الإمامة » (القيادة) كما وردت على لسان أحد الأئمة وهو الامام علي بن موسى الرضا (عليه الصلاة والسلام) .

« الامامة : خلافة الله وخلافة رسول الله والامام : أمين الله في خلقه ، وحجته على عباده ، وخليفته في بلاده ، والداعي الى الله ، والذاب عن حريم الله (المدافع عن قدسية مبادىء الله) » .

« وهو يحلل حلال الله ، ويحرّم حرام الله ويقيم حدود الله (احكام الاسلام) ويذب عن دين الله (يدافع عن الاسلام) ويدعو الى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة » .

وعلى هذا الاساس فيشترط في الامام شرطان هما :

١ ـ العلم الكامل بالشريعة .

٢ ـ العصمة عن الخطأ والانحراف .

لأن الامام إذا كان قدوة للناس بحكم إمامته ، وكان مسؤولاً عن نشر الشريعة الاسلامية ، فان من الواضح اشتراط أن يكون عالماً بالشريعة علماً كاملاً ليستطيع تطبيقه على نفسه أولاً حتى يكون قدوة ، وليستطيع نشره كما هو

في الواقع ، وليس كما تملي عليه أهواؤه[1].

هذا بالنسبة إلى الشرط الأول ، وأما بالنسبة إلى الشرط الثاني فان من الواضح أيضاً ان الامامة التي تعني تحمل مسؤولية قيادة أمة ديناً ودنياً لا يجوز أن تستند إلى من لا تتوفر فيه العصمة الكاملة لان من دون العصمة لا يمكن منح الثقة للامام من قبل الناس ، ومن ثم لا يمكن اسلاس القياد له خاصة وان الامام لا بد ان يكون « مقتدى » في كل أعماله وأقواله وحتى في صمته ونطقه ، وهذا يعني ضرورة التزامه الكلي والشامل بكافة مبادىء الدين بلا استثناء .

ولكن . من الذي يستطيع أن يكشف لنا عن « العالم بكل الدين » و « المعصوم ـ في نفس الوقت ـ عن كل الأخطاء » ؟

لا أحد سوى الله تعالى ، ضرورة أن مجرد الادعاء بالعلم الكامل بالدين ، والعصمة عن الخطأ لا يمكن أن يقبل ، بل لا بد من « إخبار سماوي » عنها ، وهذا ما أخبره الله صراحة عندما قال عن أهل البيت :

﴿إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا﴾[2] .

وأخبره أيضاً الرسول الاعظم الذي **﴿وماينطق عن الهوى* ان هو إلا وحيٌ يوحى﴾**[3] عندما قال : « الخلفاء من بعدي إثنا عشر كلهم من قريش » ثم ذكرهم واحداً بعد واحد كالتالي :

---

(١) يقول الله تعالى : **﴿أفمن يهدي الى الحق أحقّ أن يُتّبع أم من لا يهدي إلاّ أن يهدى فما لكم كيف تحكمون﴾** وهذا يعني أن الاقتداء بمن لا يعرف الحق ويحتاج الى التعريف به غير جائز . بل مجرد الايمان بأن من الجائز الاقتداء بالجاهل بالدين هو حكم غير صحيح : **﴿فما لكم كيف تحكمون﴾** .

(٢) سورة الأحزاب الآية ٣٣ .

(٣) سورة النجم الآية ٣ ـ ٤ .

١ ـ الامام علي بن أبي طالب (أمير المؤمنين) (عليه الصلاة والسلام)

٢ ـ الامام الحسن بن علي (المجتبى) (عليه الصلاة والسلام) .

٣ ـ الامام الحسين بن علي (الشهيد) (عليه الصلاة والسلام) .

٤ ـ الامام علي بن الحسين (زين العابدين) (عليه الصلاة والسلام) .

٥ ـ الامام محمد بن علي (الباقر) (عليه الصلاة والسلام) .

٦ ـ الامام جعفر بن محمد (الصادق) (عليه الصلاة والسلام) .

٧ ـ الامام موسى بن جعفر (الكاظم) (عليه الصلاة والسلام) .

٨ ـ الامام علي بن موسى (الرضا) (عليه الصلاة والسلام) .

٩ ـ الامام محمد بن علي (الجواد) (عليه الصلاة والسلام) .

١٠ ـ الامام علي بن محمد (الهادي) (عليه الصلاة والسلام) .

١١ ـ الامام الحسن بن علي (العسكري) (عليه الصلاة والسلام) .

١٢ ـ الامام محمد بن الحسن (المهدي) (عليه الصلاة والسلام) .

وقد أخبر الرسول الأعظم ان الامام المهدي سيقوم بتطبيق النظام والشريعة الاسلامية على الأرض كلها ، وبذلك يحقق حلم الانسان في تحقيق الخير والعدل والحرية .

بالاضافة إلى النصوص الخاصة بالإمام علي (عليه الصلاة والسلام) ، مثل الحديث الصحيح الذي يقول ـ ان موسى وعيسى قد بشرا بمحمد كما بشرت الأنبياء بعضهم ببعض ، حتى بلغت محمداً فلما قضى محمد (صلّى الله عليه وآله وسلّم) نبوته واستكمل أيامه أوحى الله إليه :

« يا محمد قد قضيت نبوتك ، واستكملت ايامك فاجعل العلم الذي

عندك ، والايمان ، والاسم الاكبر ، وميراث العلم ، وآثار علم النبوة ، في أهل بيتك ، عند علي بن ابي طالب ، فاني لن أقطع العلم والايمان والاسم الأكبر وميراث العلم وآثار علم النبوة من العقب من ذريتك ، كما لم أقطعها من بيوتات الانبياء الذين كانوا بينك وبين أبيك آدم »[1] .

يقول الرسول الاعظم (صلى الله عليه وآله) :

« اني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي ، لن تضلوا ان تبعتموهما فلا تقدموهما فتهلكوا ولا تقصروا عنهما فتهلكوا ، ولا تعلموهم[لا تحاولوا ان تفرضوا عليهم آرائكم] فانهم أعلم منكم »[2] .

ويقول أيضاً :

« انما أنا بشر ويوشك أن يأتي رسول ربي (ملك الموت) فأجيب ، وأنا تارك فيكم الثقلين أوّلهما كتاب الله فيه الهدى والنور ، وأهل بيتي »[3] .

وهناك أحاديث كلها تؤكد « إمامة » الامام علي (عليه السلام) بعد نبوة الرسول الأعظم ، وتُشرّع بذلك نظاماً منبثقاً . من صميم الاسلام في القيادة .

أ ـ مثل الحديث الذي رواه أكثر من سبعين حافظاً من حفاظ المسلمين وجاء فيه أن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قال لعلي(عليه السلام) :

« انت مني بمنزلة هارون من موسى ، إلا أنه لا نبيّ بعدي » .

ب ـ ومثل حديث الغدير الذي رواه مائة وعشرون من الصحابة بما فيهم

---

(١) كلمة الله ص١٠٧ .

(٢) فضائل آل الرسول « نقلا عن الصواعق المحرقة » .

(٣) صحيح مسلم ـ القسم الثاني ج ٢ ص ١٠٩ طبعة عام ١٣٤٨ .

« الخلفاء » وخلاصته أن النبي عندما كان راجعاً من آخر حجة له ، نزل عليه الوحي قائلاً : **﴿يا أيها الرسول بلِّغ ما انزل اليك من ربك وان لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس إن الله لا يهدي القوم الكافرين﴾**[1]. فأمر النبي أن يقف المسلمون وعددهم مائة وعشرون الف رجل في موقع يقال له غدير خم ، وصنع من أكوار الآبال منبراً ، صعد عليه ، واخذ بيد الامام علي (عليه الصلاة والسلام) ورفعها حتى بان بياض ابطيهما ثم قال بعد كلام طويل . .

« أيها الناس . . ليبلغ الحاضر الغائب : من كنت مولاه فهذا عليٌ مولاه » .

وأضاف :

« اللهم والِ من والاه وعادِ من عاداه ، وأنصر من نصره ، واخذل من خذله » .

ثم أمر المسلمين أن يبايعوا الامام بصفته : « امير المؤمنين » .

وقال عمر قولته الشهيرة :

« بخ ، بخ لك يا علي اصبحت مولاي ومولى كلّ مؤمن ومؤمنة »[2] .

ج ـ ومثل حديث يوم الانذار الذي يرويه كل مؤرخي الاسلام وخلاصته ان الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) صنع طعاماً لعشيرته ، قبل ان تنتشر دعوته ، ودعا اليها كل أقربائه ، وعندما طعموا قام ودعاهم إلى الاسلام ، وطلب منهم المساعدة ، فلم يتكلم منهم إلا الامام علي (عليه الصلاة

(١) سورة المائدة الاية ٦٧ .
(٢) للمزيد من التفاصيل راجع كتاب : « الغدير » للمرحوم العلامة الشيخ عبد الحسين الأميني .

والسلام) ، فقال الرسول وقد وضع يده على كتف الامام قائلاً :

« هذا اخي ووزيري ووارث الأمر من بعدي فاسمعوا له واطيعوا » .

د ـ ومثل الأحاديث التي تفسر الآية الكريمة :

﴿إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون﴾[1] .

فقد أجمع المفسرون انها نزلت في الامام علي (عليه الصلاة والسلام) الذي تصدق بخاتمه وهو راكع . وبحكم هذه الآية فان الرسول إذا مات تكون القيادة للذين آمنوا **﴿الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون﴾**[2] والمقصود هو الامام علي (عليه الصلاة والسلام) دون غيره .

بالاضافة إلى أن شرط الامامة : العلم المطلق بالدين . والعصمة من الخطأ . قد توفرا في الامام دون غيره آنذاك .

أ ـ في ناحية علمه لا يشك احد في أنه كان اعلم الناس بعد رسول الله فقد علّمه الرسول في جلسة واحدة الف باب ينفتح من كل باب الف باب ، كما يصرّح بذلك الامام نفسه .

يقول الرسول الأعظم (صلى الله عليه وآله وسلم) :

« أنا مدينة العلم وعلي بابها » .

ويقول :

« اقضاكم علي » .

ويقول : « علي مع الحق والحق مع علي ، يدور معه حيثما دار » .

---

(١) ،(٢) سورة المائدة الاية ٥٥ .

وقد اعترف بذلك كل من ابو بكر وعمر حينما قالا اكثر من مرة :

« لا أبقاني الله لمعضلة ليس لها أبو الحسن » .

ب ـ ومن ناحية عصمته ، يقول القرآن الكريم :

﴿إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً﴾[1] .

ويقول الرسول الأعظم :

« ان علياً مني وأنا منه ، وهو ولي كل مؤمن بعدي »[2] .

ويقول مخاطباً الامام (عليه الصلاة والسلام) :

« انت مني وأنا منك » .

وهل يكون غير المعصوم من المعصوم ، وبالعكس ؟

.. في قضية شهيرة جمع الخليفة العباسي « المأمون » أربعين عالماً من الذين يحسنون الجواب في جلسة خاصة قال لهم :

اني ادين الله عز وجل بأن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب هو خير الخلق بعد رسول الله ، وأولى الناس ، وأحقهم من بعده بالخلافة . فماذا تقولون ؟

فانبرى له أعلمهم وهو « إسحاق بن حماد » وجثا على ركبتيه وقال :

لسنا نعرف ما ذكرت من أمر علي ، وقد دعوتنا للمناظرة ونحن مناظروك على ذلك .

فقال المأمون : تسألني أو أسألك ؟

---

(١) سورة الاحزاب الاية ٣٣ .

(٢) اخرجه الترمذي والحاكم .

قال : أنا أسألك .

قال المأمون : سل ما شئت .

قال إسحاق : أين دليلك على دعواك .

قال المأمون : بأي شيء يتفاضل بعض الناس على بعض ؟

قال إسحاق: بالأعمال الصالحة .

قال المأمون : لو افترض أن شخصاً كان أفضل من صاحبه في عهد رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) لأن عمله أجل وأعظم ، ثم أراد المفضول أن يلحق به ، فعمل وأكثر من الخير بعد عهد الرسول ، فهل يستطيع اللحاق بالفاضل ؟

قال إسحاق: كلا . ان الأفضل في عهد الرسول لا يُلحق به ابداً .

فقال المأمون : إنّ اصحابك الذين أخذت دينك عنهم وجعلتهم قدوة لك ، قد ردوا لعلي فضائل ، فانسب هذه الفضائل التي يسلّم بها اصحابك الى فضائل غيره (قارن بينهما) فان رأيت أنها تشبه فضائل علي (عليه الصلاة والسلام) ولو من بعيد ، فقل بأن غيره خير منه وأفضل .

وأضاف : والآن . . اخبرني يا إسحاق ! أي الأعمال كانت أفضل يوم بعث الله محمداً (صلى الله عليه وآله وسلم) ولم يكن معه أحد ؟

أجاب إسحاق : الاخلاص بالشهادة ، والسبق الى الاسلام .

قال المأمون : هل علمت أن أحداً سبق علياً إلى الاسلام ؟

قال إسحاق : أجل . إن علياً سبق الى الاسلام ، ولكن عندما أسلم كان حدثاً صغير السن ، واسلم غيره من بعده على البلوغ بعد أن تكامل عقله .

قال المأمون :أخبرني هل أسلم عليٌ (عليه السلام) من تلقاء نفسه ، أو دعاه الرسول إلى الاسلام ؟

قال إسحاق : بل دعاه الرسول .

قال المأمون : هل كانت دعوة الرسول لعلي بأمر من الله ، أو فعلها الرسول دون أمر الله ؟

قال إسحاق: حاشا الرسول أن يفعل شيئاً إلا بأمر الله ومرضاته ﴿وما ينطق عن الهوى* إنْ هو إلاّ وحيٌ يُوحى﴾[1] .

فقال المأمون : لقد أمر الى نبيّه أن يدعو علياً للاسلام ، وهو يعلم أنه صبي ، فدعاه الرسول امتثالاً لمرضاة الله سبحانه ، ولم يدع احداً سواه من الصبيان ، لأن الله لم يأمره بدعوتهم إلى ذلك ، لعلمه بأن الصبي لا يؤتمن على الدين ، فقد يؤمن الساعة ثم يرتد بعدها تلبية لطلب أهله أو غيرهم .

إذن . فقد اختار الله علياً بدعوة الاسلام من بين الصبيان ليبيّن فضله على الناس أجمعين كي يعرفوا مكانته لديه ، وأن هذه فضيلة لم يشاركه بها أحد . وأنه (عليه الصلاة والسلام) لم يشرك بربه طرفة عين .

فسكت إسحاق ولم يجب .

وعاد المأمون يسأله : أي الأعمال كان أفضل بعد السبق إلى الاسلام ؟

قال إسحاق : الجهاد في سبيل الله .

قال المأمون : صدقت . فهل تجد لأحد من الجهاد ما كان لعلي ؟ وأضاف وكم كانوا قتلى يوم بدر ، وهو أول فتح للإسلام؟

---

(١) النجم الآية ٣ ـ ٤ .

قال إسحاق : كانوا نيفاً وستين رجلاً من المشركين .

قال المأمون : كم قتل عليٌ منهم ؟

قال إسحاق : نيفاً وعشرين رجلاً ، وأربعون لسائر الناس .

قال المأمون : يكفي يوم بدر شاهدا على أن جهاد علي كان فوق كل جهاد .

ثم قال : اسألك يا اسحق عن حديث : « أنت مني بمنزلة هارون من موسى » . هل ترويه ؟

قال : نعم ، أرويه من عدة طرق .

قال المأمون : إن هارون كان أخا موسى لأبيه وأمه وكان نبياً ، وعلي ليس نبياً ، ولا أخاً للنبي ، فما معنى قوله : « بمنزلة هارون . . » ؟ .

فسكت اسحق . . . .

قال المأمون : إن معنى الحديث في القرآن ، فالله أخبر عن موسى أنه قال لأخيه : أخلفني في قومي وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين ، وهكذا أراد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أن يكون علي (عليه الصلاة والسلام) خليفته في قومه ، وأن يصلح لهم أمور دينهم ودنياهم ولا يتبع أهواءهم .

فقال اسحق : إن موسى استخلف هارون مؤقتاً حتى يعود من مناجاة ربه ، وكذلك استخلف محمد علياً (عليه الصلاة والسلام) على المدينة حتى يعود من غزوته .

قال المأمون : إن علياً (عليه الصلاة والسلام) يجب أن يكون خليفة في قوم النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) كما كان هارون خليفة في قوم موسى بدليل قول النبي : « . . إلا أنه لا نبي بعدي » لأن ذلك يعني أن محمداً قد

استخلف علياً في كل شيء إلا في النبوة ، لأنه كان خاتم النبيين ، وما كـان قول النبي ليبطل أبداً » .

وحار اسحق في الجواب واعترف الحاضرون بصحة كلام المأمون[1] .

---

(١) كتـاب بحار الانـوار ـ من كتاب الايمـان .

دال

أئمة آل البيت "ع"

في استعراض خاطف وسريع لحياة أئمة المسلمين الذين صرح بهم الرسول الأعظم ، نكتشف سر تخويل الله لأمور القيادة لهم . فهم كالأنبياء متجردون من الذاتيات ، يهبطون كالأمطار الخيّرة لا يريدون من الناس جزاءاًولاشكوراً .

أقوياء جداً في نصرة الله . لا يخافون في سبيله لومة لائم .

صابرون جداً على تحمل الألم في سبيل الحق والعدل .

انهم أنصار الله فقط . والدنيا عندهم أقل من النعل إلا إذا اقاموا حقاً أو ادحضوا باطلاً .

ولهذا كان كلامهم نوراً ، وامرهم رشداً ووصيتهم التقوى ، وفعلهم الخير ، وعادتهم الاحسان ، وسجيتهم الكرم ، وشأنهم الحق والصدق والرفق . كما جاء في زيارة الجامعة .

يقول الله (تعالى) في الحديث القدسي عنهم :

بسم الله الرحمن الرحيم

«هذا كتاب من الله العزيز الحكيم ، لمحمد نبيه ونوره ، وسفيره وحجابه ودليله، نَزل به الروح الأمين من عند رب العالمين . عظِّم يا محمد أسمائي واشكر آلائي ولا تجحد نعمائي ، إني أنا الله لا إله إلا أنا قاصم الجبارين ومديل المظلومين وديان الدين ، إني أنا الله لا إله إلا أنا فمن رجا غير فضلي أو خاف غير عدلي ، عذبته عذاباً لا أعذبه أحدا من العالمين ، فإياي فاعبد وعليَّ فتوكل ، إني لم أبعث نبياً فأكملت أيامه ، وأنقضت نبوته إلا جعلت له وصياً ، وإني فضلتك على الانبياء وفضلت وصيك على الأوصياء ، واكرمتك بشبليك وسبطيك حسن وحسين ، فجعلت حسناً معدن علمي ، بعد انقضاء مدة أبيه ، وجعلت حسيناً خازن وحيي واكرمته بالشهادة وختمت له بالسعادة ، فهو أفضل من استشهد ، وأرفع الشهداء درجة. جعلت كلمتي التامة عنده ، وحجتي البالغة معه ، بعترته اثيب وأعاقب ، أولهم سيد العابدين ، وزين اوليائي

الماضين ، وابنه شبيه جده المحمود محمد الباقر لعلمي والمعدن لحكمتي ، سيهلك المرتابون في جعفر ، الراد عليه كالراد عليَّ ، حق القول مني ، لاكرمنَّ مثوى جعفر ولأسرنَّه في اشياعه وأنصاره واوليائه ، أتيحت بعده بموسىٰ فتنة عمياء حَنْدَس ، لأنَّ خيط فرضي لا ينقطع ، وحجتي لا تخفي ، وان أوليائي يسقون بالكاس (الأوفى)، ومن جحد واحداً منهم فقد جحد نعمتي ، ومن غيَّر آية من كتابي فقد افترى عليَّ ، ويل للمفترين الجاحدين عند انقضاء مدة موسىٰ : عبدي وحبيبي ، وخيرتي في عليّ وليِّي وناصري ، ومن أضع عليه أعباءَ النبوة وأمتحنه بالاضطلاع بها ، يقتله عفريت مستكبر يُدفن في المدينة التي بناها العبد الصالح إلى جنب شر خلقي حق القول مني لأسرَّنهُ بمحمد إبنه ، وخليفته من بعده ، ووارث علمه ، فهو معدن علمي وموضع سري وحجتي على خلقي.. لا يؤمن عبد به إلا شفعته في سبعين من أهل بيته ، كلهم قد استوجب النار ، واختم بالسعادة لابنه عليّ ، وليي وناصري ، والشاهد في خلقي ، وأميني على وحيي ، أخرج منه الداعي إلى سبيلي ، والمعدن لعلمي : الحسن ، وأكمل ذلك بابنه : م ح م د رحمةً للعالمين ، عليه كمال موسىٰ ، وبهاء عيسىٰ وصبر أيوب ، فيذل أوليائي في زمانه ، وتتهادى رؤوسهم كما تتهادىٰ رؤوس الترك والديلم فيقتلون ، ويحرقون، ويكونون خائفين مرعوبين وجلين ، تصبغ الأرض بدمائهم ، ويفشو الويل والرنة في نسائهم ، اولئك أوليائي حقاً : بهم أدفع كل فتنة عمياء حندس وبهم اكشف الزلازل وأرفع الأصار والاغلال ، اولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة واولئك هم المهتدون »[1].

واليكم فيما يلي مقتطفات من حياة كل امام كما جاء في التاريخ الصحيح .

(١) كلمة الله ص ١١٧ .

١

الامام أمير المؤمنين (عليه الصلاة والسلام)

١ ـ هو علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم .

٢ ـ ولـد في بيت الله الحرام داخـل الكعبة في ١٣ ـ رجب بعـد ثلاثـين سنة من عام الفيل الذي ولد فيه الرسول الأعظم واستشهد في بيت الله داخل محراب مسجد الكوفة سنة ـ ٤٠ هجرية قتيـلاً على يـد عبد الـرحمن بن ملجم في مؤامرة الخوارج الشهيرة التي دبروها لتصفية خصومهم .

٣ ـ تـزوج ابنة الـرسول الأعـظم وعزيـزته : فـاطمة الـزهراء (سـلام الله عليها) وكان الرسول يقول :

« لولا علي لم يكن لفاطمة كفؤ عديل في العظمة » .

٤ ـ صرح الرسول الأعظم بخلافته في مـواطن غير محصـورة ولكنه لم يتسلم القيادة إلا بعد مقتل عثمان بن عفان عام ـ ٣٥ هجـرية ، بعـد أن مزقت الأمـة الاسلامية فكرياً وحضارياً ونفسياً .

٥ ـ مُنع عن ممارسة سلطاته المشـروعة خـلال ربع قـرن وخسرت الانسـانية بذلك الشيء الكثير .

٦ ـ تعتبر حياته ، حياة قيادية يجب على كل مسلم تقمصها بشكل كـامل ، وبالمقدار المستطاع .

٧ ـ على الصعيد التاريخي قام بما يلي :

أولاً ـ عـزل ولاة عثمان الـذين وصلوا إلى مراكـزهم عـلى أسـاس القـرابـة النسبية والسببية ، وليس على أساس الكفاءات اللازمـة وحاسبهم حسـاباً عـادلاً حسب مخالفاتهم المختلفة .

ثانياً ـ الغى نظام توزيع الأموال الخراجية الذي استحدثه « الخلفاء » السابقون عليه ، لأنه كان يقوم على أساس من عدم المساواة ، وأعاده إلى وصفه الذي كان في عهد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) .

ثالثاً ـ استرجع كافة الاراضي التي وزعت من ذي قبل بلا إستحقاق .

رابعاً ـ نقّى المفاهيم المدخولة على الاسلام بعد وفاة الرسول الأعظم .

خامساً ـ مزّق تجمعات المنظمات المنحرفة التي تكونت خلال فترة غياب النبي إلى زمان خلافته .

٨ ـ خلّف أعظم تراث حضاري ـ فكري يتركه انسان بعد النبي وقد جمعت مجموعة كلماته التي تعتبر بحق تعبيراً حقيقياً عن مبادىء ومفاهيم الإسلام في كتاب « نهج البلاغة » ومستدركاته المختلفة .

٩ ـ قُتل في مسجد الكوفة بتاريخ ٢١ /رمضان / ٤٠ هـ . ودفن في النجف الاشرف .

١٠ ـ كشف عن دور « آل البيت » القيادي في الحياة في خطبة قال فيها :

« .. هم عيش العلم وموت الجهل ، يخبركم حلمهم عن علمهم ، وصمتهم عن حِكَم منطقهم . لا يخالفون الحق ولا يختلفون فيه . هم دعائم الاسلام وولائج (ملاجىء) الاعتصام . بهم عاد الحق في نصابه ، وانزاح الباطل عن مقامه وانقطع لسانه عن منبته . عقلوا الدّين عقل وعاية ورعاية (تطبيق) لا عقل سماع ورواية ، فان رواة العلم كثير ورعاته قليل »[1] .

١١ ـ وكشف عن حقيقة ما جرى بعد وفاة النبي في خطبته المعروفة بالخطبة الشقشقية فقال :

---

(١) نهج البلاغة ج ٣ ص ٢٣٢ .

« أما والله لقد تقمصها (الخلافة) ابن أبي قحافة ، وانه ليعلم ان محلي منها (الخلافة) محل القطب من الرحى ينحدر عني السيل ولا يرقى إلي الطير فسدلت دونها (الخلافة) ثوباً (غضضت النظر عنها) وطويت عنها كشحاً وطفقت . أرتإي (بدأت افكر) بين أن أصول (أحارب) بيد جذاء (مقطوعة) أو أصبر على طخية (ظلمة) عمياء يهرم فيها الكبير ويشيب فيها الصغير ، ويكدح فيها مؤمن حتى يلقى ربه . فرأيت ان الصبر على هاتا أحجى (أجدر) فصبرت وفي العين قذىً ، وفي الحلق شجى (عظم معترض) أرى تراثي نهباً »[1] .

١٢ ـ من كلماته الحكيمة :

« في التجارب علم مستحدث ».

«من رضي عن نفسه كثر الساخطون عليه » .

« إذا اقبلت الدنيا على أحد اعارته محاسن غيره وإذا أدبرت عنه ، سلبته محاسن نفسه » .

« إذاقدرت على عدوك فاجعل العفو عنه شكراً للقدرة عليه » .

« أعجز الناس من عجز عن اكتساب الاخوان ، وأعجز منه من ضيع من ظفر به » .

« قرنت الهيبة (التهيب من الشيء) بالخيبة ، والحياء بالحرمان ، والفرصة تمر مر السحاب فانتهزوا فرص الخير » .

« يا بن آدم إذا رأيت ربك سبحانه يتابع عليك نعمه ، وأنت تعصيه فاحذره » .

---

(١) نهج البلاغة ج ١ ص٣٠.

« أفضل الزهد اخفاء الزهد » .

« لسان العاقل وراء قلبه (يفكر ثم يتكلم) وقلب الأحمق وراء لسانه (يتكلم ثم يفكر في عواقب كلامه)» .

« لا غنى كالعقل ، ولا فقر كالجهل ، ولا ميراث كالأدب ولا ظهير كالمشاورة » .

« أهل الدنيا كركب يسار بهم وهم نيام » .

« لا تستح من اعطاء القليل فان الحرمان أقل منه » .

« من نصب نفسه للناس إماماً فليبدأ بتعليم نفسه قبل تعليم غيره ، وليكن تأديبه بسيرته قبل تأديبه بلسانه ، ومعلم نفسه ومؤدبها أحق بالاجلال من معلم الناس ومؤدبهم » .

« شتان ما بين عملين : عمل تذهب لذته وتبقى تبعته ، وعمل تذهب مؤنته (تعبه) ويبقى أجره » .

« أشد الذنوب ما استهان به صاحبه » .

« لأنسبن الاسلام نسبةً لم ينسبها أحدٌ قبلي ، الاسلام هو : التسليم . والتسليم هو : اليقين . واليقين هو : التصديق . والتصديق هو : الاقرار . والاقرار هو : الأداء . والأداء هو : العمل الصالح » .

ـ أيها المؤمنون . . انه من رأى عدواناً يعمل به ، ومنكراً يدعى اليه فانكره بقلبه فقد سلم وبَريء، ومن انكره بلسانه فقد أجر ، وهو أفضل من صاحبه . ومن انكره بالسيف لتكون كلمة الله هي العليا ، وكلمة الظالمين هي السفلى فذلك الذي أصاب سبيل الهدى وقام على الطريق ونور في قلبه اليقين ! .

« عجبت للبخيل يستعجل الفقر الذي منه هرب ، ويفوته الغنى الذي إياه

طلب ، فيعيش في الدنيا عيش الفقراء ، ويحاسب في الآخرة حساب الأغنياء . وعجبت للمتكبر الذي كان بالأمس نطفة ، ويكون غداً جيفة . وعجبت لمن شك في الله وهو يرى خلق الله . وعجبت لمن نسي الموت وهو يرى الموتى . وعجبت لمن انكر النشأة الأخرى وهو يرى النشأة الأولى . وعجبت لعامر دار الفناء وتارك دار البقاء » .

ـ هلك امرؤ لا يعرف قدره . !

ـ الراضي بفعل قوم كالداخل معهم ، وعلى كل داخل باطل إثمان : إثم العمل به ، وإثم الرضا به .

ـ الفقر هو الموت الأكبر . !

نظرة تحليلية موجزة لحياة الإمام علي (عليه السلام)

لقد كان الامام أمير المؤمنين علي (عليه الصلاة والسلام) أول من أسلم ، ولم يسبقه سابق !

وكان أول من ولد في الكعبة ، لم يسبقه الى ذلك سابق أيضاً !

وكان أول من استعمل العنف مع اعداء الرسالة ـ حين كان عمره ١٠ سنوات ـ لم يسبقه الى ذلك سابق كذلك ! .

وكان أول من أعلن مؤازرته للنبي ، وذلك حينما نزلت الآية :

﴿وانذر عشيرتك الأقربين﴾[١] .

وكان يكره رؤية المال مجتمعاً في مكان ، أو في أيدي قلة مستغلة ، لذلك كان يزهد فيه ، ويقول : « يا دنيا غري غيري » . وكان يوزع الدنيا ومالها على

---

(١) سورة الشعراء الآية ٢١٤ .

المحتاجين فإذا اطمأن إلى توزيعه دخل بيت المال ورشه بالماء ، وصلى ركعتي الصلاة شكراً لله الذي مكنه من اعطاء كل ذي حق حقه ، مؤكداً لنفسه انه لم يبق في بيت المال مال يثقله بالمسئولية بينما الناس بأمس الحاجة اليه .

وكان يكره أن يتميز على أحد ، بل كان يعيش بين الناس كأحدهم ، وقد شوهد مرة وهو يعمل في بستان له ، مع عماله في تنقية بئر وتغويرها عمقاً للوصول الى منابع الماء ، يرفع معهم الطين ، ويجر الحبال ويسوي الأخاديد ثم يأكل معهم جنباً الى جنب ، وما عندهم إلا رخيص الطعام ورديئه فلا يترفع أو يتقزز ، وإنما يتواضع مشاركاً للآخرين شظف العيش وقلته ، ولقد كان احب كناه الى نفسه « أبا تراب » وهو ما كناه به النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) حين وجده نائماً يفترش أرض المسجد ، وقد تترب ظهره وصدره .

وكان في حياة النبي يلازمه في كل مكان ، حتى قال (عليه الصلاة والسلام) : « كنت اتبعه اتباع الفصيل أثر امه » . . وكان يقود جيوش الاسلام في كل الحروب التي خاضها المسلمون ما عدا حرب واحدة عينه خليفته على المدينة العاصمة .

وقد أوقف الامام علي (عليه الصلاة والسلام) كل ما كان يملكه في سبيل الله لأصدقائه وأتباعه من المساكين الذين رضوا به إماماً ورضي عنهم اتباعاً ، فهو واحد منهم يتعرى مثلهم ، ويذوق شظف الحياة ، ويأكل الجشب من الطعام ويلبس الخشن من اللباس .

كان يخاف الله الذي خلقه ، ولهذا كان يتساوى مع عباده ، يقول حذار بن خمرة : « كان علي (عليه الصلاة والسلام) بعيد المدى ، شديد القوى ، يقول فصلاً ، ويحكم عدلاً ، يتفجر العلم من جوانبه ، وتنطق الحكمة من نواصيه ، يستوحش من الدنيا وزهرتها ، ويستأنس بالليل ووحشته ، وكان غزير الدمعة طويل الفكرة ، يعجبه من الطعام ما جشب ومن اللباس ما خشن ، وكان فينا

كأحدنا : يجيبنا إذا سألناه ، ويأتينا إذا دعوناه ونحن ـ والله ـ مع تقريبه إيانا وقربه منا ، لا نكاد نكلمه هيبة له ، يعظم أهل الدين ويقرب المساكين ، لا يطمع القوي في باطله ولا ييأس الضعيف من عدله ، ولقد رأيته في بعض مواقفه وقد «أرخى الليل سدوله ، وغارت نجومه ، قابضاً على لحيته ، يتململ تململ السليم ، ويبكي بكاء الحزين » .

إن اهم صفة في الامام علي (عليه الصلاة والسلام) هي رفضه الخضوع للأوضاع القائمة ، وقتاله المشركين والكفار ، في عهد الرسول ، وقتاله القاسطين ـ الظالمين ـ والناكثين ـ المتمردين . والمارقين ـ التحريفيين ، بعد الرسول !

ثم بعد ان توفي الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) . . كان الامام علي أبرز شخصية قيادية عندئذٍ ، الذي كان قد انيطت اليه خلافة الرسول ، والذي كان يرى من نفسه ، ويرىٰ فيه عدد من الصحابة ، الضمانة الأساسية لاستمرار المنهج الاجتماعي الذي ارتضاه الإسلام ، وأيضاً الضمانة الأساسية كي لا يعود ملأ قريش الذين التحقوا بالاسلام عندما لم يجدوا طريقاً لمقاومته ، ان لا يعودوا للامساك بالسلطة والسلطان من جديد تحت رايات الدين الجديد واعلامه !

كان الامام علي (عليه الصلاة والسلام) تؤهله لهذا المنصب مؤهلات كثيرة ونصوص من رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ليس مكان الحديث عنها هذه الصفحات ولكن اختير غير الامام حتى وصل الأمر الى عثمان بن عفان ـ وهو من بطن أمية ذي السلطان العالي في حكومة قريش الجاهلية ـ بينما استبعد الامام حتى ذلك التاريخ من اية مسؤولية .

ونحن نعتقد أن الملأ من قريش ، الذين مالوا بالخلافة عن علي بن أبي طالب ، انما كانوا يخشون من علي نهجة الاجتماعي الاسلامي أو على الأقل كان هذا موقف نفر غير قليل منهم ، لا يكنون له المحبة ولا الولاء وقد حققوا

مطامحهم الاجتماعية ، على حساب التعاليم الاجتماعية التي بشر بها الاسلام عندما تولى الخلافة عثمان بن عفان . . فلقد حدثت يومئذ التحولات الاجتماعية التي عارضها علي وانصاره ، والتي استفاد منها أغنياء قريش القدامى ، ومن سار في طريقهم الاجتماعي ، وهي التحولات التي ثار عليها الناس حتى بلغوا من ثورتهم حد قتل الخليفة ، ثم فرضوا على بقايا رؤوس قريش مبايعة علي بالخلافة كي يقوم بالتغيير لما وقع في ظل حكم عثمان ابن عفان

وعندما بايعه الناس بالخلافة ، أعلن ما يمكن أن نسميه ـ بلغة عصرنا ـ الثورة الشاملة ضد الاوضاع الاجتماعية والسياسية التي كانت محل نقده ومعارضته على عهد عثمان بن عفان .

١ ـ **ففي السياسة** : أعلن عزل عمال عثمان وولاته على الاقاليم . . ولم يتراجع عن ذلك عندما نصحه الناصحون وأشفق عليه المشفقون . . وهذا موقف شهير في كل كتب التاريخ لا يحتاج الى تقديم الادلة عليه ولا البراهين .

٢ ـ **وفي ميدان القطائع** : كانت هناك الأرض التي كانت ملكاً خالصاً لبيت المال ، ثم جاء عثمان فأقطعها لأوليائه واعوانه وولاته واهل بيته ، وبصددها كان موقف الامام علي حازماً وحاسماً . .

فقد ألغى تصرفات عثمان هذه ، وقرر رد هذه الأرض الى ملكية الدولة وحوزة بيت المال ، ورفض أن يعترف أو يقر التغييرات « والتصرفات العقارية » التي حدثت في هذه الارض ، وقال عن هذا المال كلمته الحاسمة : « والله لو وجدته ـ (أي المال) ـ قد تُزُوّج به النساء ، وملك به الإماء لرددته . . فان في العدل سعة ، ومن ضاق عليه العدل فالجور عليه أضيق ؟! . . » .

٣ ـ **وفي ميدان العطاء** : أحدث الامام علي تغييراً ثورياً لعله كان من أخطر التغييرات الثورية التي قررها ، والتي أراد بها العودة بالمجتمع الى الروح الاسلامية الأولى . . بل لعل هذا التغيير أن يكون كذلك الموقف الذي جعل

العديد من القوى والأطراف تجمع أمرها وتوحد صفوفها وتتصدى لمحاربته ، لانها قد رأت في موقفه هذا نذير خطر يهدد امتيازاتها بالزوال .

ذلك أن النظام الذي كان هو نظام التسوية بين الناس في العطاء ولما جاء عمر بن الخطاب ألغى هذا النظام ، واجتهد في رأيه . ثم حددا المعايير التي على أساسها يكون التمييز بين الناس في العطاء ، فالسابقون الى الاسلام ، وقريش ثم الأقربون من قريش ، يأتون في المقدمة ثم يكون الترتيب التنازلي في هذا الميدان .

ثم كان عهد عثمان الذي كرس القانون الذي سنه عمر وسار على دربه أشواطاً وأشواط . حتى أصبح التمايز نظاماً بشعاً ، بلغت بشاعته حداً جعل الناس يثورون عليه ، ثم انتهت ثورتهم بقتل عثمان وتوليِّ الإمام علي إمارة المؤمنين

ومن هنا كان قرار الامام علي (عليه الصلاة والسلام) العدول عن تمييز الناس في العطاء ، والعودة الى نظام المساواة قراراً هاماً ، لأنه كان يعني انقلاباً اجتماعياً بكل ما تعنيه هذه الكلمة من دلالات . . كما كان رد فعل ملأ قريش وأبناؤهم ـ ضد الامام علي وقراره هذا بداية الثورة المضادة ضد حكمه . والتي قادها ابن أبي سفيان « معاوية » من موقعه كابن من قاد المعارك ضد رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) .

٢
الامام الحسن بن علي (عليه الصلاة والسلام)

١ ـ هو الامام الحسن بن علي بن أبي طالب الإبن الأكبر لفاطمة الزهراء سلام الله عليها[١] .

---

(١) قدم الرسول الأعظم ابنته فاطمة الزهراء ، كمسلمة نموذجية ـ إذا صح التعبير ـ وقد=

٢ ـ ولد عام ٣ هجرية وعاش في ظل النبي مدة سبع سنوات كما عاش في ظل الامام علي (عليه الصلاة والسلام) مدة سبع وثلاثين عاماً وخاض معه غمار حروب كثيرة وكان في بعضها قائداً .

٣ ـ قال الله عنه وعن أخيه في حديث قدسي خاطب فيه الرسول الأعظم :

« إنيّ لم ابعث نبياً فاكملت ايّامه ، وانقضت نبوته إلاّ جعلت له وصياً ، وإني فضلتك على الأنبياء . وفضلت وصيك على الأوصياء وأكرمتك بشبليك وسبطيك حسن وحسين ، فجعلت حسناً معدن علمي بعد انقضاء مدة أبيه ، وجعلت حسيناً خازن وحيي ، واكرمته بالشهادة »[1] .

وقال فيه الرسول الأعظم ، وفي اخيه :

« الحسن والحسين امامان ان قاما وإن قعدا » .

وقال :

« الحسن والحسين ريحانتاي من الدنيا »[2].

وقال :

=رباها تربية إسلامية . فتحملت كامل مسئوليتها كامرأة قيادية سواء في حياة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أم بعدها .

وكان النبي ـ إظهاراً لدورها القيادي ـ يبدي لها احتراماً كبيراً جداً حتى أنه كان يقبل يدها كلما دخل عليها أو دخلت عليه وكان يقول في حقها : « فاطمة أم . . أبيها » والأحاديث التي يرويها المسلمون في حقها لا تقبل الحصر . وذلك مثل : « فاطمة بضعة مني من آذاها فقد آذاني ومن أحبها فقد أحبني » ومثل : « فاطمة أحب الناس إلي » . . ومثل « لولا علي لم يكن لفاطمة كفؤ » .

(١) كلمة الله ص ١١٧ .

(٢) راجع الترمذي والحاكم ، عن أبي سعيد الخدري .

« الحسن والحسين سيدّا شباب أهل الجنة »[1].

٤ ـ كان يتلهف منذ طفولته على تفهم الآيات القرآنية ، التي كانت تنزل آنذاك تباعاً على جده ، ويسارع إلى حفظها عن ظهر قلب ليقوم بدوره في عملية نشر الرسالة حيث كان يلتقط آيات القرآن الكريم من جبرئيل أو من الرسول الأعظم ، ويحملها إلى داخل البيت ويحدث بها امه الزهراء ، وكان كثيراً ما يدهش أباه حيث كان لا يأتي إلى الدار حتى يجد أن فاطمة الزهراء تعرف كل شيء عن الآيات الجديدة التي نزلت على النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ولما سألها عن ذلك مرة اجابت : من ولدك الحسن ، يأتيني بالآيات قبل أن تصل انت إلى الدار .

٥ ـ تولى الرسول الأعظم تربيته في حياته ، ثم تولاه الامام علي واشترك معه في جميع الحروب التي خاضها بعد مقتل عثمان وكان له الدور القيادي فيها .

وتعتبر حياته حياة قائدة لا بد من محاولة تقمصها خطوة بخطوة ولحظة بلحظة ، من قبل كافة المسلمين .

٦ ـ على الصعيد التاريخي قام بما يلي :

أولاً ـ واصل الكفاح المسلح ضد معاوية الذي فرض نفسه بالكذب والخداع والتزوير على الجماهير المسلمة في الشام .

ثانياً ـ كشف ـ في خطبه ومقالاته وكلماته الحكيمة عن زيف الكثير من المفاهيم المدخولة .

ثالثاً ـ وقع اتفاقية الصلح مع معاوية بعد أن خانه قواد جيشه الذين اغراهم معاوية بالمال ، فكتبوا اليه يبدون استعدادهم بتسليم الإمام اليه متى ما يريد ؟

---

(١) راجع كتب التاريخ كلها .

رابعاً ـ فوّت بتوقيعه معاهدة الصلح ـ التي تنص فيها تنص على أن تعود الخلافة إلى الامام الحسن أو الامام الحسين بعد موت معاوية ، وأن يعمل معاوية بكتاب الله وسنة رسوله ـ فوّت عليه امكانية صياغة قيادة إسلامية مزيفة وفرض نفسه كخليفة شرعي ، وصاحب الرأي المقبول في التشريع والتنفيذ . كما كشف عن الأقنعة التي كان يستعملها الحكم الأموي ويتستر بها .

٧ ـ كان (عليه الصلاة والسلام) يقول :

« اني لأستحي من ربي أن القاه ولم أمش إلى بيته » .

فمشى إلى البيت الحرام خمساً وعشرين حجة[١] .

٨ ـ قاسم الله أمواله أكثر من مرة ، فأعطى نصف ما يملك لله ، وأبقى النصف الآخر لنفسه « حتى انه كان يعطي نعلاً ويمسك نعلاً ، ويعطي خفاً ويمسك خفاً »[٢] .

٩ ـ قتل سنة ٥٠ هـ بفعل السم الذي دسته اليه زوجته « جعدة بنت الاشعث بن قيس » بعد ان وعدها معاوية بتزويجها من يزيد وباعطائها مائة الف درهم مقابل الاقدام على هذه الجريمة ولكنه خانها بعد العملية قائلاً لها : انا لم نرضاكِ للحسن ، فكيف نرضاك لانفسنا ؟ ودفن في البقيع .

١٠ ـ خلف تراثاً فكرياً ضخماً في المفاهيم الاسلامية جمع بعضها في كتاب : « كلمة الامام الحسن » وظل الكثير منه منتشراً في الكتب المصدرية في الشريعة الاسلامية .

---

(١) الحلية لابي نعيم .

(٢) فضائل آل الرسول ص ٤٢ .

١١ ـ من كلماته الحكيمة :

«الجواد: الذي يؤدي ما افترض عليه ، والبخيل : الذي يبخل بما افترض عليه (هذا في المخلوق) وفي الخالق هو الجواد ان اعطى وهو الجواد ان منع ، لأنه (تعالى) ان اعطى عبداً ، اعطاه ما ليس له ، وان منع ، منع ما ليس له » . !

« الناس في دار سهو وغفلة ، يعملون ولا يعلمون فاذا صاروا إلى دار يقين يعلمون ، ولا يعملون » . !

« عجبت لمن يفكر في مأكوله (طعامه) كيف لا يفكر في معقوله (مصادر تفكيره ومعلوماته) فيجنب بطنه ما يؤذيه ويودع صدره ما يرديه (يهلكه) » .

« يا ابن آدم . . عف (تجنب) عن محارم الله (محرماته) تكن عابداً ، وأرض بما قسم الله تكن غنياً ، وأحسن جوار من جاورك تكن مسلماً ، وصاحب الناس بمثل ما تحب ان يصاحبوك به تكن عادلاً » . !

« انه كان بين أيديكم اقوام يجمعون كثيراً ويبنون مشيداً ويأملون بعيداً أصبح جمعهم بوراً ، وعملهم غروراً ، ومساكنهم قبوراً » . !

« يا ابن آدم . . لم تزل في هدم عمرك منذ سقطت من بطن امك ، فخذ ما في يديك لما بين يديك (لمستقبلك) فان المؤمن يتزود (من الدنيا للآخرة) والكافر يتمتع (فقط) » .

« أحسن الناس عيشاً من اشرك الناس في عيشه ، وأشر الناس من لا يعيش في عيشه أحد » . !

شر الناس من يرى انه خيرهم . !

ـ سأله شخص عن رأيه في السياسة فقال : « هي ان ترعى حقوق الله وحقوق الأحياء ، وحقوق الأموات» .

« فاما حق الله فأداء ما طلب ، والاجتناب عما نهى » .

« واما حقوق الأحياء فهي ان تقوم بواجبك نحو اخوانـك ، ولا تتأخـر عن خدمة امتـك وأن تخلص لولي الامـر (تكون مخلصـاً للحاكم) مـا أخلص لأمته (مـا دام هو الآخـر مخلصاً لأمتـه) وان ترفـع عقيرتـك (مؤخرتـك) في وجهـه (استنكاراً) إذا ما خلا عن الطريق السوي » .

« وأما حقوق الأمـوات فهي أن تذكـر خيراتهم ، وتتغـاضى عن مساوئهم ، فانَّ لهم رباً يحاسبهم » . !

(جمـع يومـاً بنيـه وبني أخيـه الصغـار وقال لهم) : « انّكم صغـار قـوم ، ويوشك أن تكـونوا كبـار قوم آخـرين ، فتعلموا العلم فمن لم يستـطع منكم أن يرويه أو يحفظه فليكتبه في بيته » .

« رأس العقل معاشرة الناس بالجميل » . !

« أُوصيكم بتقوى الله وادامة التفكر، فانّ التفكر أبو كل خير وأمه » . !

« فَضَح الموتُ . . الدنيا » . !

« الفرصة سريعة الفوت، بطيئة . . العود » . !

« ما تشاور قوم إلا هُدوا إلى رشدهم » . !

« إعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً ، واعمل لأخرتك كأنك تموت غداً » . !

« إذا أردت عزاً بلا عشيـرة ، وهيبة بـلا سلطان : فاخـرج من ذل معصية الله إلى عزطاعته » . !

نظرة تحليلية موجزة لحياة الإمام الحسن (عليه السلام)

كانت الفترة التي ولد فيها الامام الحسن (عليه الصلاة والسلام) من أشـد

أيام التاريخ الاسلامي اضطراباً ، إذ كان جده ووالده مشغولين في قضايا الحرب والقتال ضد المشركين .

وكان أبوه يخرج من كل ليلة في غزوة أو حملة أو حرب ، ولا يعرف هل سيعود منها أم لا .

ونشأ مع والده ، وكان الساعد الايمن له في حروبه ، فقاتل الناكثين ، والقاسطين ، والمارقين ، وشارك في فتح افريقيا ، وايران .

وبعد استشهاد والده قاد الجيوش لولا ضعف بعض المسؤولين في جيشه ، وتعرض أربع مرات لمحاولة الاغتيال ، وفي المرة الاخيرة كانت على يدي زوجته « جعدة بنت الاشعث بن قيس » ، حيث قام معاوية بترغيبها في ذلك حيث اوعدها إن قتلت الامام الحسن (عليه الصلاة والسلام) بالحصول على مائة ألف درهم وبالزواج من يزيد بن معاوية ، الخليفة المفروض على الناس أنذاك .

ولكي نفهم جيداً حياة الامام الحسن نقول :

ماهي الظروف التي دعت الإمام الحسن لتوقيع إتفاقية الصلح بينه وبين معاوية ؟

من الصعب جداً حصر حياة واحد من عظماء التاريخ كالامام الحسن (عليه الصلاة والسلام) ، في صفحات معدودة ، ذلك لأن حياة الرساليين العظماء لم تكن لوقت محدد ، ولا لزمان معين .

لقد تسلم الإمام الحسن (عليه الصلاة والسلام) الامامة ، والأمة تعيش حياة ملؤها الحروب ، والاضطرابات ، وهي في نفس الوقت قد فقدت قائدها العظيم ، الإمام علي (عليه الصلاة والسلام) ، وكانت كل آثار تلك الاضطرابات تتجمع لتلقي حملها على كاهل الإمام الحسن (عليه الصلاة والسلام) .

فلقد استطاع معاوية بن أبي سفيان عبر الاغراءات ، أن يشتري ضمائر ليس قواد الامام الحسن فحسب ، وإنما قواد جيش الامام علي (عليه الصلاة

والسلام) أيضاً .

ذلك لأنه بمجرد أن بويع الامام علي (عليه الصلاة والسلام) بالخلافة دخلت البلاد الاسلامية مرحلة من الفوضىٰ والحروب والاضطرابات

وقد تتساءل : لماذا كان ذلك ؟

ونجيب :

لأن الامام علي (عليه الصلاة والسلام) كان صلباً في ذات الله ، ولم يكن يقبل لنفسه أن يحقق بعض المكاسب ، في مقابل السكوت على الانحرافات القائمة آنذاك ، والمؤامرات التي كانت تحاك ضد الاسلام . ولم يكن ذلك الانسان الذي يستخدم المكر السياسي ، من أجل التثاقل الى الدنيا واغتنام مكاسبها ، وحاشاه ان يكون كذلك .

وفي تلك الأوضاع الحرجة المضطربة ، استشهد الامام علي (عليه الصلاة والسلام) وأصبح الامام الحسن اماماً وقائداً للثورة .

ولكن . .

أية حالة كان يعيشها الناس في تلك الفترة ؟

وكيف كان حال اتباع الامام . وقد قتل الإمام عليّ (عليه الصلاة والسلام ؟

ويذكر التاريخ أن الإمام علي (عليه الصلاة والسلام) كان يعبر عن الحالة الغير مرضية للأمة أبان الاضطرابات في عهده ، فيقول :

« ليت معاوية صرفني بكم صرف الدينار بالدرهم فأخذ مني عشرة وأعطاني واحداً . امامكم يطيع الله وانتم تعصونه ، وامامهم يعصي الله وهم يطيعونه » . ورقىٰ المنبر ذات يوم ، وكان يدعو الله ان يذهب اليه ، وان يستبدله

خـيـراً منهم ، وكان يعرب عن تأسفه العميق النابع في مرات كثيرة ، فكان يقول :

« اف لكم لقد سئمت عتابكم »

« حلوم الرجال وعقول ربات الحجال لوددت اني لم أركم ولم اعرفكم » .

« والله ان معاوية سيظهر عليكم لا لأنه اولى بالحق منكم ، ولكن لتفرقكم عن حقكم ، وتمسكهم بباطلهم » !

وهؤلاء القوم أنفسهم ، والذين كان الامام علي (عليه الصلاة والسلام) يصب سخطِه عليهم ، كانوا يشكلون جيش الامام الحسن (عليه الصلاة والسلام) ، فخان من خان ، واستسلم من استسلم منهم لمعاوية ، وقد كتب أحدهم إلى معاوية يقول له : يا معاوية ! ان شئت سلمناك الحسن حياً ، وان شئت سلمناه ميتاً .

وفي مثل هذه الظروف العصيبة ، صالح الامام الحسن (عليه الصلاة والسلام) ، معاوية ، ولكنه في صلحه حفظ الدين كما فعل الامام الحسين في ثورته .

فقد يدعوك الأمر لأن تصالح ، اذا رأيت أن مصير الأمة يتحدد في هذا الصلح ، ولكن أي نوع من الصلح هو المطلوب ؟

ان الصلح المطلوب هو ذلك الذي يكون حافظاً لدينك ومبادئك ورسالتك ، لا ما يعطيك امتيازاً مادياً ، فهذا الصلح محرم في الاسلام ، لأنه يكون على حساب المبادىء ، ولم يكن صلح الإمام الحسن (عليه الصلاة والسلام) إلا من أجل صيانة الرسالة والمبدأ ، وحفظ القرآن والاسلام ، وهذا هو معنىٰ « الامام القاعد » في قول رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : « الحسن والحسين إماما قاما أو قعدا » .

لقد صالح الإمام الحسن (عليه الصلاة والسلام) معاوية من أجل أن ينتزع منه اعترافاً بالتجبر والطغيان وان اول بند من بنود الصلح كان ينص على :

« إن معاوية يشهد أن لا إله إلا الله ، وان محمداً رسول الله » .

ذلك لأن الاسلام في أيام الامام الحسن (عليه الصلاة والسلام) كان معرضاً للتحريف ، فيصبح معاوية (رسول الله) ! كما نودي بهذا الاسم في أيام زمانه . وبذلك استطاع الامام الحسن (عليه الصلاة والسلام) أن يخضعه للإعتراف أمام الملأ بأن رسول الله غيره ليس هو ، كان هذا مهماً للمحافظة على الاسلام من التحريف والتزييف .

ومن جملة بنود الصلح : أنه بما أن معاوية حكم ، وأثر في الجانب المادي ، فانه يبقىٰ على وضعه شريطة أن يكون الخليفة من بعده الإمام الحسن إن كان حياً ، أوالإمام الحسين في حالة وفاة الامام الحسن (عليه الصلاة والسلام) . وهذا البند يحمل بين طياته امرين :

الأول : بما ان معاوية انتصر بالسلاح ، فهو حاكم بالقوة ، ولا يمثل الشرعية في الحكم .

الثاني : تهيئة الأرضية لثورة الامام الحسين (عليه الصلاة والسلام) ، ومن هنا يتبين بكل وضوح : أن يزيد بن معاوية ليس حاكماً شرعياً حسب بنود الصلح .

ان حدث الصلح بين معاوية والامام الحسن ، حدث خطير ومهم ، لا بد لنا من دراسته دراسة عميقة واضحة ، لمعرفة الاوضاع والملابسات القائمة آنذاك ، والتي فرضت على الامام الحسن القيام بالصلح .

٣

الامام الحسين بن علي (عليه الصلاة والسلام)

١ ـ هو الامام الحسين بن علي بن أبي طالب ، شقيق الحسن من أبيه وامه .

٢ ـ ولد عام ٤ هـ في المدينة المنورّة ، وعاش مع الامام الحسن في جو عائلي واحد في ظل جدهما الرسول الأعظم وأبيهما الامام علي (عليه الصلاة والسلام) .

٣ ـ أصبح اماماً مفترض الطاعة بعد مقتل أخيه الامام الحسن عام ٥٠هـ .

٤ ـ قال عنه الرسول الأعظم في الحديث الشهير :

« حسين مني ، وأنا من حسين » .

مشيراً بذلك إلى الترابط الجذري القائم بين كل منهما فيما يختص بالرسالة الاسلامية ، ودور كل واحد في نشرها .

٥ ـ تعتبر حياته كحياة أخيه وأبيه حياة قيادية يجب إتباعها خطوة خطوة ولحظة بلحظة .

٦ ـ على الصعيد التاريخي قام بما يلي :

أولاً ـ شارك أباه في حروبه التي خاضها بعد توليه الخلافة ، وكان له دور قيادي في بعضها .

ثانياً ـ شارك أخاه في محنة وآلامه مع معاوية وكان له الدور الكبير في تجنيب سلطات معاوية اتخاذ الكثير من المواقف الإلحادية .

ثالثاً ـ واصل نشر الرسالة بالطرق السلمية وقام بتربية مجموعة كبيرة نوعاً ما

من الناس حسب أصول الشريعة .

رابعاً ـ قام بثورة مسلحة عنيفة ضد الحكم الأموي في عهد يزيد بن معاوية ، وراح هو و٧٢ ـ من أقربائه وأنصاره ضحية تلك الثورة . واشتهرت ثورته هذه بواقعة عاشوراء ، أو واقعة كربلاء ، باعتبار جريان احداثها في اليوم العاشر من محرم الحرام في صحراء كربلاء جنوبي مدينة بغداد ، ودفن فيها .

وبالرغم من أن الامام قتل في هذه الثورة ، ولكنه على أي حال نجح نجاحاً كاملاً في تحقيق اهدافه المقدسة .

ذلك لأن الظروف التي مرت على الأمة الاسلامية اعطت السلطات التنفيذية ـ في نظر الأمة ـ حق اعتبار نفسها سلطات تشريعية ايضاً ، فكان الخليفة يعتبر نفسه مشرِّعاً ، إلى جانب كونه منفذاً للشريعة في وقت واحد ولأن الأمة كانت قد اعتادت على حياة الرسول الأعظم الذي كان يمارس التشريع[1]والتنفيذ معاً واعتادت على حياة الذين تعاقبوا على الحكم الذين كانوا هم ايضاً يمارسون ـ بشكل أو بآخر ـ كلا الأمرين ، فقد أصبح من السهل على القيادات ، عندما انحرفت عن خطها الاسلامي المحدد ، أن تقوم بنسف كل الأسس التي قام عليها الاسلام ، وابداع أُسس جديدة على اساس : أن للحاكم أن يبدِّل ويغيِّر ، كما له أن ينفِّذ !

وهذا ما كاد ان يقع فعلاً . . فلقد تخدر جسم الأمة بشكل معه يخشى من قيام السلطات الأموية ـ إذا ما استمرت في الحكم ـ بالتلاعب بنصوص الشريعة ، وتحويلها إلى مجموعة معتقدات ومبادىء لا تقل ميوعة من معتقدات ومبادىء المسيحية المنحرفة .

---

(١) جرينا في ذلك حسب التعبير الحديث ، وإلا فان النبي لم يكن مشرعاً ولا مارس التشريع لحظة من حياته ، وكل ما أعلن عنه انما تلقاه من الله . . .

وهكذا اصبح من الضروري جداً أن يقوم الامام الحسين ـ باعتباره الممثل الشرعي للاسلام ـ بعملية يثبت بها زيف القيادات المنحرفة ، تدخل الضوء في روع كل مسلم ، وتحرِّك فيه مشاعر السخط ضد السلطات وتعلمه العمل من اجل المحافظة على الدين من التلاعب اللامسؤول.

وجرت الأحداث في عهد يزيد بن معاوية ـ الذي نصبه أبوه كخليفة للمسلمين من بعده على طريق نصب أبي بكر لعمر ـ جرت على شكل هيأ للامام الحسين أسباب النجاح في ثورته . فلقد تحرك بعض المسلمين إلى الكوفة ضد يزيد معتبرين « خلافته » مخالفه لأهم بند من بنود اتفاقية الصلح التي وقعها معاوية مع الامام الحسين ، فكتبوا للامام الحسين يطلبون منه السفر اليهم ، معلنين بذلك التمرد المكشوف على حكم يزيد .

ولبّى الإمام الطلب .

وأرسل ابن عمه مسلم بن عقيل كوالٍ من قبله على الكوفة .

ولكن أهل الكوفة باعوا ضمائرهم للسيف والذهب ، وتحولوا من أعوان إلى أعداء ، وسلموه إلى والي يزيد ، حيث قتله في وضح النهار .

وفيما كان خبر مقتل مسلم بن عقيل ينتشر في ارجاء العالم الاسلامي ، تحرك الإمام الحسين من مكة متوجهاً إلى الكوفة ، فالتقى في صحراء كربلاء بطلائع جيش يزيد ، وحوصر من قبلها لمدة ثلاثة أيام ، ثم دخل معها في معركة غير متكافئة القوات حيث كان عدد جيش يزيد يقرب من نصف مليون جندي ، بينما لم يكن جيش الامام يتجاوز عن المائتين بما في ذلك الاطفال والنساء والشيوخ وكان عدم التكافوء مهدوفاً للامام الحسين ، لأنه لم يكن يبحث عن الانتصار العسكري لانقاذ السلطات التنفيذية من أيدي الحكم الاموي وانما كان يسعى للكشف عن زيف هذه السلطات ومن ثم فصل السلطات التشريعية عنها .

وقد قُتل الامام في هذه المعركة مع كل رجاله البالغ عددهم ٧٢ رجلاً كما قتلت معه أكثر من امرأة ، وأكثر من خمسين طفلاً وطفلة . وقطع الجيش الأموي رؤوس القتلى ، وطاف بهم على قمم الرماح غالبية مدن العالم الإسلامي ، وساهم بذلك من حيث لا يدري في إيقاظ الضمير والعقل والفكر في اعماق المسلمين .

وهكذا . . اكتشف المسلمون بعد مقتل الامام :

أولاً ـ زيف الطريقة التي جرت عليها الخلافة بعد وفاة الرسول الأعظم . لأنها انتهت الى خلافة يزيد هذا .

ثانياً ـ ان الدين لا يعني : « إرادة الخليفة » لأن هذه الارادة قد تتعلق بارتكاب جريمة بشعة كقتل الامام الحسين (عليه الصلاة والسلام) . وإنما هو مجموعة مقاييس ومبادىء سماوية لا تقبل التقولب حسب الأهواء والرَّغبات .

وبذلك انتصر الحسين (عليه الصلاة والسلام) حيث انهزم يزيد ، وأصبح للامام (عليه الصلاة والسلام) حق الحياة على الاسلام ، لأنه انقذه من مصير كان ينتظره ، ليس أقل سوءاً من مصير المسيحية .

وهكذا كان الحسين « مِن » النبي ، وكان النبي أيضاً « من » الحسين ـ كما قال الرسول الأعظم ـ.

٧ ـ خلّف تراثاً فكرياً ضخماً من الكلمات الحكيمة ، والمواقف البطولية ، جمع قسم من كلماته في كتاب « لمعة من بلاغة الامام الحسين » ويعتبر تراثه مصدراً من مصادر التشريع الاسلامي .

٨ ـ من كلماته الحكيمة :

« الناس عبيد الدنيا ، والدِّين لعق على ألسنتهم ، يحوطونه ما درت معايشهم ، فاذا محِّصوا بالبلاء قلّ الديانون »!

« السلام قبل الكلام ».

« إياك وظلم من لا يجد عليك ناصراً إلا الله عز وجل ».

« البخيل من بخل بالسلام ».

« إياك وما تعتذر منه فان المؤمن لا يسيء ولا يعتذر والمنافق كل يوم يسيء ويعتذر ».

« الإخوان أربعة : ».

١ - « فأخ لك ، وله ».

٢ - « وأخ لك ».

٣ - « وأخ عليك ».

٤ - « وأخ لا لك ولا له ».

الأخ الذي لك وله هو الأخ الذي يطلب بإخائه بقاء الإخاء ولا يطلب بإخائه موت الإخاء . فهذا لك وله لانه إذا تم الإخاء طابت حياتهما جميعاً ، وإذا دخل الإخاء في حال التناقض بطل جميعاً .

والأخ الذي هو لك فهو الأخ الذي قد خرج بنفسه عن حال الطمع إلى حال الرغبة فلم يطمع في الدنيا ، إذا رغب في الإخاء . فهذا موفر عليك بكليته .

والأخ الذي هو عليك فهو الأخ الذي يتربص بك الدوائر ويفشي السرائر ويكذب عليك بين العشائر وينظر في وجهك نظر الحاسد ، فعليه لعنة الواحد .

والأخ الذي لا لك ، ولا له فهو الذي قد ملأه الله حمقاً فأبعده سحقاً فتراه يؤثر نفسه عليك ويطلب شحاً ما لديك .

« أوصيكم بتقوى الله ، فان الله قد ضمن لمن اتقاه أن يحوله عما يكره إلى ما يحب ويرزقه من حيث لا يحتسب ».

« فاياك ان تكون ممن يخاف على العباد من ذنوبهم ويأمن العقوبة من ذنبه ، فان الله تبارك وتعالى . لا يُخدع عن جنته ، ولا ينال ما عنده إلا بطاعته انشاء الله ».

نظرة تحليلية موجزة لحياة الإمام الحسين (عليه السلام)

الامام الحسين ـ سيّد الشهداء (عليه الصلاة والسلام) ـ.

كان الإبن الثاني للامام علي والحفيد الثاني للنبي (صلى الله عليه وآله وسلّم).

وعندما ولد الحسين ، التقى به النبي ، وكان بينه وبين الحسين حديث هامس . . وتعهد شخص من قبل النبي بتربيته .

وفي فترة الشباب عاش الإمام الحسين ثلاثة عصور :

١ ـ عصر النبي ـ وقد عاشه الحسين تحت رعاية النبي سبعة أعوام .

٢ ـ عصر الخلفاء ـ وقد رافقه الحسين خمسة وعشرين عاماً .

٣ ـ عصر أبيه الامام علي (عليه الصلاة والسلام) ـ وقد رافقه أربعة أعوام .

وفي هذه العصور كان له دور بارز في الاحداث ! والتاريخ مليء بقصصه وحكاياته . فهو لم يكن منعزلاً عن سير الأمور حتى في فترة ما بعد الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) .

فهو الطفل ـ كان في جهاد العدو مع رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)

يشارك في الحرب ، قدر استطاعته كطفل . . وهو الشاب ـ كان مع فاتحي أفريقيا ، كما أن أخاه الحسن كان من فاتحي ايران وكان أيضاً مع أبيه يقاتل الناكثين والقاسطين والمارقين ، في فترة خلافة الامام علي (عليه الصلاة والسلام) . . وهو الكهل ـ كان رئيس المعارضة قبل موت معاوية . وهو في آخر سني حياته ـ خاض معركة نبيلة كان يدعو الله ان يرزقه الشهادة فيها .

وبالاستمرار في الجهاد طيلة العمر ، قام الحسين بدور بارز في تكوين عصره ـ وترك بصماته على مرحلة دقيقة من مراحل الرسالة ، لا تزال هذه البصمات تتسع في كل بقاع الأرض وتتفاعل مع النفوس حتى كان « كل يوم عاشوراء وكل ارض كربلاء »! .

ومن هنا نستطيع ان نعرف لماذا كانت نتائج ثورة الإمام شاملة لكل جوانب حياة الأمة .

حيث انها قلبت الموازين السياسية ، والإجتماعية والفكرية رأساً على عقب .

فكيف حدث ذلك ؟

أ ـ على الصعيد الفكري :

نسفت ثورة الإمام كل الصيغ والتركيبات الفكرية ، والنفسية التي كانت تشكل العمود الفقري للفكر ، وبعد ان بدأت تتوضح ملامح الثورة ، وتكشفت عن الهوى والانحراف في نوعية الفكر السائد وبدأ الانسان المسلم يبحث عن هوية جديدة لفكره ، فقد خلقت ثورة الامام مرحلة جديدة هي ، مرحلة « فتح العيون » على زيف الأفكار المطلية بالاسلام ، البعيدة كل البعد عنه .

ب ـ على الصعيد الاجتماعي :

خلقت ثورة الإمام أساساً جديداً للولاء . وسقّطت الولاءات القبلية ، فثار

العبيد على الأسياد ، وثارت القبائل على رؤسائها .

وحطمت الثورة حاجز الخوف بين الناس وبين حركة التغيير، فإذا كانت « المسلمات الأخلاقية » المزيفة تحول بينهم أن يثوروا ، فان الثورة نسفت هذه المسلمات ووضعت ضرورة الثورة مكانها .

فقامت في كل مكان من الأرض الاسلامية وكانت الفتيلة : ثورة الامام .

ج ـ على الصعيد السياسي :

وضعت الثورة النظام موضع المحاسبة ، وتجاوزته الى خلفياته الفلسفية فنسفتها نسفاً كاملاً وكشفت عن الخلفية الصائبة للنظام : من يحكم ؟ وكيف يحكم ؟ وما هي مسؤوليات الحاكم ؟! وما هي واجبات الناس ؟ وما هي حقوقهم ؟

ـ ماذا كانت دوافع الامام الحسين الى الثورة ؟

ـ ان قناعة الإمام ، بأن الاوضاع القائمة كلها شاذة ، وانها بحاجة الى تغيير جذري في بنيانها ، هي التي دفعته الى الثورة .

ونستطيع أن نلخص أهداف ثورة الامام الحسين ، التي هي بالطبع أهداف الإسلام في كل زمان ومكان ، في الامور التالية :

١ ـ صنع « أمة رسالية » ، أي بناء قاعدة جماهيرية تتخذ حمل رسالة الإيمان بالله ، والالتزام بقوانينه وشريعته ، منطلقاً لعملها في الحياة .

٢ ـ بناء « مجتمع إسلامي » يتخذ الإسلام في علاقاته ، وأنظمته ، ودساتيره ، مصدراً وحيداً في التشريع . ويبني كافة مواقفه ، وفق القواعد الاسلامية العامة . .

٣ ـ تخليص « الحضارة الإسلامية » من التحريفية ، وانقاذها من السقوط .

ولأن كل ذلك ، لم يعد ممكناً مع النظام القائم آنذاك ، فقد حمل الامام السلاح ، وبدأ الثورة ضده .

فهو لم يكن يشن حرباً عدوانية . وانما كان يشن حرب ردّ عدوان قائم ، وهو عدوان الوضع الشاذ .

ذلك لأن الأمة كانت تعاني من الأمور التالية :

١ ـ من الناحية الإجتماعية : كان الفساد ، والرشوة ، والغش ، والظلم ، وعدم تكافؤ الفرص ، منتشراً إنتشاراً واسعاً .

يقول الامام الحسين : « الا وإن هؤلاء قد لزموا طاعة الشيطان ، وتركوا طاعة الرحمن وأظهروا الفساد . . » .

٢ ـ من الناحية الأمنية : لم تكن تقام الحدود ، ومن ثم فلم يكن المجرم يعاقب على جريمته ، ولا العاصي على معاصيه .

وصّرح الامام بذلك بقوله : « وعطلوا الحدود » .

٣ ـ من الناحية الاقتصادية : كانت هناك قلة تتحكم بمصائر الناس ، وتحتكر أرزاقهم ، وتتلاعب بمقدراتهم المعيشية .

وكما صرح الإمام : « وأستأثروا بالفيىء دون الناس ، وتصرفوا فيه كما أملت عليهم شهواتهم » .

٤ ـ من الناحية الخلقية : كانت قيم الشيطان هي السائدة فقد : « أحلوا الحرام ، وحرموا الحلال » .

لهذه الأوضاع . . وللصمت المطبق الذي كان من الناس على هذه الأوضاع ـ حتى أصبح اعتبارها « الحالة الطبيعية » للبلاد والعباد ، كل ذلك كان وارداً في الأذهان ـ وتسبّب في إثارة روح الجهاد والاستهانة بالموت من قبل الطلائع

الاسلامية التي ثارت مع الامام الحسين (عليه الصلاة والسلام) .

لقد ثار الامام الحسين ، ولكنه لم يكن يريد أن يغير الوجوه ، ويقوم باصلاحات سطحية على صعيد آني، وإنما كان يحاول أن يعيد بثورته قيم الاسلام وقيادته الحقيقية ، ولذلك فانه يطلب من الناس ان يتبعوه فيما إذا وثقوا بأنه يمثل الحق ، وينطلق من أجله .

٤

الامام علي بن الحسين (عليه الصلاة والسلام)

١ ـ هو الامام علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب ، الشهير بزين العابدين .

٢ ـ ولد عام ٣٨ هـ وعاش سنين حياته الأولى في ظل جده الامام علي (عليه الصلاة والسلام) ، كما عاصر مدة ٢٢ عاماً أباه الامام الحسين (عليه السلام).

٣ ـ قال الله عنه في حديث قدسي : « سيد العابدين ، وزين أوليائي الماضين »[١] .

٤ ـ حضر واقعة كربلاء ، وعاش احداثها ، وآلامها ، ومآسيها ، ولكن المرض الشديد حال دون اشتراكه في معاركها الدامية .

٥ ـ تعتبر حياته ، حياة قيادية لا بد من تقمصها حرفاً بحرف وخطوة بخطوة .

٦ ـ خلف تراثاً فكرياً هائلاً ، جمع بعض منه في « الصحيفة السجادية » و

---

(١) كلمة الله ص ١١٨ .

« رسالة الحقوق » بينما بقي القسم الآخر موزعاً على كتب المصادر الفكرية .

٧ ـ على الصعيد التاريخي قام بما يلي :

أولاً ـ قاد ثورة الامام الحسين (عليه الصلاة والسلام) بعد مقتله بكربلاء عام ٦٠ هـ وتحمل آلاماً كثيرة في سبيل نشر الوعي الاسلامي في صفوف المسلمين ، الذين بدأوا يستيقظون شيئاً فشيئا بعد تلك الثورة .

ثانياًـ قاد حرباً دعائية ضخمة ضد سلطات بني امية عن طريق الكشف المباشر لأحداث ومآسي كربلاء ، وكيفية مقتل أبيه وإخوته وبني أعمامه ، وكان كثيراً ما يمشي في الأسواق فاذا رأى قصابا يهم بذبح الشاة أوقفه عن مباشرة الذبح وسأله : هل سقيت هذا الحيوان ؟

فاذا كان الجواب ايجابيا ، بكى بكاءاً مراً ، حتى إذا التف حوله الناس وسألوه عن سبب بكائه أجاب : لقد قتلوا أبي واخوتي وأعمامي عطاشا في كربلاء والماء يشرب منه المجوس واليهود !

وكان كلما قدم اليه الماء أو الطعام . . يبكي بحرقة وحرارة ، فاذا سأل الناس عن سبب بكائه اجاب : ءأشرب وقتل ابن رسول الله عطشانا ؟ ءآكل وقد قتل ابن رسول الله جائعا ؟

وبالاضافة إلى ذلك ، فقد كان يقيم مجالس العزاء على أرواح شهداء كربلاء ، ويحث الناس على إحياء ذكرى عاشوراء ، وهكذا استطاع ان يكشف النقاب عن حقيقة بني أمية ودورهم الالحادي في التخريب ، وبذلك ساعد على انهيار حكمهم الأسود البغيض .

٨ ـ قتل بفعل السم الذي دس اليه ، عام ٩٤ هـ ودفن في البقيع بالمدينة المنورة .

٩ ـ صاغ أكبر مجموعة من الادعية ذات المفعول السحري في تحريك وجدان

الانسان ، وتنشيط ضميره .

وادعية الامام زين العابدين ، تعتبر بحق أكبر مدرسة لمن أراد أن يكون أحسن تلميذ .

أ ـ لاحظ كيف يوقظ في الانسان الشعور بقدرة ، وحاكمية ، ومحبة الله تعالى بكلمات رقيقة كالنسيم ، صادقة كالنور ، عميقة كالبحار :

إلهي

لا تؤدبني بعقوبتك ، ولا تمكر بي في حيلتك . من أين لي الخير ، يا رب ، ولا يوجد إلا من عندك ؟ .

ومن أين لي النجاة ، ولا تستطاع إلا بك ؟ .

لا الذي احسن استغنى عن عونك ورحمتك ، ولا الذي اساء و اجترأ عليك ولم يُرضك ، خرج عن قدرتك .

يا رب . .

بك عرفتك ، وأنت دللتني عليك ، ودعوتني اليك ، ولولا أنت لم أدر ما أنت ؟

الحمد لله الذي أدعوه فيجيبني ، وإن كنت بطيئاً حين يدعوني . والحمد لله الذي أسأله فيعطيني وإن كنتُ بخيلاً حين يستقرضني ، والحمد لله الذي أُناديه كلّما شئت لحاجتي ، وأخلو به حيث شئت لسرّي بغير شفيع ، فيقضي حاجتي .

الحمد لله الذي لا أرجو غيره ، ولو رجوت غيره لأخلف رجائي ، والحمد لله الذي وكلني اليه فأكرمني ، ولا يكلني إلى الناس فيهينوني ، والحمد لله الذي تحبّب إليّ وهو غني عني ، والحمد لله الذي يحلم عني حتى كأني لا ذنب لي ، فربي أحمد شيء عندي واحق بحمدي .

ب ـ ولاحظ كيف يدفع الانسان إلى تقمص المناقبية الاسلامية بقوله :

اللهم صلى على محمد وآله ، ولا ترفعني في الناس درجة إلا حططتني عند نفسي مثلها ، ولا تحدث لي عزاً ظاهراً إلا احدثت لي ذلة باطنة عند نفسي بقدرها .

اللهم صل على محمد وآله ومتعني بهدى صالح لا أستبدل به وطريقة حق لا أزيغ عنها ، ونية رشد لا أشك فيها .

اللهم صلى على محمد وآله وسددني لأن اعارض من غشني بالنصح ، واجزي من هجرني (أهملني) بالبر ، وأثيب من حرمني بالبذل ، وأكافي من قطعني بالصلة، وأخالف من اغتابني إلى حسن الذكر ، وان أشكر الحسنة ، واغضي عن السيئة .

اللهمّ صلِّ على محمد وآله ، وحلِّني بحلية الصالحين ، وألبسني زينة المتقين في بسط العدل وكظم الغيظ واطفاء النائرة وضمّ أهل الفرقة ، وإصلاح ذات البين ، وافشاء العارفة وستر العائبة (العيب) ولين العريكة ، وخفض الجناح ، وحسن السيرة وسكون الريح ، وطيب المخالقة ، والسبق إلى الفضيلة ، وايثار التفضل وترك التعيير ، والافضال على غير المستحق ، والقول بالحق وان عزّ ، والصمت عن الباطل وان نفع واستقلال الخير وان كثر من قولي وفعلي .

ج ـ ولاحظ كيف يدفع الانسان إلى التوبة ، ويعلمه كيفية مخاطبة الله في ذلك بقوله :

إلهي . .

لم أعصك حين عصيتك ، وانا بربوبيتك جاحد ، ولا بأمرك مستخف ، ولا لعقوبتك متعرض ولا بوعيدك متهاون ولكن خطيئة عرضت وسوّلت لي

نفسي ، وغلبني هواي ، وأعانتني عليه شقوتي .

فالآن من عذابك من يستنقذني ؟ وبحبل من أتصل إن انت قطعت حبلك عني ؟ ولولا ما أرجو من كرمك وسعة رحمتك ، ونهيك إياي عن القنوط لقنطت ، فهب لي من لدنك رحمة ، إنك أنت الوهاب فبعزتك لو انتهرتني ما برحت من بابك ولا كففت عن تملقك . إلى من يذهب العبد إلا إلى مولاه . وإلى من يلتجيء المخلوق إلا إلى خالقه .

١٠ ـ من كلماته الحكيمة :

ـ ويحك يا ابن آدم الغافل ، وليس مغفولاً عنه . ان أجلك أسرع شيء اليك قد أقبل نحوك حثيثاً يطلبك ويوشك أن يدركك ، فكأنْ قد أوفيت أجلك ، وقد قبض الملك (ملك الموت) روحك وصيّرت إلى قبرك وحيداً ، فرّد اليك روحك واقتحم عليك ملكان : منكر ونكير لمساءلتك وشديد إمتحانك !

ألا وإنّ أول ما يسألانك عن ربك الذي كنت تعبده (تخضع له) وعن دينك الذي تدين به ، وعن كتابك الذي كنت تتلوه . وعن إمامك الذي كنت تتولاه ، وعن عمرك فيما افنيت ، وعن مالك من أين اكتسبته وفيما أنفقته ؟

فخذ حذرك وانظر لنفسك ، وأعدّ الجواب قبل الامتحان والمساءلة والاختبار .

ـ من كرمت عليه نفسه هانت عليه الدنيا . !

ـ لا يقل عمل مع تقوى ، وكيف يقل ما يتَقبّل ؟

ـ إتقوا الكذب الصغير منه والكبير ، في كل جد وهزل ، فان الرجل إذا كذب في الصغيرة اجترأ على الكبير .

ـ الخير كله في صيانة الانسان نفسه . !

ـ إن اقربكم من الله أوسعكم خلقاً ، وان ارضاكم عند الله أسبغكم على عياله ، وان أكرمكم على الله أتقاكم لله . !

ـ ابن آدم . . انك ما تـزال بخير مـا (دام) كان لـك واعظ من نفسك ، وما كانت المحاسبة (محاسبة النفس) من همك . ابن آدم . . انك ميت ومبعوث وموقوف بين يدي الله جل وعزّ فأعد له جواباً . !

ـ إياك ومصاحبة الكذاب فانه بمنزلة السراب يقرّب لـك البعيد ويبعّـد لك القريب ، وإياك ومصاحبة الفاسق فانـه بايِعـك بأكلة أو أقـل من ذلك ، وإيـاك ومصاحبة البخيل فانه يخذلـك في مالـه أحوج مـا تكون اليـه ، وإياك ومصـاحبة الأحمق فان يريد أن ينفعك فيضرك ، وإياك ومصاحبة القاطع رحمـه فاني وجـدته ملعوناً في كتاب الله . !

نظرة تحليلية موجزة لحياة الإمام السجاد (عليه السلام)

في عصر الإمام علي بن الحسين (عليه الصـلاة والسلام) ، وخصـوصاً في أيام إمامته ، كان الـوضع العـام (للدولة الاسـلامية) يعـاني مما يمكن ان نـطلق عليه (بالازمة الحضارية الحادة) ، والتي كانت تهدد الأمـة الاسلاميـة ليس فقط بانحرافها وتغيير مسيرتها ، وانما بزوالها أيضاً .

انّها ـ تعني فيما تعين ـ الأزمة في كافة نواحي الأمّة فقد كـانت هناك في الأمّة الإسلامية :

١ ـ أزمة سياسية .

٢ ـ أزمة خلقية .

٣ ـ أزمة فكرية .

٤ ـ أزمة إجتماعية .

أولاً : الأزمة السياسية :

ربما كانت الأزمة السياسية هي أبرز تلك الأزمات ، فالأمة الاسلامية كانت تضطرب وتتموّج فهناك حركة في العراق واخرى في الحجاز ، وثالثة في مصر ، ورابعة في المغرب ، وخامسة في الشرق وسادسة في داخل العاصمة . . .

فالسياسة لم تكن - حينها - مستقرة أبدا ، وأبسط دليل على عدم استقرارها هو ، أنه خلال نصف قرن - كما يبين التاريخ - يتسارع هلاك الحكام.فالحاكم لم يكن يبقى في الحكم مدة ثلاث سنوات أو أربع .

ثانياً : الأزمة الخلقية :

وتعني أزمة الخلق ، أن تلك القيم التي جاء بها الإسلام والرسالة الاسلامية ، للانسان ، كادت تزول ، ولم يبق منها إلا شيء بسيط ، فمن أبرز تلك القيم التي جاء بها الاسلام كانت قيمة « المساواة » ، مثل المساواة في الشؤون التالية :

١ - المساواة بين العرب والعجم .

٢ - المساواة بين الطبقات .

٣ - المساواة بين الحاكم والمحكوم .

فالذين يسمون بالموالي من المسلمين أو غير المسلمين ، الذين قبلوا بالحكم الاسلامي ، هؤلاء رأوا أن حياتهم تحولت إلى جحيم لا يطاق في العهد « الاسلامي » ، كما كانت سابقاً ، بينما كان المسلمون قد بشروهم بأنهم سوف يتمتعون بحياة سعيدة ومتساوية .

وهناك مظهر آخر من مظاهر الأزمة الخلقية ، وهو أن الصدق والأمانة ، والتعامل الصحيح مع الناس ، بل الاجتناب عن المحرمات والخمر والميسر

والفحشاء والمنكر ، كل ذلك كان شبه مفقود في المجتمع .

ثالثاً : الأزمة الفكرية :

هـذه الأزمة كـانت بـارزة في عهـد امـامـة زين العـابـدين (عليـه الصـلاة والسلام) . فقد كـانت الأمة لا تعـرف طريقهـا ، بينما احتكت بـالأمم الأخرى نتيجة توسع الفتوحات الاسلامية في كافة الاطراف والجبهات . وقد دخلت مـع المسلمين جماعات غريبة لهم ثقافاتهم واوضاعهم الفكرية الخاصة ، وكـانت الأمة بحاجة الى بوتقة تصهر هذه الافكار ومن ثم تميز الخبيث منها من الطيب .

وبالفعل فلقد كانت تأثيرات هذه الأزمة تنسج خيوطها على جسد الأمة . لذلك نرى ان جماعة قد اصبحوا زنادقة ، واخرى قـدرية أو مفـوضية ، وجمـاعة منهم اتبعوا نظرية المجوس ، ودخلت فيهم افكار المانويه والتنـائية (الاهـريمن ، والمـوردا) ، وبان هنـاك إلها للخـير والها للشر ، وانهما في حـالـة صـراع دائم . وطبقوا افكارهم على هذه النظرية . وآخـرون تـبـنوا افكـارا من اليونـان ، ومن الافـلاطونيـة ، وكيفوا الإسـلام عـلى تلك الافكـار . واذا بـالاسـلام تحـول الى عشرين اسلاماً ! والافكار الاسلامية تناقضت بشكل حاد ، والأمة الاسـلامية لا تعرف ماذا عليها ان تعمل ، وما هي واجباتها ؟

رابعاً : الأزمة الاجتماعية :

ان الأزمـة الاجتماعيـة هي حصيلة جميع الأزمـات ، وقـد نتجت بـالـذات بسبب تـوسع البـلاد الاسلاميـة بالفتـوحـات ، اذ مـع تـوسـع البلاد انتشـرت العائلات وتفرقت في البلاد المختلفة .

وهكذا فان تفكك الأسر ـ وهي الكيانات الاجتماعيـة الحصينة ـ قـد سبب للمسلمـين ذلك الفسـاد ، والإنحـلال الـذي عـانـوا منـه . وهـذه هي الأزمـة الاجتماعية

وهنـاك ازمة اقتصـادية حـادة . فـالبـلاد خـربت ، والخـراج قـلّ والعمـارة ذهبت . وكـل هذه الأزمـات كانت أمـام الامام زين العـابدين (عليـه الصـلاة والسلام) ، الذي يرىٰ نفسه المسؤول الأول في الأمة الإسلاميـة ، والذي يـريد ان يعالج هذه الأزمات جميعاً .

فمـاذا كانت خـطة الامام السجـاد (عليه الصـلاة والسـلام) لتغيـير ذلـك الوضع المتأزم ؟

لكي نعـرف دور الامام زين العـابدين (عليـه الصـلاة والسـلام) معـرفـة واضحة ، لا بد أن نعرف هدف الرسالة والرساليين ـ أساساً .

فبـالرغم من أن الحـركة الـرساليـة إصطبغت بالطابع السيـاسي في كثـير من الحقب ، حين كانت السياسة الوجه البارز لهذه الحركة .

وبما أن الهدف من رسالات الله هو بناء الإنسان سياسياً ، وخلقياً واجتماعياً ودينياً . وليس الهدف من رسالات الانبياء ـ التي هي رسالات الله ـ هو العمـل السيـاسي فقط ، ذلك لأن العمـل السياسي بـدوره مرتبط تمـام الإرتباط بسـائـر جوانب حياة الإنسان .

فالأئمة المعصومون (عليهم الصلاة والسـلام) كانت لهم رسـالة كبيـرة ، جزء منها تغيير انظمة الحكم ، ولكن الأجزاء الأخرىٰ لا تقل أهمية في بناء الأمـة الاسـلامية وحضـارتها . وكـان من جملة رسـالتهم زرع حب الحـريـة في نفـوس جماهير الأمة .

لذلك تحرك الإمام زين العابدين (عليه الصلاة والسـلام) ، من أجل بث روح الدين التي تحتوي فيما تـحـتـوي رفض الطواغيت والتهيئـة من أجل حكم الله ، والعمل من اجل انقاذ الإنسان من براثن الظلم والعبودية .

فلقـد كان الامـام (عليه الصـلاة والسلام) يشتـري ألفـاً من العبيد دفعة

واحدة ، ويقوم بتربيتهم خلال عام ، ثم يعتقهم ويتركهم في المجتمع ، ليطالبوا بالعدل والحرية ، ويضحوا من اجل ذلك . لقد كـان يربي ويغـذي جيل الثـورة الرسالية ليس الثورة السيـاسية فقط ، وانمـا الثورة عـلى جميع المستـويات وجميـع الأصعدة .

ودأب الامـام (عليـه الصـلاة والسـلام) في وضـع الحلول لتلك الأزمـات الخانقة ، فلقد عالج الأزمة الفكرية بتوجيهاته وأفكاره النورانية ، وخلق في الأمة أرضية فكرية متينة ، تجلت في احاديثه وادعيته المأثورة .

« فـالصحيفـة السجـاديـة » هي خلفيـات الفكـر الثـوري ، وكـانت الأمـة الاسلامية بحاجة الى خلفية ثورية متكاملة .

وكان الامام ذاته زبورا نـاطقاً ، وربمـا نستطيـع ان نقول انـه قام في حيـاته بتربية ١٥ ألف انسان ، وقدمهم للمجتمع وذلك بصـورة مباشـرة ، وهذا اكبـر عـدد من الناس يمكن لـرجل واحـد أن يعني بهم ويشرف عـلى تـربيتهم بشكـل مباشر !

وكذلك عـالج الامـام الناحيـة الاجتماعيـة بتعليماتـه ، ويمكن للقاريء أن يتعرف على تعليمات الامام في الناحية الاجتماعية بمراجعة (رسـالة الحقـوق) . ورسالة الحقوق ربما تكون بعض البنود فيها ، بديهية بالنسبة لنا ، لاننا في واقعنا الحاضر نعيش بعض القيم المتوارثة في المحبة والتوادد وصلة الرحم .

ولكن في زمن الامـام علي بن الحسـين (عليه الصـلاة والسـلام) ، كـانت رسالة الحقوق تعني تحدياً للازمة الاجتماعية التي كانت تطوق الأمة الاسلامية .

وأمـا الأزمة السيـاسية ، فـالإمام زين العـابدين (عليـه الصلاة والسـلام) عاش ، وغذى تلك الحركات الموجودة ، وكـانت في طليعتها حـركة سليمـان بن صرد الخزاعي أحد اصحاب النبي (صلى الله عليه وآلـه وسلم) ، وكان شيخـاً كبيراً في السن .

وكـان الإمام (عليـه الصلاة والسـلام) على رأس الهـرم التنظيمي ، يقـود الصفوة من الفقهاء ، والزهاد ، والعباد ، والمتكلمين ، والفلاسفة ، وإصحـاب العلوم المختلفة ، وأصحاب الفتوحات وقادة الجيش والسياسين.

فـالامام السجـاد (عليه الصـلاة والسلام) لم يشتـرك في الثـورة السيـاسيـة علانية ، ولم يكن من الصحيح ان يشترك فيها . فالثورة كانت تواجه احتمالات الفشل ، ومن ثم فان الامام وحركته وجميع الـرساليـين في العالم كـانوا سينتهـون بفشل الثورة العسكرية ولم يكن هذا العمل سليماً .

لذلك فالمختار ابن أبي عبيـدة الثقفي قام بثـورته دون ان يفشي السّر الـذي بينه وبين الامام .

فلولا كفـاح الامـام السجـاد (عليـه الصـلاة والسـلام) في وضـع الحلول للأزمات التي اجتاحت الأمة ، لُمسخ المسلمون أجمـع ، فقام الامـام ببث الروح وربى الفقهاء ، وانشأ الحركات ، وواجـه أحدوثـات الفلسفة الاجنبيـة ، وأبطل زندقة المفسدين ، وجعل راية التوحيد خفاقة ، إذ بث روح الجهاد للفاتحين التي كادت ان تنطفىء نتيجة للفساد الذي بدأ يطغى في الامة ويسري في عروقها .

٥

الامام محمد الباقر (عليه الصلاة والسلام)

١ ـ هو الامام محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب .

٢ ـ ولد عام ٥٧ هـ وكآبائه الكرام قام بقيادة الأمة الاسلامية قيامـاً مخلصاً بعد وفاة أبيه الامام علي بن الحسين عام ٩٤ هـ .

٣ ـ قـال الله عنه في حـديث قدسي : « شبيـه جده المحمـود محمد ، البـاقـر لعلمي والمعدن لحكمتي » وقال عنه الرسول الأعظم « انه يبقر العلم بقراً (يمزق

حجابه تمزيقاً) » .

٤ ـ تميزت فترة حياته بتوفر شيء من الحرية العامة نظراً لأن الحكم الأموي كان يعاني من حالة إحتضار شديدة بعد أن توالت ضدها الثورات التي فجرتها ثورة كربلاء المقدسة ، ولهذا فقد استطاع الامام الباقر أن يكشف عن مفاهيم الاسلام الصحيحة وينشر الفكر الشيعي .

٥ ـ على الصعيد التاريخي قام بما يلي :

أولاً ـ قام بتنشئة أكبر مجموعة من الفقهاء الذين استطاعوا أن يبعثوا من جديد حركة التشريع الاسلامي ، على أساس أن الاسلام منهاج ودستور .

ثانياً ـ أنقذ الدولة الإسلامية من الاستغلال الاقتصادي الذي كانت تمارسه الدولة الرومية ، نظراً لسيطرتها على العملات ، وسكّتها خلال فترة طويلة ، وذلك عندما أشرف بشخصه على حفر سكة جديدة وأعاد بذلك الحالة الاقتصادية في البلاد إلى استقلالها المنشود .

وأدى ذلك إلى تقريب الدواوين ، وتقليص النفوذ المسيحي الاستعماري من البلاد .

٦ ـ قتل عام ١١٤ هـ بفعل السم الذي دسه اليه أعداؤه . ودفن في البقيع .

٧ ـ خلّف تراثاً فكرياً ضخماً لم يجتمع في كتاب نظراً لكثافته وتوسعه .

٨ ـ من كلماته الحكيمة :

ـ إن ظُلمت فلا تظلم ، وإن خانوك فلا تخن ، وإن كذّبت فلا تغضب ، وإن مُدحت فلا تفرح وإن ذممت فلا تجزع . وفكر فيما قيل فيك فان عرفت نفسك في ما قيل فيك (أي إن كان ذلك صادقاً) فسقوطك من عين الله عز وجل

عنـد غضبك من الحق أعـظم عليك مصيبـة ممـا خفت من سقـوطـك من أعـين الناس ، وإن كنت على خلاف ذلك فثواب اكتسبته من غير أن يتعب بَدَنك !

ـ إياك والرجاء الكاذب ، فإنه يوقعك في الخوف الصادق . !

ـ لا شـرف كبعـد الهمـة ، ولا عـدل كـالانصـاف ، ولا مصيبـة كعـدم العقل . !

ـ صانع المنـافق بلسانـك ، وأخلص مودتـك للمؤمن وان جالسـك يهودي فأحسن مجالسته . !

ـ ما من عبد يمتنع من معونة أخيه المؤمن والسعي له في حاجته ، قضيت أو لم تقض ، إلا ابتـلي بالسعي في حـاجة فـلا يأثم عليـه ولا يؤجر . ومـا من عبد يبخل بنفقة ينفقها فيما يرضي الله إلا ابتلي بأن ينفق أضعافها فيما اسخط الله !

ـ الايمان حبٌ (لأصدقاء الله) وبغض (لأعداء الله) . !

ـ اياك والكسل والضجر فانهما مفتاح كل شر . !

نظرة تحليلية موجزة لحياة الإمام الباقر (عليه السلام)

مـاذا كان دور الإمـام محمد بن عـلي البـاقـر (عليـه الصـلاة والسـلام) في حياته ؟

للإجابة على هذا السؤال لا بد أن نبيّن أن أي اصلاح وتغيـير في المجتمع ، بحاجة الى ثلاثة أركان ـ لا اقل ـ وهي :

الركن الاول :
الخلفية الروحية (بعث الروح) .

الركن الثاني :

الخلفية الثقافية (اثارة العقل) .

الركن الثالث :

التفجير الثوري (تعبئة الطاقات) .

فلا يمكن ان تقوم الثـورة ، إلا بايجـاد روح الثورة في الأمـة ، ونعني بذلـك معرفة اهمية الاصلاح ، وضرورته ، وبعث الأمل في النفوس بامكانية النهوض ، وذلك عبر إعطاء التطلع والهمة العاليـة لتحقيقه ، وهـذا يسمى ببعث الروح في الامة .

لقـد كان دور الامـام زين العابـدين (عليه الصـلاة والسلام) في الحـركـة الرسالية ، هو بعث الروح الاصلاحية الثورية في المسلمين .

أما دور الامام الباقر (عليه الصلاة والسـلام) فكان إعـطاء فكرة متكـاملة عن الإصلاح الإجتماعي للأمة الاسلامية .

فالامام السجاد (عليه الصـلاة والسلام) قـام ببعث روح الجهاد بينـما نجد الإمام الباقر (عليه الصلاة والسلام) يـطرح الخلفية الفكـرية والثقـافية لتـأجيج هذه الروح .

لقد سمي الامام الباقر باقراً لأنه بقر العلم ، وقد روى عنه محمد بن مسلم (٣٠٠٠٠) حديث ، ويقول البعض الآخر (٩٠٠٠٠) حديث في شتى مجالات الحياة .

وباجماع المؤرخين كان الإمام محمد بن علي الباقـر (عليه الصـلاة والسلام) هو الذي طرح نظرية الإمامة الاسلامية وبشكل متكـامل لـلأمة ، بمعنىٰ انـه بيّن للامة الاسلامية كيف يجب ان تكون القيادة الإسـلامية ؟ وأجـاب عن علامـات الإستفهام التالية في أذهان الامة : من هو الامام ؟ ولماذا الحاجة الى الامام ؟ وما هي وظيفة ومسؤلية الامام ؟

انّ العلم الذي بقره الإمام بقرا ، هو ذلك العلم الذي يحتاج إليـه الانسان

وهو الذي من أجله بعث الانبياء وارسل الرسل .

ان ذلـك العلم هـو الـذي يبـين كيف يمكن لـلانسـان ان يصلح نفســه ، ومجتمعـه ، فلماذا لم يـأت الانبياء بعلم فتق الـذرة ، وصنع الصـاروخ ، وكيفية بعث مـركبة فضـائية الى المـريخ ، بـل شغلوا انفسهم باصـلاح الناس ، واثـارة المحرومين ضد الضالين ، واعطائهم طرق وكيفيات العمل والتحرك في مـواجهة المفسدين والمستكبرين في الأرض ؟

ان العلم الذي اهتم به الانبياء هو أهم حاجة للانسان ، والا فمـاذا يجدي الإنسـان أن يصنع مـركبة فضـائية ، ويـذهب الى أعالي السـماء ، ثم يصب من هناك القنابل الذرية والهيدورجينية على أهل الارض لتدمرهم !

فالأئمة المعصومين (عليهم الصلاة والسلام) والامام الباقر (عليه الصـلاة والسلام) بالذات اهتموا بهندسة الفكر الرسالي المسؤول للمجتمع ، والسبب في ذلك أن هنالـك افكار تبـريريـة انتشرت في عصر الإمـام الباقـر (عليه الصـلاة والسلام ، كأفكار المرجئة ، وهم الجماعـة الذين قـالوا : أن الافضـل لنا ان لا ندين الرجال ، بمعنىٰ ان لا نحدد موقفنا من الرجال السـابقين . ونـرجىء ذلك إلى يوم القيامة ، والله ـ سبحانه وتعالى ـ هو المسؤول فقط وكذلك برزت حركة القدرية التي بثها الحسن البصري ، والتي تقـول بأن معـاوية قـد جاء الى الحكم بأمر من الله (أي بالجبر) ونحن لا نستطيع ان نخالف أوامر الله !

ولم يقتصر الأمر على الجانب السياسي بل شمل كـل الأصعدة ، وخصـوصاً أن عهد الامام الباقر (عليه الصلاة والسـلام) قد شهـد افكاراً متنـاقضة ، لأن الأمة وصلت إلى نظريات متعددة ومتناقضة ، فأخذ كل إنسان يطرح نظريته .

ومن هنا تعددت النظريات الفقهيـة ، فكل واحـد من العلماء كان في عهـد الامـام الباقـر قد اختـرع مذهبـاً ، والمذاهب الاربعـة التي نجدهـا الآن وهي : المالكية ، والشافعية ، والحنبليـة ، والحنفية ، إنمـا نشأت في زمـان الإمام البـاقر

(عليه الصلاة والسلام) وكانت من بين عشرات المذاهب الأخرىٰ ، التي كانت قد انتشرت آنذاك . واصبحت الأمة تعيش بلبلة فكرية عجيبة ، انشغلت بعدها بأمور تافهة ، وأصبح اليأس يدب في نفوس أفرادها وفي ذلك الوقت كانت الأمة بحاجة الى رجل فقيه ، قد اخذ علمه من أصفى المنابع والذي هو الإمام الباقر (عليه الصلاة والسلام) .

فلقد كان الإمام الباقر (عليه الصلاة والسلام) ليس إماماً للشيعة فقط ، بل اتخذته السنة اماماً ، وتأثرت به كافة المذاهب السنية ، ربما اكثر مما تأثر به الشيعة .

فالمذهب الشيعي ربما تأثر بالإمام جعفر الصادق (عليه الصلاة والسلام) اكثر ، بينما كان من أهل البيت الامام الباقر(عليه الصلاة والسلام) هو الذي أعطى كافة الفئات الإسلامية الاخرى الفكر الرسالي المرتبط بكليات الرسالة وقضاياها الاساسية .

هنالك أعطى الإمام (عليه الصلاة والسلام) الخلفية الثقافية والفكرية للحركة الثورية الرسالية في الامة ، ولكنها كانت بحاجة إلى تركيز فجاء زيد بن علي ليقوم بتركيزها . لأن زيد بن علي وكل ـ أيضاً ـ بمهمة الاتصال بكافة الحركات الاسلامية ، كالمرجئة والخوارج والمعتزلة والشيعة ، واتفق معهم على قلب النظام الحاكم، مما جعل الفكر الرسالي قائداً لتيار المعارضة .

٦
الامام جعفر الصادق (عليه الصلاة والسلام)

١ ـ هو جعفر بن محمد الباقر (عليهما السلام).

٢ ـ ولد عام ٨٣ هـ وأصبح إماماً مفترض الطاعة من عام ١١٤ أي بعد وفاة والده الامام الباقر (عليه الصلاة والسلام) .

٣ ـ قال الله تعالى عنه في حديث قدسي : « سيهلك المرتابون في جعفر ، الراد عليه كالراد علي ، حق القول مني لأكرمن مثوى جعفر ولأسرّنه في اشياعه وانصاره وأوليائه »[1] .

٤ ـ عاصر انهيار الحكم الأموي ، وقيام الحكم العباسي ، وسمحت له ظروف تنقل السلطات من « القبائل الأموية » إلى القبائل العباسية ان يقوم بتحقيق مسؤلياته كإمام عينته السماء لقيادة الأرض ، ولتوفر جو الحرية استطاع ان ينجز أعمالاً ضخمة جداً فقد كشف عن وجه الاسلام الناصع بعد ان شوهه بنو أمية ، ونسف كل الأسس الفكرية التي قامت عليها فلسفات الاغريق والرومان ، والتي أدخلها بنو العباس إلى البلاد في محاولة لتركيز حكمهم الذي كان يحبو آنذاك على انقاض الحكم الأموي .

وكان لثورة الامام الحسين (عليه الصلاة والسلام) عام ٦٠ هـ التأثير الكبير في توفير حرية القول والعمل لحفيده الامام الصادق (عليه الصلاة والسلام) بحيث لو لم يكن لتلك الثورة أي تأثير آخر على مجرى الأحداث لكان تفجيرها ضرورياً جداً .

٥ ـ على الصعيد التاريخي قام بما يلي :

أولاً ـ قام بصياغة مجموعات من الرجال القياديين وكون منهم النواة الأساسية في « ثورة ثقافية » حقيقية فجرها الامام في وقت بات فيه الاسلام مجموعة خرافات أدخلها بنو أمية وبنو العباس إلى الأذهان . وأعادت هذه الثورة الاسلام إلى الحياة بعد جمود دام أكثر من نصف قرن . .

ثانياً ـ كوّن جامعة دينية في المدينة المنورة ، كان يحضرها أكثر من أربعة آلاف رجل من مختلف المذاهب . وكان بعض هؤلاء يقوم بسرقة أفكار الامام

---

(١) كلمة الله ص ١١٨ .

ويصوغها بعد تشويهها على أساس انها آرائه الخاصة .

ثالثاً ـ قام لأول مرة في التاريخ بوضع نظام للتخصص في العلوم حيث عيّن لكل علم رجلا من أصحابه .

رابعاً ـ تلمذ على يديه « ابو حنيفة » الذي قال مشيراً إلى الفترة التي كان يحضر فيها دروس الامام : « لولا السنتان لهلك النعمان » كما تلمذ على يده « إبن حنبل » وغيره من كبار الشخصيات غير الجعفرية .

خامساً ـ كشف عن بعض ما يعلمه آل البيت من العلوم لأبي حيان الكوفي ، تلميذه الوفي الذي يعتبره العالم بحق : أب الكيمياء الحديثة .

فقد كتب إبن حيان دروس الامام التي كان يتلقاها منه في الكيمياء من دون أن يسبقه الى ذلك أي انسان ، ولا تزال كتاباته الموجودة في بعض المكتبات تتصدرها عبارة : « حدثني سيدي ومولاي جعفر بن محمد الصادق (عليه الصلاة والسلام) » .

وجابر بن حيان هذا هو الذي قام ولأول مرة ، بصنع طائرة تشبه طائرة هليكوبتر للوزير العباسي يحيى البرمكي ، فكان يجلس فيها ويطير في السماء لساعات طويلة ، وأيضاً فانه هو الذي صنع جهازاً يشبه إلى حد بعيد ـ كما جاء في أوصافه ـ جهاز التلفون ، كما صنع حاجبا اوتوماتيكيا كان يقتل من يقترب اليه لو لم يلاحظ تعليمات خاصة . وهو صاحب العبارة الشهيرة : « في الأرض عناصر كثيرة ، ولكنني لا أملك الوسائل الكفيلة باخراجها » .

٦ ـ قتل الامام (عليه الصلاة والسلام) بفعل السم عام ١٤٨ هـ ودفن في البقيع .

٧ ـ خلف عشرات الألوف من الأحاديث التي تكشف عن أحكام الله تعالى في قضايا الحياة والانسان ، وهي لم تجمع بعد في كتاب خاص ، وان كانت

بعض خطبه قد جمعت في كتاب بعنوان « بلاغة الامام الصادق » ولكن الأكثرية لا تزال مبعثرة في مختلف كتب الفكر والحديث .

٨ ـ من كلماته الحكيمة :

ـ ليست البلاغة بحدة اللسان ولا بكثرة الهذيان ، ولكنها اصابة المعنى وقصد الحجة . ؟

ـ طوبى لمن جعل بصره في قلبه ، ولم يجعل بصره في عينه . !

ـ اياكم والنظرة (النظر إلى المرأة الأجنبية) فإنها تزرع في القلب الشهوة ، وكفى بها لصاحبها فتنة . !

ـ احذر من الناس ثلاثة : الخائن ، والظلوم ، والنمام ، لأن من خان لك (خان الغير من أجلك) خانك ، ومن ظلم لك سيظلمك ، ومن نمّ اليك ، سينّم عليك . !

ـ ثلاثة يستدل بها على اصابة الرأي : حسن اللقاء ، وحسن الاستماع ، وحسن الجواب .

ـ الصدق عز ، والجهل ذل ، والفهم مجد ، وحسن الخلق مجلبة للمودة . !

ـ ان الله أنعم على قوم بالمواهب فلم يشكروه فصارت عليهم وبالاً . وابتلى قوماً بالمصائب فصبروا فكانت عليهم نعمة .

ـ تصافحوا ، فانها تذهب بالسخيمة (الحقد) .

من ملك نفسه اذا غضب ، وإذا رهب ، وإذا رغب ، وإذا اشتهى حرّم الله جسده على النار .

ـ من أوثقِ عرى الايمان ان تحب في الله وتبغض في الله ، وتعطي في الله وتمنع في الله .

ـ من ساء خلقه عذّب نفسه .

ـ عالمٌ أفضل من الف عابد والف زاهد ، والف مجتهد .

ـ احبّ اخواني اليّ من أهدى اليّ عيوبي .

ـ مجاملة الناس ثلث العقل .

نظرة تحليلية موجزة لحياة الإمام الصادق (عليه السلام)

لقد عاصر الامام الصادق (عليه الصلاة والسلام) نهاية الحكم الأموي وبداية الحكم العباسي . فيطرح حوله السؤال التالي :

ماذا فعل الإمام الصادق (عليه الصلاة والسلام) في حياته ؟

وماذا قدم ؟

إن من المؤسف جداً أن يتصور جمع غفير من ابناء الأمة ان الأئمة (عليهم الصلاة والسلام) اتجهوا بعد الامام الحسين (عليه الصلاة والسلام) اتجاهاً غير سياسي ، فلم يتدخل واحد منهم في السياسة بعد الامام الحسين (عليه الصلاة والسلام) .

ولكن من خلال العودة الى التاريخ يتضح لنا : ان الأئمة (عليهم الصلاة والسلام) ابتداءا من الامام زين العابدين (عليه الصلاة والسلام) وانتهاءاً بالامام الحجة (عجل الله فرجه) قد دخلوا في كل مجالات ونواحي السياسة . فحركة الرساليين آنئذ في عهد الامام زين العابدين (عليه الصلاة والسلام) كانت حركة معارضة وحتى في عهد الامام الصادق وصلت الى درجة سيطرة علىٰ قطاعات واسعة من البلاد الاسلامية وظلت هكذا حتىٰ عهد باقي الأئمة (عليهم الصلاة والسلام) .

فالأئمة (عليهم الصلاة والسلام) وابتداءاً من الامام الصادق (عليه

الصلاة والسلام) كانوا يحكمون اجزاء من الدولة الاسلامية ، ولقد كانت سيطرتهم على هذه الاجزاء عن طريق ولاتها ، الذين كانوا من انصارهم ، وعلى سبيل المثال كان والي الاهواز منهم ، وكان يجاهر نوعاً ما بالتشيع ويدعو الى الامام الصادق (عليه الصلاة والسلام) ويطيع أوامر الامام الذي يبعث اليه برسالة تختص بالتنظيم الاداري مرة وبالقضاء مرة اخرى . وهكذا

وكما ان الامام علي (عليه الصلاة والسلام) كان يكتب تنظيماً ادارياً لواليه مالك الاشتر (رضي الله عنه) على مصر ، فقد كان الامام الصادق (عليه الصلاة والسلام) - أيضاً - يكتب تنظيماً ادارياً لوالي العباسيين على الاهواز ، فبالرغم من ان القضية كانت صعبة ومعقدةإلا أن العباسيين لم يستطيعوا ان يحكموا لوحدهم ، ومن الطبيعي فإن الرساليين لا يتركون هكذاشؤون .

فالرساليون خلال ايام الامام الصادق (عليه الصلاة والسلام) وما بعده من الأئمة (عليهم الصلاة والسلام) كانوا قد حكموا البلاد عن طريق التسلل أو غيره ، وخذ لذلك مثلاً بني الاشعث والفضل بن يحيىٰ وخالد والفضل بن سهل ، ويعقوب بن داوود ومن قبل ابي سلمة والربيع وابنه الفضل بن الربيع ، وبعده علي بن يقطين واولاده وسليمان بن جعفر ، وهؤلاء كلهم كانوا بمثابة وزراء ، كما كانوا ولاة في الامصار كزياد بن عبد الله عامل المنصور على المدينة مثلاً ، وحتىٰ من قواد الجيش كطاهر بن الحسين الخزاعي القائد العسكري للمأمون الذي فتح له بغداد ، وهزم جيش اخيه الأمين .

اذن ان استمرار الموالون للأئمة الى عهد الامام الحجة (عجل الله فرجه) لهو خير دليل على ان الأئمة كانوا يتدخلون في السياسة بصورة كاملة .

ولكن بما ان اعمال الأئمة (عليهم الصلاة والسلام) كانت على الاكثر اعمالاً تتسم بطابع التقية ، أي السرية والكتمان فانها لم تكن تظهر إلا متأخرا . وحتى حينذاك لم يكن للموالين ان يظهروا كافة الخطط التي كان يرسمها الأئمة

المعصومون (عليهم الصلاة والسلام) .

كل ذلك لسبب بسيط وهو انه لـو عرف النـظام الحاكم طـريقة قيـام الأئمة المعصومين في توجيه الامة لقام بتـدبير المؤامـرات المضادة وعـرقل اعمـالهم . فلو عرف المنصور الدوانيقي طريقـة قيام الامـام الصادق (عليـه الصلاة والسـلام) بادارة المجتمع وتوجيهه وقيادته ، وحتىٰ إذا كانت هذه المعـرفة بعـد حياة الامـام الصادق (عليه الصلاة والسلام) فان باستـطاعة المنصـور الدوانيقي ان يستفيـد من هذه المعرفة في ضرب الامام الكاظم (عليه الصلاة والسـلام) وريث الامام الصادق (عليه الصلاة والسلام) ولو عرف هارون الرشيد طريقة الامام الكاظم (عليه الصلاة والسلام) بعد حياته لاستـطاع هو أو المـأمون العبـاسي الاستفادة من تلك المعرفة في ضرب الامام الرضا (عليه الصلاة والسـلام) . لذلـك نجد في الكثير من الاحاديث الواردة عن الأئمة الاطهار تأكيداً على ما معناه :

« كتمان امرنا جهاد » .

إذ لـيـس مـن الصــدفـة ـ . أيضـاً ـ ان يبرز ابن الامـام الصـادق (عليـه الصلاة والسلام) مرة واحدة ويقود بنفسه اكبر حركة ضد الحكم العباسي ويفجر اكبر ثورة مسلحة في تاريخ الدولة الاسلامية كلها وهـو اسماعيـل . والفضل في ذلك يعود كله الى تربية الامام الصادق (عليه الصلاة والسلام) وتوجيهه ودعمه ورقابته على مجريات الامور في الأمة الاسلامية .

ان التأريخ يحدثنا بان اسماعيل كان تـاجراً ولكنـه تحول ـ مـرة واحدة ـ الى قائد حركة كبيرة في التاريخ ، وكانت هذه ثاني حـركة استـطاعت ان تتغلب على اكبر دولة في العالم آنذاك ، وهي الدولة العباسية . فالقضية لم تكن عمليـة تجارة وانما كانت التجارة تغطية لاعمال اخرى اكبر منها ، . ومن حيث المجموع نعرف بان الأئمة المعصومين (عليهم الصلاة والسلام) كانوا يحركون الخيـوط العديـدة في الساحة الاسلامية .

فالامام الصادق (عليه الصلاة والسلام) كان يدرس بطريقة مباشرة أربعة آلاف انسان ، واستطاع ان يكّون منهم جامعة تحتوي على عدة كليات وفروع في الفقه والاصول والتاريخ والفلسفة ومختلف المعارف الاسلامية .

لا شك من اننا اخذنا الفقه من جعفر بن محمد الصادق(عليه الصلاة والسلام) ولكن اصول الفكر اخذناها من الامام الباقر (عليه الصلاة والسلام) والعبادة والتقوىٰ والروح الدينية من الامام السجاد (عليه الصلاة والسلام) ، والثورة من الامام الحسين (عليه الصلاة والسلام) ، والصلح والسلم والتضحية من الامام الحسن (عليه الصلاة والسلام) والقضاء والشجاعة والرسالية من الامام علي بن أبي طالب (عليه الصلاة والسلام) .

فالحركة الرسالية ليست مرتبطة بشخص جعفر بن محمد (عليه الصلاة والسلام) ، انما لأننا حصرناها في نطاق ضيق وهو الفقه الذي كان بثه من وظيفة الامام الصادق ، نظراً لأن الظروف السياسية والاجتماعية كانت مناسبة لنشره ، لذلك نسبنا المذهب الى الامام الصادق (عليه الصلاة والسلام) .

ولكن لا يعني ذلك ، ان الامام سكت عن التغيير السياسي والاصلاح الاجتماعي ابداً ، أليس هو الذي قد كتب كتاباً لوالي المنصور على الاهواز يبّين له كيفية القضاء والادارة وطرقها واساليبها ؟ وألم يكتب كتاباً في الحقوق الاجتماعية ، يشبه كتاب الامام زين العابدين (عليه الصلاة والسلام) في الوصايا المطولة ؟ وألم يرب رجلا في الكيمياء حتىٰ اعترف ذلك الكاتب الغربي بان الامام الصادق (عليه الصلاة والسلام) هو ملهم الكيمياء . والم يكتب جابر بن حيان (٤٠٠٠ كتاب) حول الرياضيات والكيمياء ، انتشر على اثرها هذا العلم .

هذا هو الإمام الصادق (عليه الصلاة والسلام) هل تراه يسكت عما يجري حوله في حين كانت الدولة الاسلامية تعيش العديد من المخاضات الاجتماعية

والسياسية والاقتصادية والفكرية ؟

بالطبع كلا . لقد كانت وظيفته الاساسية هي التوجيه ولكن الخطط السياسية وطرقها وأساليبها ، التي بينها الامام لا تظهر لنا بجلاء . إلا من خلال بعض القضايا التي لا نعرفها كل المعرفة .

٧

الامام موسى بن جعفر (عليه الصلاة والسلام)

١ ـ هو الامام موسى بن جعفر الكاظم (عليه الصلاة والسلام) .

٢ ـ ولد عام ١٢٨ هـ .

٣ ـ كانت ظروف الحياة الاجتماعية تفرض عليه المعارضة وقسوة الظروف والتسلط العباسي فرضا عليه انتهاج أسلوب بالغ المرونة والدقة .

٤ ـ كوّن مجموعة من الفقهاء ، والعلماء أمثال « علي بن يقطين » وهدى عن طريقهم الكثير الكثير من الناس .

٥ ـ له مجادلات سياسية صريحة مع هارون الرشيد ، طاغية بني العباس ، وبسببها دخل السجن لأكثر من ٢٧ عاماً ، وكان بعض السجون التي دخلها لا يميز الانسان فيها الليل عن النهار .

٦ ـ له وصايا تعتبر من أجمل ما عرفه الانسان من وصايا وأشهرها وصيته الطويلة لهشام بن الحكم أحد تلاميذه[١] ، منها قوله : يا هشام . !

« لكل شيء دليل ، ودليل العاقل التفكير ، ولكل شيء مطية ، ومطية العاقل التواضع ، وكفى بك جهلاً أن تركب ما نهيت عنه » .

---

(١) راجع كتاب « تحف العقول . عن آل الرسول » ص ٤٠٤ ـ ٤٢٤ .

يا هشام . !

«لو كان في يدك جوزة وقال الناس : في يدك لؤلؤة ، ما كان ينفعك وأنت تعلم أنها جوزة ، ولو كان في يدك لؤلؤة وقال الناس : انها جوزة ، ما ضرَّك وأنت تعلم أنها لؤلؤة» .

يا هشام . !

«إن لله على الناس حجّتين، حجة ظاهرة ، وحجة باطنة ، فأما الظاهرة فالرسل والأنبياء ، وأما الباطنة فالعقول» .

يا هشام . !

«إن العاقل رضي بالدون من الدنيا مع الحكمة ، ولم يرض بالدوّن من الحكمة مع الدنيا ، فلذلك ربحت تجارتهم . . » .

يا هشام . !

«ان العاقل لا يحدّث من يخاف تكذيبه ، ولا يسأل (شيئاً) (من) من يخاف منعه ، ولا يعد ما لا يقدر عليه ، ولا يرجو ما يعنَّف برجائه ، ولا يتقدم على ما يخاف العجز عنه» .

يا هشام . !

«رحم الله من استحيا من الله حق الحياء فحفظ الرأس وما حوى ، (حفظ العين واللسان والأذن عن تعدي حدود الله) والبطن وما وعى (حفظ البطن عن امتلائه بالحرام) وذكر الموت والبلى ، وعلم أن الجنة محفوفة بالمكاره والنار محفوفة بالشهوات . ! » .

٧ ـ قتله سندي بن شاهك ، بأمر من هارون الرشيد سنة ١٨٣ هـ ودفن في بغداد ، في المنطقة التي تسمى الآن بالكاظمية .

٨ ـ خلّف تراثاً فكرياً ضخماً ، في جميع المجالات الفكرية .

٩ ـ من كلماته الحكيمة :

ـ الغضب مفتاح الشر . واكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً . !

ـ إصبر على طاعة الله ، وإصبر عن معاصي الله (إصبر على ترك المعصية) فانما الدنيا ساعة ، فما مضى منها فليس تجد له سروراً ولا حزناً ، وما لم يأت منها فليس تعرفه ، فاصبر على تلك الساعة التي أنت فيها فكأنك قد اغتبطت . !

ـ شر عباد الله من تكره مجالسته لفحشه ، وهل يُكبُّ الناسَ في النار إلا حصائد ألسنتهم ؟

ـ من حسن اسلام المرء ترك ما لا يعنيه . !

ـ اداء الأمانة والصدق يجلبان الرزق . !

ـ المؤمن مثل كفتي الميزان كلما زيد في إيمانه زيد في بلائه . !

ـ إياك أن تمنع في طاعة الله ، فتنفق مثليه في معصية الله . !

ـ عونك للضعيف من أفضل الصدقة . !

ـ تعجب الجاهل من العاقل أكثر من تعجب العاقل من الجاهل . !

ـ من أحزن والديه فقد عقّهما .

ـ ان الزرع ينبت في السهل ولا ينبت في الصفّا ، فكذلك الحكمة تعمر في قلب المتواضع ولا تعمر في قلب المتكبر الجبار . !

ـ من تواضع لله ، رفعه . !

ـ ليس منا من لم يحاسب نفسه في كل يوم ، فان عمل حسناً إستزاد منه . وإن عمل سيئاً استغفر الله ، وتاب اليه . !

نظرة تحليلية موجزة لحياة الإمام الكاظم (عليه السلام)

لقد تميزت ظروف بعض الأئمة بأنها كانت اقرب الى التغيير السياسي في الامة ، من بينهم الامام الحسين (عليه الصلاة والسلام) .

وكذلك الامام موسى بن جعفر (عليه الصلاة والسلام) . فقد قام الامام بتدبير خطة للتغيير السياسي في الامة . ابتداءاً من اخفاء الامام الصادق لامامته ، وانتهاءاً بوفاته ، ومرورا بكل الاحداث التي جرت في ايامه .

ولقد كانت الحركة الرسالية أبان عهده ، بمثابة دولة بزعامته (عليه الصلاة والسلام) . وهذه الحركة (الدولة) داخل الدولة الرسمية الظاهرية ، وقد كانت الحركة في اقوىٰ درجات السرية والتنظيم . فلم يمر الرساليون في اوقات وظروف تقية شديدة كهذه إلا في ايام معاوية بعد مقتل الحسن (عليه الصلاة والسلام) وانتقال السلطات الظاهرية الى معاوية .

ولشدة الوضع الأمني الخانق ، كان يتعذر على الرساليين ان يذكروا اسم الامام الكاظم (عليه الصلاة والسلام) فكانوا يلقبونه بالاسماء التالية : « العبد الصالح » و « العالم » و « الصابر » و « الأمين » و « الزاهد » و « أبو ابراهيم » و « الرجل » و « الراجل » و « الماضي » .

الوضع الذي عايشه الامام (عليه الصلاة والسلام) :

إن الوضع الذي عايشه الإمام في أيام الرشيد كان وضعاً متميزاً بزيادة الموارد المالية ، وكان متميزاً أيضاً بتكدس الثروات الطائلة في أيدي معدودة جداً من جماعة الرشيد وأصحابهم البرامكة والمنتفعين بالنظام العباسي .

وكانت الطبقة الحاكمة هي طبقة البيت العباسي بفروعه المنتشرة . وطبقة العسكريين الكبار والدهاقنة العلوج ، الذين هم من الموالي ، أي من الطوائف

المختلفة ، من القوميات العربية التي اعتنقت الاسلام وتمتعت بعدالة الاسـلام . إلا ان رؤساء تلك الطوائف بقوا على وضعهم السابق واخذوا يستثمرون طاقـات وجهـود الفلاحـين والتجار ، واصحـاب المهن والحـرف الصغيـرة ، ويتعـاونـون ويتـآمرون مـع الطبقـة الكبيرة ، التي هي طبقـة كبـار التجـار والمـلاكـين وكبـار العسكريين وعلى رأسهم وفي طليعتهم الخلفاء العباسيين .

هؤلاء جميعـاً كـانـوا يتعـاونـون في سبيـل امتصـاص واستعبـاد الـطبقـات المحرومة ، بينما اكثر المسلمين كانوا يعيشون في حالة الحرمان .

في مثل هذا الوضع المتردي انتهج الامام خطته العملية حيث كانت :

أولاً : تنمية الوعي السياسي والديني في الجماهير المحرومة ، من الفـلاحين والموالي والتجار الصغـار وفيمن يصلح من عناصر النـظام وليس اقطابـه ومن ثم تـربية مجمـوعة من القـادة الذين لا يبيعـون انفسهم لملذات الـدنيـا ومغـريـاتهـا الزائلة .

ثـانياً : بعث الـروح الاسلاميـة في الأمة ، وفي ابنـائها المحـرومين ، وكـان الخلفاء يريدون تطميع الناس وارشائهم وشراء ضمائرهم ، وتكوين مجموعة من المتزلفين والمرتزقـة حولهم ليحـاربوا الأئمـة (عليهم الصلاة والسـلام) اصحاب الحق الشرعي .

لقد كان الامام موسى بن جعفر (عليه الصلاة والسلام) شخصيـة رساليـة مؤمنة باهداف الله ، وكان لديه فكر وتخطيط وبـرنامـج معين يـريد ان يـطبقه في الأمة لينصر المظلومين ، وهذه كانت قمة الصعـوبة في عمليـة التحويـل التي كان الأئمة (عليهم الصلاة والسلام) ينشدونها .

انه كان تحويلاً حقيقياً ، ولم يكن مجرد تـرديد شعـارات أو مجرد بيـان الفاظ يتلاعب بها .

وهكـذا اصبح الامـام (عليه الصـلاة والسلام) يمتلك سلطة روحيـة عـلى

جميع المسلمين .

لذلك خشي هارون الرشيد ، وهنا قام شخصياً بالذهاب الى الحج وجهّز نفسه ، واخذ معه الجيوش وطمّع الناس ، واعطاهم الاموال واعتقل الامام موسى بن جعفر ، وطلب تجهيز محملين ، محمل يذهب على طريق الكوفة ، ومحمل يذهب على طريق البصرة ، لكي يعمي على أي أحد يريد تخليص الامام ، وكان قد جهز المحملين ليلاً وراء الستر ضمانا لعدم هياج الناس وثورتهم .

٨

الامام علي بن موسى الرّضا (عليه الصلاة والسلام)

١ ـ هو الامام علي بن موسى بن جعفر (عليه الصلاة والسلام) .

٢ ـ ولد عام ١٥٣ هـ .

٣ ـ كآبائه الطاهرين : أمضى حياته في الإمامة وحفظ الشريعة ، كقدوة حسنة لملايين المسلمين، فحياته كلّها نضال من أجل الله، وتضحية في سبيله .

٤ ـ عيّنه المأمون العبّاسي ولياً للعهد، في محاولة منه لكسب النفوذ، والشخصية في ظلال الامام ، وبعد اجبار قسري قبل الامام ولاية العهد ، وضربت باسمه العملات وأعطي بعض الحرية في التدريس والتبليغ .

٥ ـ كشف عن مفاهيم الاسلام ، ومبادئه في عدة رسائل كتبها بناءاً على طلب جماعة منهم المأمون العباسي نفسه(١) .

٦ ـ له محاججات فكرية رائعة مع كثير من العلماء .

٧ ـ توفي عام ٢٠٣ هـ ودفن بمدينة مشهد في مقاطعة خراسان .

٨ ـ من كلماته الحكيمة :

ـ صاحب النعمة يجب أن يوسع على عياله .

---

(١) للإطلاع الشامل على هذه الرسائل راجع : « تحف العقول » ص ٤٣٧ .

ـ ليست العبادة كثرة الصلاة والصيام ، وإنما العبادة كثرة التفكر في أمر الله . !

ـ الأخ الأكبر بمنزلة الأب . !

ـ التودد إلى الناس نصف العقل . !

ـ صديق كل إمرء عقله ، وعدوه جهله . !

ـ خيار العباد : الذين إذا أحسنوا استبشروا ، وإذا أساؤوا إستغفروا ، وإذا أعطوا شكروا ، وإذا إبتلوا صبروا ، وإذا غضبوا عفوا . !

ـ لا يكون المؤمن مؤمناً حتى تكون فيه ثلاث خصال : سنّةٌ من ربه وسنةٌ من نبيّه ، وسنةٌ من وليّه :

فأما السنَّة من ربه فكتمان السر .

وأما السنَّة من نبيِّه فمداراة الناس .

وأما السنَّة من وليِّه فالصبر في البأساء والضَراء .

ـ حد التوكل (على الله) أن لا تخاف أحداً إلا الله . !

ـ لا يستكمل عبد حقيقة الايمان حتى تكون فيه خصال ثلاث :

١ ـ التفقه في الدين .

٢ ـ وحسن التقدير .

٣ ـ والصبر على الرزايا . !

ـ ان الذي يطلب من فضل (مال) يكف به عياله أعظم أجراً من المجاهد في سبيل الله . !

نظرة تحليلية موجزة لحياة الإمام الرضا (عليه السلام)

حينما قتل الامام الحسين (عليه الصلاة والسلام) تحولت الحركة الرسالية الى حركة جماهيرية تلتزم بها أوسع الجماهير ، وبعد ئذٍ والىٰ آخر حياة الامام موسى بن جعفر (عليه الصلاة والسلام) كان الخط الرسالي ينمو ويترعرع ، يغذيه ويوجهه جهاد الأئمة المعصومين والصفوة من الرساليين في الأمة ، الامام علي بن الحسين (عليه الصلاة والسلام) والامام موسى بن جعفر (عليه الصلاة والسلام) .

وفي عهد الامام الرضا (عليه الصلاة والسلام) كانت الحركة الرسالية في عنفوان شبابها .

وهذا يعني ان الحركة الرسالية مرّت بمراحل ثلاث :

المرحلة الاولى : ما قبل استشهاد الامام الحسين (عليه الصلاة والسلام) .

المرحلة الثانية : تنتهي بوفاة الامام موسى بن جعفر مسجوناً في بغداد .

المرحلة الثالثة : تبدأ بعهد الامام الرضا (عليه الصلاة والسلام) .

ولقد كان عصر الامام الرضا (عليه الصلاة والسلام) يختلف عن عصر والده الذي قضى عمره الشريف في السجون . بل كان عصره مختلفاً حيث كانت الحياة تتمتع بنوع من الانفراج والحرية ، وكذ لك كانت حياة أبنائه الامام الجواد (عليه الصلاة والسلام) والامام علي بن محمد الهادي ، والإمام الحسن العسكري (عليهم الصلاة والسلام).

لقد أضحىٰ الامام علي بن موسى الرضا (عليه الصلاة والسلام) هو القائد الفعلي للامة فالامة الاسلامية المنتشرة من المغرب العربي وفرنسا والى أرمينيا

شـرقاً ، كـانت تخضع لـلامام (عليـه الصـلاة والسـلام) وتعتقـد بـانـه الامـام الحقيقي .

وربما أراد المأمون العباسي ان يجعل الامام يشارك معه في حكم إئتلافي وكان ذلـك نتيجة جهـاد الأئمـة المعصـومـين (عليهم الصـلاة والسـلام) وحـركتهم ومنهجهم الذي نشروه في الافاق ، وكانت الاجيال وراء تكامل الحركة بالاضـافة الى تضحية الحركـات المسلمة التي انتشـرت في البلاد ، وأصبحـوا أقويـاء ، نفوسهم مستعدّة للتضحية .

وقد يتسائل المرء كيف ولدت المرحلة الجديدة في عهد الامام الـرضا (عليـه الصلاة والسلام) ؟

والجواب : ان ذلك جاء نتيجة عوامل عديدة

أولاً : قوة المعارضة .

فـالمعارضـة بدأت تشتـد وتأخـذ مواقـع القوة في مـواجهتهـا مـع السلطة ، فبمطالعتنا ملف الأحداث نقرأ عن ثورة أبي السرايا ، والذي كـان يقودهـا محمد بن ابراهيم ابن اسماعيل ابن طباطبا بن ابراهيم بن الحسن بن الامام الحسن بن عـلي (عليه الصـلاة والسلام) والتي كـانت في سنـة ١٩٩ هـ حيث امتـد نفـوذ سلطتها على الكوفة وواسط والبصرة والاهواز والحجاز واليمن .

وكـان الوضـع هكذا في المعـارضة ذات الشكـل العسكـري العلني اما عن أشكالها الاخـرىٰ : ففي الجهاز الاداري ، كـان الفضل بن سهـل وزير المـأمون الملقب بذي الرياستين ، والفضـل بن الربيـع الوزيـر الاخير لهـارون ، ومن ثم لابنه محمد الامـين ، وأبوه الصلت الهـروي والذي كـان بمثابـة مستشار المـأمون ومثله الـريان بن الصلت ـ ايضـاً ـ كانـوا يشكلون دعائم معـارضة قـوية ولكنهـا خفيةضدّ السلطات ولصالح أئمة أهل البيت (عليهم الصلاة والسلام) .

أما في الجهاز العسكري : فالقائدان المشهوران هرثمة بن اعين ، وطاهر بن الحسين الخزاعي وغيرهما ، كانا يعتقدان بالتشيع وربما كان طاهر بن الحسين اكثر ولاءاً لعقيدته الا انهما كانا يرتأيان اسلوب الضغط السياسي البطيء على السلطة لكي تتحول الى مسارها الشرعي بقيادة الأئمة المعصومين (عليهم الصلاة والسلام) .

والشكل الآخر والاهم هو : شخصية الامام علي بن موسى الرضا (عليه الصلاة والسلام) والتي كانت الجماهير تندفع بقلوبها اليه . بالاضافة الى مكانته العلميةوالذي ظل منهلاً دائماً للامة ، وحجة في وجه التيارات الفكرية الناشئة حديثاً على أيدي اليهود والنصارىٰ والمجوس والصابئين والبراهمة والملحدين والدهريين وغيرهم من انواع الزنادقة ، ويشهد التاريخ بما كان للامام الرضا (عليه الصلاة والسلام) من ادوار في ردّ اباطيل وخداع هذه الفسلفات والعقائد المزيفة . حتى انه اشتهر ان من يحاجج تلامذة الامام فلا بد ان ينخسيء راجعاً عن قوله ، ولم تكن البدع التي ظهرت في زمان الامام (عليه الصلاة والسلام) بالهينة فنرىٰ ان رجلاً يدعي النبوة وآخر يدعي انه ابراهيم الخليل وعلى هذا المعدل ، وكل ذلك كان يجد التشجيع من النظام العفن ، حيث كان يشق في أرض الجماهير الواسعة روافده الملوثة .

ثانياً : والعامل الثاني لظهور المرحلة الثالثة هذه وتطورها وعلى الخصوص الجانب السياسي منها هو : استمرار تهالك السلطة امام المعارضة مع ضرب النظام نفسه من الداخل .

ثالثاً : المظالم الكثيرة ، فقد رأينا ثورة اهل خراسان على والي الرشيد « ابن ماهان » فقد بات من الطبيعي ان تسمع بين حين وآخر قيام هذه المنطقة أو تلك على واليهم . كما وشاعت حالات التكفف والاستجداء وعمليات الارهاب التي يفرضها العسكر .

رابعاً : ضعف السلطة المركزية لتآكل بعض اجزائها فاصبح الحكم العباسي يولي جل اعتماده على العسكر والذي كانت له ضريبته المالية والنفسية .

ونستطيع وصف السلطة العباسية بانها كانت في مقر الخلافة أما في الامصار فقد كان الولاة ، تحت سلطة العسكر حيث كان الذي يحافظ على الاتصال بين عاصمة الحكم وبين الولاة هو الجيش لا غير . وكان كل والي ليس له مركز شرطة لا يقوىٰ على الوقوف امام نهوض شعبي اذا ما قام .

خامساً : تفشي الصفات، السيئة والانحطاطية في النظام ، والذي بدوره يشيعها في الناس ، كالرشوة والغدر وبيع الضمائر وغير ذلك من امثال هذه الصفات .

سادساً : وجود الدويلات المستقلة عن السلطة العباسية كالادارسة والاغالبة ، ووجود هذه الدول يجعل هنالك حداً للاستبداد والافساد المستشري في الدولة العباسية .

فالضغط الجماهيري كان قوياً ، وكان يطالب بالخلاص من القيادة الفاسدة الحاكمة على مجتمع المسلمين ، واعادة الخلافة الى مجراها الشرعي المتمثل في الامام الرضا (عليه الصلاة والسلام) .

ولكن السؤال البارز يقول : لماذا جاء المأمون العباسي بالامام الرضا من المدينة المنورة الى خراسان وأراد ان يعطيه الخلافة فلم يقبل ، ففرض عليه ولاية العهد ؟ ولماذا قبل الامام الرضا بذلك . . اليس ذلك يعني تطبيق خطة المأمون ؟

ولمعرفة الجواب على هذه الأسئلة ، لا بد ان نعرف اهداف المأمون من العملية ، وخطة الامام تجاهها .

أولاً : أهداف المأمون :

ان المأمون العباسي كان يريد ان يقول للناس ان قائد المعارضة وامام الحركة الرسالية يقبل بولاية العهد ، ومعنىٰ ذلك انه يريد السلطة ، ولكن يده لا تساعده على ذلك .

ثانياً : خطة الامام (عليه الصلاة والسلام) :

ان منطق الاحداث كان يفرض على الامام علي بن موسىٰ (عليه الصلاة والسلام) ان يقبل ولاية العهد لعدة أسباب :

السبب الاول : اذا لم يكن الامام يقبل بولاية العهد لكانت الامة الاسلامية تقول بان الأئمة (عليهم الصلاة والسلام) ما كانوا يريدون السلطة ان تكون في اعلى وازهد واعرف الناس واحسنهم وافضلهم . لأن هذا هو امام المسلمين الشرعي الامام الرضا (عليه الصلاة والسلام) ، لم يقبل السلطة إذاً فالدين شيء والدولة شيء آخر ، والاسلام لا يقبل بدمج الدين مع الدولة .

فالامام أراد نسف هذه الفكرة عملياً ، وسد الطريق امام من يريدون نشرها واشاعتها ، وذلك بقبول الولاية .

السبب الثاني : ان طريقة الامام الرضا (عليه الصلاة والسلام) وطريقة الأئمة وحركتهم لم تكن قائمة على إجبار الناس على رأي معين .

فلذلك كان الأئمة (عليهم الصلاة والسلام) يستفيدون من كافة الاوضاع حتى من الحكم ، ولاجل هذه الغاية ، فحينما عرض عليهم ان يكونوا داخل الحكم ، ويستفيدون من الحرية ، وينشرون مذهبهم وافكارهم الرسالية في الامة دون ان يعطوا امتيازات للحكم ، ودون ان يعلنوا تأييدهم له كانوا يقبلون ذلك .

السبب الثالث : وهو ان الامام الرضا (عليه الصلاة والسلام) كان يريد اسقاط ادلة المأمون العباسي الذي كان يريد ان يسقط الأئمة (عليهم الصلاة

والسلام) وبالتالي يمتص الحركة الرسالية ، وكان يستخدم طريقة معينة وهي المجيء بالامام الرضا ، فاذا نفع فقد حقق اهدافه ، واذا لم ينفع فانه يأتي بواحد من اولاد الأئمة كعلي بن اسماعيل أو محمد بن جعفر أو اسحاق بن موسىٰ ، أو أي واحد من اولاد الامام علي بن ابي طالب (عليه الصلاة والسلام) ويضعه في منصب ولي العهد ، ويقول للمسلمين : ان كنتم تريدون حاكماً من البيت العلوي فهذا هو دونكم .

فلكي لا يقوم المأمون العباسي بمثل هذه العملية قبل الامام (عليه الصلاة والسلام) بولاية العهد .

وبذلك وضع المأمون نفسه بين فكي كماشة ، حيث ان قصده الذي امله من وراء هذه العملية ، كان امتصاص السخط الجماهيري ، ولكن عندما أصبح الامام يشغل هذا المنصب اثبت ان الخلافة الشرعية هي له ، لا للمأمون الذي لا يعد حتىٰ تلميذاً من تلامذته ، فكان على المأمون نقض هذه الحقيقة الموضوعية وذلك عن طريق جلب العلماء والفقهاء والمتكلمين ، حتى من غير المسلمين وفقط لكي ينكفيء الامام عن اجابتهم ولو مرة ، فيشاع عن الامام انه ليس كذلك ولكن الامام زاد بذلك من نقاط نجاح اهدافه .

فلم يكن الامام يشارك إلا في جلسات المناظرة التي يعدها المأمون للامام ، وهذه الجلسات كانت تصب في مجرى الامام وعملية اغتيال الامام بالسم ما هي إلا شاهد تبين شدة المأزق الذي وقع فيه المأمون عندما ولى الامام العهد .

٩

الامام محمد بن علي (عليه الصلاة والسلام)

١ ـ هو الامام محمد بن علي الجواد .

٢ ـ ولد عام ١٩٥ هـ .

٣ ـ حاجج كبار العلماء ، ولما يتجاوز ربيعه التاسع ، وفنّد مزاعمهم ، واثبت بذلك سماوية علم الامام ، لأنه استطاع أن يُسكت أفقه علماء عصره في الوقت الذي لم يتلق أية دراسات من أي شخص .

٤ ـ قتل عام ٢٢٠ هـ بفعل سم دسه اليه المعتصم العباسي أخو المأمون .

٥ ـ خلّف تراثاً فكرياً ضخماً من الأحاديث في مختلف شؤون الحياة والسياسة للخطّ اللاإسلامي الذي كان يسير عليه العبّاسيون وقتل في هذا السبيل.

٦ ـ من كلماته الحكيمة :

ـ من أصغى إلى ناطق عبده ، فإن كان الناطق عن الله فقد عبد الله ، وان كان الناطق ينطق عن لسان ابليس فقد عبد ابليس . !

ـ المؤمن يحتاج إلى توفيق من الله ، وواعظ من نفسه ، وقبول ممن ينصحه . !

لا ينقطع المزيد من (رزق) الله ، حتى ينقطع المزيد من الشكر من العباد . !

ـ من شهد أمراً فكرهه كان كمن غاب عنه (لا يؤخذ بمسؤلياته) ومن غاب عن أمر فرضيه كان كمن شهده . !

ـ اظهار الشيء قبل أن يستحكم (يتم) مفسدة له . !

نظرة تحليلية موجزة لحياة الامام الجواد (عليه السلام)

لقد تسلم الامام الجواد (عليه الصلاة والسلام) الامامة وهو في عمر لا يتجاوز التاسعة ، وكان ذلك امتحاناً عسيراً وفتنة لكل الموالين ، فكبار العلماء والفقهاء والقادة العسكريين كان من الواجب عليهم الانقياد لولد عمره (٩ سنوات) والحركة الرسالية في ذلك اليوم كانت حركة قوية جداً .

كما ان الرسالات انتشرت في الآفاق عبر مجموع فقهائـه وعلمائـه وقياديه، واصبح له كيانه المتجذر بعد ان لقى ما لاقىٰ من المشاكل والمصاعب طـول الليل وخلال الظلام ، وكثرة التناظر بينه وبين مناوئيه .

واصبحت دلالات الامامة واضحة للعيان جلية كالشمس المشرقة ، وهكـذا فقـد بلغ التشيع في عهـد الامام الجـواد (عليه الصـلاة والسـلام) واستـطاعت ايديولوجيته الفكرية ان ترسخ في اعماق الناس ، فيقولون سمعـاً وطاعـة ، هذا امـام وهذا امـام . فالقضيـة ليست قضية عمـر او طول ، أو عـرض أو جثـة أو لحية ، فالامام لم يكن ذا لحية آنـذاك فعمره لم يـزد على الحـادية عشر . ان هـذا يبين الأصل الغيبي للفكـر الرسـالي الذي يعتقـد بان الله سبحـانه وتعـالىٰ اتصالاً مباشراً بالخلق وذلك عن طريق الأئمة المعصومين (عليهم الصـلاة والسلام) في حياتهم وبعد غيبتهم .

لقد عاصر الامـام محمد بن عـلي الجواد (عليـه الصلاة والسـلام) خليفتين عباسيين حيث كان مقتله في ذي القعدة أو ذي الحجة عشرين ومائتين وله يومئـذ خمس وعشرون سنة .

والخليفة الذي عاش الامام في عهده ظروفاً هادئة ، هو المأمون العباسي .

وقد زوج المأمون ابنته من الامام ، وهي ام الفضل .

وهنا يبرز السؤال التالي : كيف اقدم الامام الجواد (عليه الصلاة والسلام) على الزواج من بنت المأمون ؟

الجواب على هذا السؤال بسيط جداً : بعد ان عرفنا الجواب عـلى علامـات الاستفهام حول قبول الامام الـرضا (عليـه الصلاة والسـلام) ولاية العهـد من قبل المأمون العباسي فنفس الجواب يطبق هنا .

فـالأئمـة (عليهم الصـلاة والسـلام) لم يحلوا حـركتهم ، أي انهم لم يقبلوا

بالخلافة ولم يشتركوا فيها .

والامام الجواد (عليه الصلاة والسلام) حينما خطب ابنة المأمون وتزوجها اصبح صهر الخليفة ، وماذا يعني ذلك ؟

بالرغم من ان الخليفة يومذاك كان يمسك كل الحكم بيده ومن يدخل في البلاط فانه يمكن ان يصير واليا على منطقة ، أو حاكماً على بلد ، أو قاضي القضاة لا اقل ، ولكن الامام الجواد لم يفعل شيئاً من ذلك بل أخذ بيد زوجته وذهب الى المدينة وبقي هناك حتى مات المأمون العباسي .

وكسب الامام الجواد بهذا العمل امرين :

أولاً : قيد المأمون من ان يقوم بعملية اغتياله وذلك بقبوله الزواج من بنت المأمون .

ثانياً : جعل مخالب السلطة وانيابها في قفص الحركة الرسالية ، وذلك ان المأمون ما كان ليجرؤ بعد ذلك على ان يقوم بالفتك برجالات الحركة ، ومجموعاتها .

والامام الجواد (عليه الصلاة والسلام) عاصر ـ أيضاً ـ أحد الخلفاء العباسيين ، الذي اثر تأثيراً مباشراً على زوال الدولة العباسية . وهو المعتصم العباسي .

فالمعتصم العباسي كان ابن امة تركية ، فمال الى اخوانه ، فكان يحب جمع الاتراك وشراءهم من أيدي مواليهم ، فاجتمع له منهم اربعة آلاف ، والبسهم انواع الديباج والمناطق المذهبة والحلية المذهبة وأبانهم عن سائر الجنود .

والاتراك حينما جاءوا الى البلاد الاسلامية . . شيئاً فشيئاً اخذوا الحكم من المعتصم ، وبعدئذ من ابنه واخذوا يحدثون الانقلابات العسكرية .

وهكذا كانوا يقومون بالخلع والقتل لأي خليفة لم يكن تتجاوب أهواؤه مع اهوائهم ، وليس ذلك لشيء في تركيبة العنصر التركي . وانما نتيجة للحالة المتردية التي وصل اليها المجتمع الاسلامي من الانحلال والفساد الخلقي الشامل .

فالمعتصم العباسي كانت هذه سياسته في الحكم ، والامام الجواد (عليه الصلاة والسلام) استفاد من الوضع افضل استفادة في الاعمال التي سبق ذكرها وفي تغذية الحركات الرسالية التي كانت تضع جنينها للمستقبل والثورة التي قام بها محمد بن القاسم بن علي الطالبي ، كانت لا تجعل السلطة في هدوء وسكينة .

ان عصر الامام الجواد شهد تحولاً جديداً في العالم الاسلامي هو تحول الخلافة الى سلطة اسمية على الأمة ، وتحول السلطة الحقيقية الى أيدي العسكر .

وهنا تبرز الاسئلة التالية :

ـ ترىٰ لماذا حصل هذا التحول ؟

ـ وما هي آثاره ؟

ـ من الذي جاء بالعسكر ؟

ان القيمة الوحيدة التي كانت تعتمد عليها والتي تتمحور حولها وتتوحد بها ، كانت قيمة الايمان بالله ، والاعتقاد بالدولة باعتبارها ضرورة حضارية . فبالرغم من كل ما حدث في الامة من انشقاقات داخلية وظلم وديكتاتورية فان بقية من الايمان بان هذه الدولة يجب ان تبقىٰ ظلت موجودة . وهذه القناعة كانت سائدة لدى كافة الاطراف ، صحيح ان ارادة الأمة كانت ضد السلطة الفاسدة ، ولكن الحاجة الى نظام يحكم بالاسلام ، والرغبة في الدفاع عن بيضة الاسلام ، وعن عزة المسلمين كانتا متداخلتين وكانت آلاف الناس تذهب

للدفاع عن الثغور وفتح البلدان انطلاقاً من عقيدة مقدسة وهي الجهاد ، بغض النظر عن السلطة الفاسدة .

والسؤال : لماذا فقد الجيش العربي قدرته وثقة النظام به ؟ . .

والجواب : ذلك لأمدين . . .

حالة المجون التي تردى إليها الخلفاء والمقربون إليهم . . فإنك لا تجد خليفة عباسياً لا يدمن الخمر واللهو واللعب . . .

٢ ـ بالاضافة الى الاسراف والترف ، مثلاً : لقد كلف زواج المأمون ببنت الحسن بن سهل كلف (٥٠٠ مليون درهماً) كما اعطى ابن سهل عند انصرافه من « فم الصلح » عشرة آلاف درهم ، ومنحه مقاطعة فم الصلح واطلق له خراج فارس وكور الاهواز مدة سنة .

اذن فالسلطة كانت تربي المجتمع على مقاييس جاهلية ، فالذي كان يلهو ويلعب اكثر مع الخليفة هو الذي يكون الاقرب اليه ، والذي كان ينسلخ عن دينه ويبيع كرامته وشرفه في سبيل الخليفة كانت ورقته اغلى عند الخليفة .

وفي قبال هذا الوضع المزري كان الأئمة (عليهم الصلاة والسلام) يعملون بلا هوادة في سبيل المحافظة على الروح الاسلامية في ضمير الأمة ، وذلك عبر تربية عناصر رسالية سامية ، فمثلاً : نرى ان احد اصحاب الأئمة (عليهم الصلاة والسلام) ويسمى بجهبذ العلماء كان يقرأ القرآن في ركعتين وقيل ما على الارض احد إلا وهو محتاج الى علمه .

١٠

الامام علي بن محمد (عليه الصلاة والسلام)

١ ـ هو الامام علي بن محمد الهادي (عليه الصلاة والسلام) .

٢ ـ واصل حركة آل البيت ، في المدينة ، فخشيها بنو العباس ، ولذلك جلبوه بوضع غير إنساني إلى سامراء عاصمتهم الجديدة ، حيث وضعوه تحت

الاقامة الجبرية .

٣ ـ قتل عام ٢٥٣ هـ بفعل السم العباسي ودفن في بيته بسامراء شمالي بغداد .

٤ ـ خلّف تراثاً فكرياً ضخماً .

٥ ـ من كلماته الحكيمة :

ـ من جمع لك ودّه ورأيه فاجمع له طاعتك !

ـ الدنيا سوق ، ربح فيها قوم وخسر آخرون !

ـ من هانت عليه نفسه (لم يبال بمصلحته) فلا تأمن شره ! .

ـ إن الظالم الحالم يكاد أن يعفي على ظلمه بحلمه ، وان المحق السفيه يكاد أن يطفىء نور حقه بسفهه .

ـ من اتقى الله ، يُتقى (عند الناس) ومن اطاع الله ، يُطاع (من قبل الآخرين) ، ومن اطاع الخالق لم يبال بسخط المخلوقين ، ومن اسخط الخالق فليبقن ان يحلّ به سخط المخلوقين ! .

ـ من كان على بينةٍ من ربه هانت عليه مصائب الدنيا ، ولو قرض (بالمقاريض) ونشر (بالمناشير) . !

نظرة تحليلية موجزة لحياة الإمام الهادي (عليه السلام) ..

ثلاثاً وثلاثين عاماً وعدة شهور كان الامام علي بن محمد الهادي (عليه الصلاة والسلام) خليفة شرعياً للمسلمين واماما وقائد للشعب وهي من الاعمار الطويلة التي يعيشها امام في امامته بالطبع اذا استثنينا الامام الحجة بن الحسن (عليه الصلاة والسلام) .

وفي تلك الفترة كانت حياة الامام تزخر بعدة اعمال :

أولاً : كان الامام (عليه الصلاة والسلام) يقود الامة قيادة حقيقية ذلك

لأن الخلافة العباسية قد ضعفت منذ عهد الامام الرضا (عليه الصلاة والسلام) الى درجة انها لم تكن تعني شيئاً كبيراً ، وقد فرضت الحركة الرسالية نفسها على الاحداث بشكل مباشر .

وكان الامام الهادي (عليه الصلاة والسلام) ينتقل بين المدينة المنورة وبين سامراء ، وعندما يكون في المدينة فانه يعيش وكأنه دولة داخل دولة ، أي ان والي المدينة لم يكن له من القدرة والقوة ليفرض أي امر على الامام .

وهناك حيث يجتمع كبار الرساليين في المدينة المنورة مع الامام حيث يجلس ويعطيهم الاوامر وتحمل اليه الاموال الكثيرة ، والامام ايضاً يبعث بتلك الاموال الى اصحابها ، أي انه كان يقود دورة مالية في الأمة الاسلامية .

أما عندما يكون الامام في سامراء - حيث عاصمة الخلافة - فانه يقوم بادارة شئون القيادة داخل الدولة .

حيث أصبح الحاكم العباسي وهو المتوكل ، سلطان بلا سلطة ، لذلك فانه كان يغضب ويصدر بعض الاوامر القاسية بحق الامام ، ولكن سرعان ما كانت تتميع في الطريق .

لقد كانت التجمعات الكثيرة ترد على سامراء من كل حدب وصوب . وكانت للامام سلطة روحية على كثير من رجالات الحكم ، وله نفوذ داخل البلاط .

وهنا يطرح السؤال التالي :

لماذا اذاً لم تقم الحركة الرسالية بانقلاب عسكري على الخليفة ؟

الجواب :

لقد كانت الحركة الرسالية لا تؤيد اسلوب الانقلابات العسكرية . ذلك

لانها ـ في الواقع ـ ليست حركة تبتغي الوصول للسلطة فقط . انما هي حركة تهدف الى اقامة العدل والحق في الامة الاسلامية ، وان تكون الخلافة شرعية بالطرق الشرعية . يعني تكون الامة واصلة الى مستوى من الوعي والادراك بحيث تختار اختياراً حراً للقيادة الصحيحة . وان تكون المجموعة المؤمنة في الأمة هي الغالبة على غيرها .

لذلك كان الأئمة (عليهم الصلاة والسلام) لا يؤيدون الانقلابات العسكرية إلا لاعتبار انها قد تخفف من ضغط بعض الطغاة الذين كانوا يتعدون الحدود في الظلم والاستبداد .

وما كانوا يبتغون الوصول الى الحكم على اساس الانقلاب العسكري . ونحن نرى ان الامام الهادي (عليه الصلاة والسلام) عاش في سامراء نافذ الكلمة في الدولة .

لقد قام الامام الهادي (عليه الصلاة والسلام) بعدة اعمال وهي :

أولاً : قاد الحركة الرسالية ، ومن خلالها الامة الاسلامية

ماذا يعني ذلك ؟

يعني ان الرساليين كانوا منتشرين في كافة البلاد الاسلامية ، وكانوا يحملون مشعل الحرية في الامة الاسلامية ، التي كانت تضم ما تضمه اليوم مجموع سبعين دولة ، وتتسع نصف المعمورة آنئذٍ . وكان الامام (عليه الصلاة والسلام) يقود هذه الحركة المنتشرة في هذه الرقعة والتي تعمل ليل نهار في سبيل رفع مستوى الامة وايصالها الى مستوىً ممارسة الحرية الحقيقية المرتكزة على هدي رسالة السماء .

واهم شيء في حياة الامام الهادي (عليه الصلاة والسلام) انه قاد الامة

ونمىٰ حركتها الرسالية ودفعها خطوات واسعة نحو الامام والى شـواطىء الهدايـة والصلاح .

والعمل الثاني الذي قام به الامام (عليـه الصلاة والسـلام) في ايام حيـاته كان عملا أساسياً وهو قيادة الفكر الاسلامي .

ففي ايام الامام الهـادي (عليه الصـلاة والسلام) كـانت هنالـك نزاعـات حادة ، ومن جملة هذه النزاعات ، النزاع المشهور حول خلق القرآن

وكانت تشق الامة الاسلامية حركتان فكريتان :

١ ـ حركة تسمى بالاعتزال .

٢ ـ حركة تسمى بالأشاعرة .

وهاتين الحركتين لم تكونا فقط مجرد حركتين فكريتين في المدارس ، بل كانت نازلة الى الشارع ،وكان لكل واحدة اتباعها بين جماهير المسلمين ، وكـانت كثيراً مـا تقع بينهم الخـلافات . وكـانت السلطات تغذي هـذه الخلافـات وتزيـد من حـدتها من أجـل تحقيق مصالحهـا اللامشـروعة . فقبـل المأمـون العباسي كـانت السلطة العبـاسية تـدعوا الى حـركة الاشعـرية . وكـان جلاوزتهـا يأخـذون كل معتزلي ويتهمونه بالزندقة ثم يقتلونه .

ولما جاء المأمون العباسي الى الحكم فانه اتجه الى الاعتزال . والاعتزال كـان حركة المثقفين وحركة الطبقة الواعية في ذلك اليوم . وقد ظلت السلطة في عهـد المأمون العباسي والمعتصم العباسي ، والواثق العباسي تؤيـد الاعتزال . ولمـا جاء المتوكل صار من الأشاعرة .

ومن هنـا فان الامـام الهـادي (عليـه الصـلاة والسـلام) قـام بـدوره عـلى الصعيدين :

الصعيد الاول : قيادة إنماء وتربية الحركة الرسالية في التاريخ ، وبالتالي تربيتها على المسير بذاتها .

الصعيد الثاني : توجيه الأمة ثقافياً في مختلف القضايا التي كانت تهم المسلمين ، وانتشالها من المطبات الفكرية .

واستمر الوضع الى استشهاد الامام الهادي (عليه الصلاة والسلام) حيث نشأ ما يزيد على عشرين تحركا وانتفاضة في المناطق المختلفة . وكان كل اصحاب الثورات هذه هم من صنع الامام الهادي (عليه الصلاة والسلام) وتربيته .

١١
الامام الحسن بن علي (عليه الصلاة والسلام)

١ ـ هو الامام أبي محمد الحسن بن علي العسكري .

٢ ـ ولد عام ٢٣٢ هـ .

٣ ـ واصل في سامراء حركة التوعية الاسلامية ، والمعارضة الفكرية والسياسية ضد بني العباس ، وتحمل كل أنواع التعذيب ، والتنكيل في هذا السبيل .

٤ ـ قتل عام ٢٦٠ هـ ودفن بسامراء .

٥ ـ خلف تراثاً فكرياً ضخماً .

٦ ـ من كلماته الحكيمة :

ـ من التواضع السلام على كل من تمر به ، والجلوس دون شرف المجلس (في مكان أقل من مكانك) . !

- من الجهل الضحك من غير عجب . !

- أقل الناس راحة . . الحقود . !

- قلب الأحمق في فمه ، وفم الحكيم في قلبه . !

- ما ترك الحق عزيز إلاّ ذّل ، ولا أخذ به ذليل الاّ عزّ . !

- خصلتان ليس فوقهما شيء : الايمان بالله ، ونفع الأخوان . !

- ليس من الأدب ، اظهار الفرح عند المحزون . !

- ما أقبح بالمؤمن أن تكون له رغبة تذله . !

- أورع الناس من وقف عند الشبهة . واعبد الناس من أقام الفرائض (أتى بالواجبات) وأزهد الناس من ترك الحرام ، وأشد الناس اجتهاداً من ترك الذنوب . !

نظرة تحليلية موجزة لحياة الإمام العسكري (عليه السلام)

أصبحت الامامة على عاتق الامام ابي محمد الحسن العسكري بعد استشهاد والده الامام الهادي (عليه الصلاة والسلام) في ربيع الآخر عام (٢٣١ أو ٢٣٢) .

لقد تميزت الاحاديث التي تدور حول القيادة ، ان اغلبها كان عن الامام ابي محمد العسكري (عليه الصلاة والسلام) .

فهذه الميزة التي افرد بها الاسلام الامام الحسن العسكري (عليه الصلاة والسلام) كانت تعني ان الرسالة قد استعدت للوقوف على رجليها ، خاصة وان هذه الاحاديث هي حول القيادة ، فيما بعد الأئمة أي في عهد الغيبة .

وهنا تبرز اهمية هذا العمل الذي قام به الامام العسكري (عليه الصلاة السلام) حيث انه ليس القاء الحديث على مجموعة من ثقاة الحركة الرسالية ،

بل هو هدى هؤلاء القادة الى هذه التشريعات ، ومن ثم تأتي الوظائف التابعة لهذه العملية وهي قضايا المحافظة على الأحاديث ، التفريع من الاصول تربية الفقهاء لهذا العصر وسائر الاعمال المتشابهة عند الأئمة الأواخر (عليهم الصلاة والسلام) .

وقد دأب الامام العسكري (عليه الصلاة والسلام) في حث الأمة والطليعة الرسالية على الاستقامة على تلك المسائل والتعمق في الامور التي بثها القادة الاوائل من الأئمة للحركة الرسالية .

وهذا شيء يعادل مرحلة بث وتشريع هذه المسائل ، حيث ان الاستقامة تعادل الانشاء وكثير من الاحاديث تدور حول ان قليلاً من العمل الصالح يداوم الانسان عليه خير وافضل من كثير لا يداوم عليه ، وهذه حقيقة علمية ثابتة ، فكيف اذا لم يكن الامر من ناحية الاستقامة فقط بل في تعميق العمل وتحسين كيفيته ؟

مع كل ذلك كان الامام العسكري (عليه الصلاة والسلام) يقوم بأخطر مهمة لا تزال تؤثر في العالم الاسلامي ككل .

ألا وهي تحديد ملامح القيادة ، جهة صلاحياتها مواصفاتها ، ومسئولياتها وكافة التفاصيل المتعلقة بها ، مثل هذا الامر المحوري البالغ الأهمية لاي مجتمع ، ليس بالشيء البسيط تربية الناس عليه ومن ثم تدريبهم على تطبيقه ، فيجب ان تسبق كل خطوة في هذا الامر حالة من الايمان والوعي .

ولقد كانت في عهد الامام تموجات سياسية لم تكن بعيدة عن تيار الحركة الرسالية . فكانت هناك عدة تحركات قام بها العلويون إلا ان كثيراً منها كانت تكشف ويكتشف امرها من قبل السلطة ومع ذلك كانت هذه التحركات تعتبر بمثابة استعداد للفترة القادمة .

كما حدثت ثورات في مصر وهرات ـ أفغانستان حالياً ـ والديلم ونيسابور

وخـراسان وهمـدان والسند والكـوفة والجبـل ـ جبل عـامل في لبنـان ـ واليمن ، والكثير من المناطق التي يطول ذكرها .

وكـان مـوقف الحكـام العبـاسيـين هـو ان يحبسـوا الأئمـة (عليهم الصـلاة والسلام) ويضربوا عليهم طوقاً من العزلة باسم ان الخليفة العباسي يريد الامام المعاصر له ان يمكث معه في حاضرة الخلافة .

وكـان هذا أشبـه بالسجن غـير المعلن ، وكانت السلطات تضـطرب وتضع الامـام في بيت مغلق ، أي السجن قـديمـاً . إلا ان ذلـك يجـري تحت اسم ان الامام مستقر في حاضرة الخلافة ، وقد حصل ذلك بعد المأمون . أي ان الخلفاء العباسيين بعد المأمون رأوا في سياسـة المأمـون مع الامـام الرضـا (عليه الصـلاة والسـلام) أسلوباً يقتـدى به ، فكـان الخلفاء العبـاسيون يعملون بـذلك لعـزل الامـام عن الحركـة الجماهيـرية ، وهـذا افضل مـا يمكنهم عمله ، الا انـه كـان يفوتهم واقع العلاقة التنظيمية بين الامام والحركة الرسالية .

وظلت السلطات العباسية في نكد من امرها حتى اقدمت على اغتيال الامـام أبي محمـد العسكري (عليـه الصلاة والسـلام) وذلـك في سنـة ٢٦٠ هـ وكـان الامام العسكري قد رزق بالامـام المهدي (عجـل الله فرجـه) يوم الجمعـة من شعبان عام ٢٥٥ هـ ، وكـان يحتفظ بالامـام المهدي (عليـه الصلاة والسـلام) بعيداً عن الانظار إلا للصفـوة من الرسـاليين ، وكيف لا يحتفظ بـه ويخشىٰ عليه وبه يملأ الله الارض قسطاً وعدلاً ، فكانت غيبته الصغرىٰ من يوم مولده .

١٢
الامـام المهـدي المنتـظر (عجــل الله فرجه)

١ ـ هو الامام محمد بن الحسن المهدي المنتظر (عليه الصلاة والسلام) .

٢ ـ ولد عام ٢٥٥ هـ .

٣ ـ اختفى عن الانظار بعد وفاة والده الامام الحسن العسكري ، نظراً لتآمر السلطات العباسية على قتله .

٤ ـ من المنتظر أن يقود ثورة عالمية ضد كل مظاهر الظلم ، والجهل ، والطغيان في وقت يحدد له الله ، وهو لا يزال حياً يرزق يتحين موعده لتفجير ثورته العظيمة .

٥ ـ وردت أكثر من خمسة آلاف حديث حوله من الرسول الأعظم والائمة الطاهرين . أشهرها المروي في كتب الصحاح ، وكتب الحديث بصورة عامة والذي يقول فيه الرسول الأعظم :

« المهدي من ولدي ، إسمه إسمي وكنيته كنيتي ، يملأ الأرض عدلاً وقسطاً بعدما ملئت ظلماً وجوراً » .

٦ ـ كشف للكثيرين حتى الآن عن نفسه ، فعرفوه وتحدثوا اليه ، وانتفعوا بـه .

٧ ـ عندما يأتي : يطهر الأرض من الشرك . ويقيم موازين العدل ، ويحقق للناس الحرية .

٨ ـ عين في زمن غيبته القيادة التي يحق لها ممارسة القيادة للبشرية ، عندما صرح بقوله :

« من كان من الفقهاء : صائناً لنفسه حافظاً لدينه مخالفاً لهواه ، مطيعاً لامر مولاه فللعوام أن يقلدوه » .

وبقوله :

« رواة أحاديثنا فانهم حجتي عليكم وانا حجة الله عليهم » .

وهكذا تكون القيادة في مدة غيابه مخولة للفقهاء المراجع دون غيرهم من قيادات بشرية مجعولة لا تستند على مدرك شرعي .

نظرة تحليلية موجزة لحياة الإمام المهدي (عجل الله فرجه)

حينما استشهد أبو محمد الحسن العسكري (عليه الصلاة والسلام) ، جَدَّ المعتمد العباسي كثيراً في العثور على الامام المهدي الى درجة انه حبس جواري الامام العسكري (عليه الصلاة والسلام) وجعل عليهن الرصد خشية ان يكون عند احداهن حمل من الامام فاخفاه الله عنه وعن اعدائه ليوم يريد به ان يطهر الأرض من الجور والطغيان والشرك ، ويرسي فيها العدل والأمن والايمان .

ان التخوف الذي استولى على السلطات العباسية ، وحجم الاحتياطات المتخذة من قبلها لا يعني ان الحالة طبيعية ، فإذا رأينا رئيس دولة ما يجند الجيوش ، ويضع كل وزارات ومؤسسات الدولة في حالة استعداد وترقب فان هذه الحالة تعني ان أمراً كبيراً يترقب حدوثه قريباً ربما يؤثر على مسيرة الدولة العباسية آنذاك ، وهذا له دلالة قوية على ما يلي :

ان فكرة المهدي المنتظر (عجل الله فرجه الشريف) كانت فكرة يعتقد بها كل مسلم آنذاك إلا ما ندر . وان هذه العقيدة كانت عامة عند كل ابناء الأمة الاسلامية .

والأهم ان اعتقاد كل المسلمين كان في أن هذا المصلح لأمة محمد هو من آل محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) ومن سلالته وذلك للنصوص المتواترة عن الرسول الأعظم (صلى الله عليه وآله وسلم) في هذه الحقيقة .

وقد ورد ذكره في الاحاديث النبوية انه من آل محمد ، وانه هو الامام الثاني عشر محمد المهدي بن الحسن العسكري (عليه الصلاة والسلام) بن علي الهادي بن محمد الجواد بن علي الرضا بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد

الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين الشهيد بن علي بن أبي طالب صلوات الله عليهم أجمعين .

والسلطات العباسية كانت في تلك الدرجة من الخوف والاجراءات الأمنية المشددة التي تعبر عن حالة الهيجان التي يعيشها النظام بسبب هذا الاعتقاد المجمع عليه المسلمين .

وقد احدثت غيبة الامام المهدي (عجل الله فرجه) تموجاً قوياً في العالم الاسلامي ، حيث عين الامام المهدي له سفراء اربعة وهم (عثمان بن سعيد العمري وكان من وكلاء الامام الحسن العسكري (عليه الصلاة والسلام) ، والحسين بن روح ، وعلي بن محمد السمري ، وكانت السفارة تنتقل لاحدهم بعد الآخر ، وبعد موت السمري انقطعت السفارة ، وكانوا جميعاً يعيشون في بغداد ، فقد كانوا بمثابة وسطاء بين الحركة الرسالية والامام لحمل مجمل الأسئلة اليه وأخذ الجواب منه بتوقيعه اليهم .

والسفير هو عالم كبير وفي الوقت ذاته يحمل علوم وتوجيهات الامام الحجة الغائب الى العلماء الباقين .

وبجانب ذلك كان للامام الحجة (عجل الله فرجه) وكلاء كثيرون في اثناء الغيبة الصغرى ، إلا ان السفراء هم الاربعة فقط والذين يلقبون بالنواب أيضاً .

بعد الغيبة الصغرى أي بعد موت هؤلاء السفراء الاربعة ، وقعت الغيبة الكبرى التي ينتظر فيها الامام الحجة (عجل الله فرجه) ليملأ الارض قسطاً وعدلاً بعد ما ملئت ظلماً وجورا .

ذاك
العالم الذي ينتظرنا!

١

عندما يتطلع الانسان إلى الكون يجده مبنياً على أسس عادلة ، بحيث لا يقع أَي تغيير في أي جزء منه ، إلا وتظهر آثاره على كل الأجزاء ، ولا يطرأ أي عطب في أي مكان منه ، إلا وتكون له نتائجه في الأماكن الأخرى .

٢

وعندما يطالع رسالات الله يجد أن كلها - بلا استثناء - تدعو إلى اقامة العدل في الحياة ، وإلى إعطاء الحق لصاحبه ، وإلى معاقبة المجرم ، ومجازاة المحسن .

٣

ولكن . . بالرغم من كل ذلك فانه عندما يطالع في وضع القرون الخالية ، هو أبعد ما يكون عن العدل والانصاف فالظلم الذي يرتكبه الانسان بأخيه الانسان ، لا مثيل له حتى في عالم الحيوان .

والمتقون الذين يستحقون كل شيء قد لا يحصلون على شيء . . بينما الأشرار الذين لا يستحقون أي شيء قد يحصلون على كل شيء . !

فهل يمكن أن تمر القضية هكذا . . حتى الأبد ؟

ومتى يجد الطيبون جزاء طيبتهم ؟

ومتى يجد الخبثاء جزاء خبثهم ؟

ومتى تتحقق عدالة الكون فيهم ؟

إذا راجعنا وجداننا نجد أن « الحقيقة » يجب أن تنتصر ، فهي إن هزمت في زمان فلا يمكن أن تنهزم في كل زمان .

هذه حقيقة تحتّمها عدالة الله تعالى التي يكشف عنها كل جزء من اجزاء الكون .

فاذا سكر الطغاة على أجساد الضحايا فلا بد أن يأتي اليوم الذي يسكر فيه الضحايا على جماجم الطغاة . فإذا لم يتحقق ذلك اليوم فلا بد أن يتحقق غداً ، وإن لم يكن في غد فلا بد أن يكون بعد غد . . وإن لم يكن في الدنيا فسيكون في الآخرة .

فالساعة آتية لا ريب فيها . .

وهنا يأتي السؤال الكثير الإلحاح : عندما نموت ويدفننا الآخرون نتحول إلى تراب ، وبعد ذلك كيف نعود مرة أخرى إلى الحياة ؟

وفي الحقيقة فإن المهم ليس هو : معرفة كيف نعود إلى الحياة ولا ماذا سيكون مصيرنا ؟ المهم هو أن نعرف قبل كل شيء أن الله لم يخلق الحياة ليلعب فيها ، إذ ليس من الممكن أن يخلق الله الحكيم عشرات الملايين من البشر ويهيء لهم كل وسائل العيش من دون أن يريد منهم شيئاً . .

إننا لم نكن موجودين في وقتٍ ما . .

ثم خلقنا الله . .

فإذن . . كل وجودنا إنما هو منه تعالى . وما دام هو حكيماً لا يعطي إلا بحساب ، ولا يمنع إلا بحساب ، فان من الطبيعي أن يكون لكل ما نملكه ثمناً

خاصاً لا بد من دفعه .

إلا أن « الدفع » هنا ليس يعني أن نعطي شيئاً ما ، وإنما يعني بالعكس أن نأخذ اشياء كثيرة . .

ذلك لأن من مظاهر تحببٍّ الله الى الإنسان أنه خلقه بلا استحقاق ، ومع ذلك فلم يطلب منه مقابل هذا الخلق ، إلا أن يطيعه في رسالته اليه ، ليأتي مصيره جيداً ومرفهاً .

فالثمن الذي يريده الله منا هو : أن نحاول أن ننجح في إمتحانات الدنيا . .

وجزاء النجاح في هذا الامتحان هو : الجنة طبعاً .

كما أن نتيجة الفشل فيه هو : النار .

وهكذا تكون الحياة بعد الموت ضرورية إلى درجة كبيرة إذ لولاها لأصبح وجودنا على الأرض عبثاً في عبث . الأمر الذي لا يمكن قبوله اطلاقاً .

يقول الله تعالى :

﴿أفحسبتم إنما خلقناكم عبثاً وانكم الينا لا ترجعون﴾[1] ؟

لا . .

ليس هناك عبث ، فكل ذرة في الأرض تكذب عبثية الحياة من خلال وجودها في المكان المناسب الأمر الذي يعني أنها مهدوفة .

فما هو هدف خلق الانسان ؟

قلنا مكرراً ان الهدف هو : إسعاد الانسان ، ولكن ليس كل انسان ، وإنما الانسان الذي يريد فعلاً أن يكون سعيداً . أي الانسان الذي يدفع

---

(١) سورة المؤمنون الاية ١١٥ .

« ثمن » هذه السعادة .

لقد جاء في الحديث القدسي :

« عبدي ! خلقت الأشياء لأجلك ، وخلقتك لأجلي ، وَهَبْتُك الدنيا بالإحسان ، والآخرة بالإيمان »[1] .

ولقد أخبرنا الله في كلمات صريحة لا تقبل الترديد : أن هذه الحياة ليست أكثر من مختبر ، وان الذين يعتبرونها « النهاية » ويبنون حساباتهم على هذا الأساس ليسوا أكثر من مخطئين .

فيما قال الله تعالى لآدم حين خلقه :

« يا آدم بروحي نطقت ، وبضعف طبيعتك تكلفت ما لا علم لك به وأنا الله الخلاق العليم ، بعلمي ، خالفتُ بين خلقي ، وبمشيئتي يمضي فيهم أمري ، وإليَّ تدبيري وتقديري صائرون ، لا تبديل لخلقي ، إنما خلقت الجن والإنس ليعبدوني ، وخلقت الجَنَّة لمن عبدني وأطاعني منهم واتبع رسلي ولا أبا لي ، وخلقت النار لمن كفرني وعصاني ولم يتبع رسلي ولا أبا لي ، وخلقتك وخلقت ذريتك من غير فاقة بي إليك وإليهم ، وإنما خلقتك وخلقتهم لأبلوك وأبلوهم أيكم أحسن عملاً في دار الدنيا . في حياتكم وقبل مماتكم ، ولذلك خلقت الدنيا والآخرة والحياة والموت والطاعة والمعصية والجنة والنار . . »[2] .

إن كل فرد لا بد أن يلاقي جزاء أعماله التي يرتكبها هنا في عالم يختلف من حيث المقاييس عن هذا العالم .

﴿فمن يعمل مثقال ذرّة خيراً يره* ومن يعمل مثقال ذرّة شرّاً يره﴾[3] .

حتى انّ الأحاديث تكشف عن أنه لو نطح حيوان حيواناً آخر من بني

---

(١) كلمة الله ص١٦٩ .

(٢) كلمة الله ص١٧١ .

(٣) سورة الزلزلة الآية ٧ ـ ٨ .

جنسه بلا استحقاق فان الله سيبعثهما في ذلك العالم ليثأر المظلوم منهما من ظالمه .

ثم يموتان .

ماذا نجد في الآخرة ؟

بالنسبة إلى المتقين ـ الملتزمين بمبادىء الله ـ فإن الموت هو بداية سعادتهم ، لأنهم سيجدون بعده كل أسباب السعادة والرفاه ، فالجنة التي عرضها السموات والأرض تستقبلهم .

وبالنسبة إلى المنافقين والكافرين ـ عبّاد الهوى والمصالح ـ فإن الموت هو بداية العذاب والويل والمسكنة ، لأنهم يجدون فيها وراءه جزاء أعمالهم السيئة التي ارتكبوها هنا . . وكما قال الله :

﴿**انّ جهنّم كانت مرصاداً* للطاغين مآبا**﴾[1] (ترصدهم ، تنتظرهم على أبواب الموت) .

﴿**لابثين فيها أحقاباً**﴾[2] . (زمناً طويلاً) .

﴿**لا يذوقون فيها برداً ولا شراباً* إلّا حميماً**﴾[3] (الماء الساخن جدّاً الذي يشوي الحلق والبطن) ﴿**وغساقا**﴾[4] (الذي يسيل من أجساد المحروقين) .

﴿ **جزاءاً وفاقا . .** ﴾[5]

أجل ـ انّه جزاء عادل : ذلك لـ﴿**أنّهم كانوا لا يرجون حساباً**﴾[6] والذي يضيع الحساب يضيع المصير .

---

(١)، (٦) سورة النبأ الآية ٢١ ـ ٢٧ .

فهم من جانب كانوا لا يرجون حسابا ، وهم من جانب آخر ﴿ **كذّبوا بآياتنا كذابّاً** ﴾[1].

لقد كذّبوا بالفكر حينما لم يحسبوا حساب الآخرة وكفروا بالله ، وكذّبوا بالجوارح حينما استعملوها في الظلم والطغيان ، وكذّبوا بالماء حينما اكتنزوه ولم ينفقوه في سبيل الله .

وطغوا . . وفرحوا . . ظانين ان كل شيء يجري في الظلام ، وان لا أحد يسجل عليهم الأعمال . . بينما كان الأمر كما قال الله :

﴿**وكل شيء أحصيناه كتاباً**﴾[2] . .

وعندما واجهوا اراشيف أعمالهم صرخوا : « يا ويلنا ! ، ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها » .

﴿**ووجدوا ما عملوا حاضراً**﴾[3] .

وجاءهم التقريع : ﴿**فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذاباً**﴾[4] .

هذا هو مصير الكافرين والمنافقين والفاسقين .

يقول الله تعالى :﴿**انّ للمتّقين مفازاً**﴾[5] .(فلهم منجاة خاصة بهم) .

﴿**حدائق وأعناباً * وكواعب** (فتيات ناهدات استدارت نهودهنّ)

---

(١)،(٢) سورة النبأ الآية ٢٨ ـ ٢٩ .

(٣) سورة الكهف الآية ٤٩ .

(٤)،(٥) سورة النبأ الآية ٣٠ ـ ٣١ .

أتراباً﴾[1] (متوافيات في السن) .

﴿وكأساً دهاقاً﴾[2] (مترعة بالشراب) . **﴿لا يسمعون فيها لغواً ولا كذابا﴾**[3] .

فلا جدل ولا تكذيب ، بل حقيقة مكشوفة . فهم اذن مسرورون ، منعمون ، يعيشون في سلام أبدي ، ولا يسمعون حتى اللغو والتكذيب .
ولماذا كل ذلك ؟

﴿جزاءاً من ربك عطاءاً حساباً﴾[4] .

انه . . ، جزاء العمل الذي قدموه . جزاء الايمان بالله والعمل الطيب ، جزاء النضال من أجل الحق . جزاء العبودية لله ، والتحرر من عبودية المادة .

﴿فأما من أعطى واتّقى * وصدّق بالحسنى* فسنيسّره لليسرى﴾[5] .

القضية هي قضية تقابل : إعطاء هنا وأخذ هناك . فاذا كان هنا التمانع ، فلن يكون هناك سوى التمانع :

﴿وأمّا من بخل واستغنى * وكذّب بالحسنى* فسنيسّره للعسرى* وما يغني عنه ماله إذا تردّى﴾[6] .

ان المال يمكن ان يفعل كل شيء في دنيا ـ المال ، ولكنه لن يغني شيئاً في دنيا ـ العمل .

ان الله عادل ، ومعنى ذلك انه لم يرسل الأنبياء ، ولم يبعث الرسالات

---

(١)، (٤) سورة النبأ الآية ٣٢ ـ ٣٦.

(٥)،(٦)سورة الليل الآية ٥ ـ ١١ .

عبثاً ، وانما استهدف من وراء ذلك خير الانسان بشرط واحد هـو ان يتقيد هـذا الانسان بالخير . أما إذا طغى فان الله لن يتغاضى عنه . .

﴿فأما من طغى * (وتجاوز حدود الحق والعدل) **وآثـر الحيـاة الدنيـا*** (فعمل لها فقط) **فان الجحيم هي المأوى﴾**[1] .

بينما **﴿من خاف مقام ربّه** (فلم يقـدم على معصيته) **ونهى النفس عن الهوى*** (والانزلاق في المصالح الآثمة) **فان الجنّة هي المأوى﴾**[2] .

إن الدنيا محل متعة ولذة ، ولكنها على كل حـال تنتهي في لحظة مـا ، وهي آخر فرصة سانحة للانسان ، عليه ان لا يترك لحظة واحـدة تمر عليـه إلا بعد ان يحملها عملاً طيباً ، أو كلمة طيبة أو موقفا طيباً .

فالآخرة **﴿ذلك اليوم الحق فمن شاء اتخذ إلى ربه مآبا﴾**[3] .

﴿إنّـا أنذرنـاكم عذابـاً قريبـاً﴾ [4] (لأن الدنيـا رحلة قصيـرة إذا قيست بمنتهاها) .

﴿يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر يا ليتني كنت ترابا﴾[5] .

والنـــاس **﴿كـأنهم يـوم يـرونها** (الآخرة) **لم يلبثـوا إلا عشيـــة أو ضحاها . .﴾**[6] .

في يوم القيامة تنهار كـل القيم الزائفـة في الحياة ، فـلا شفاعـة شفيع ، ولا

---

(١)،(٢) سورة النازعات الآية ٣٧ ـ ٤١ .

(٣)،(٥) سورة النبأ الآية ٣٩ ـ ٤٠ .

(٦) سورة النازعات الآية ٤٦ .

تزوير ولا نجاة .

﴿يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً ، والامر يومئذ لله﴾[1] .

﴿يوم تُبلى (تختبر) السرائر* (المحجوبات عن الناس) فما له من قوّة ولا ناصر﴾[2] .

هذه هي الآخرة . . حقيقة تنتظر كل فرد ولا يمكن بأي شكل من الاشكال الفرار منها .

ولكن إذا كان الموت هو مصير كل انسان ، حتى ان اعتى الطغاة لا يستطيع أن يدفع عن نفسه حشرجة الموت حتى للحظات .

وإذا كان عمل الانسان الطيب هو قارب النجاة في بحر الآخرة المتلاطم . . اليس من الافضل أن نحاسب أنفسنا كل يوم لنجد فيها إذا كنا فعلا مشغولين بصنع قارب النجاة أم لا . ؟

لقد قال الامام علي (عليه الصلاة والسلام) مرة : « ما أكثر العِبر ، وأقل المعتبر » . . وصدق الامام . . فما أكثر ما نحمل على أكتافنا من الموتى ، وما أقل العبرة التي نمتصها من ذلك . .

يقول الامام (عليه الصلاة والسلام) :

« أيها الناس . .

إن الدهر يجري بالباقين كجريه بالماضين . لا يعود ما قد ولى منه ، ولا يبقى سرمداً (أبدياً) ما فيه . آخر فعاله كأوله ، متشابهة أموره ، متظاهرة اعلامه » . .

(١) سورة الإنفطار الآية ١٩ .

(٢) سورة الطارق الآية ٩ ـ ١٠ .

« فكأنكم بالساعة (الموت) تحدوكم حدو الزاجر بسئوله » .

« فمن شغل نفسه بغير نفسه تحيّر في الظلمات ، وارتبك في الهلكات ، ومدت به شياطينه في طغيانه ، وزينت له سيّء أعماله . فالجنّة غاية (مصير) السابقين (إلى العمل الطيب) والنار غاية المفرطين »[1] .

والغريب أنّ بعض الناس تحلو الدنيا في اعينهم إلى درجة انهم يكرهون مجرد التفكير في الموت ، ويسعون مهما أمكن إلى إبعاد شبحه عن انظارهم ، حتى إذا هبط عليهم ملك الموت امتلكهم ندم عظيم ولكن . . بعد فوات الأوان .

وإذا التمس احدهم العودة ثانياً ، وقال : رب . . أرجعوني لعلي اعمل صالحاً فيما تركت . .

فانه سيتلقى بالطبع الجواب الصارم : كلا . . انها كلمة هو قائلها .

يا من بدنياه اشتغل . . قد غرّه طول الأمل . .
الموت يأتي . . بغتةً والقبر صندوق العمل !

كم عدد الشباب الذين ما كانوا يفكرون بالموت . . وكانت كل حساباتهم ترتفع على أساس أبدية الحياة ، ثم فجأة توقفت مضخات صدورهم وهي : قلوبهم ، وأصبحوا يُحملون على الاكتاف إلى القبور ، ويحاول أقرباؤهم التخلص منهم باسرع ما يمكن . .

تؤمل في الدنيا طويلاً ولا تدري إذا جن ليل هل تعيش إلى الفجر ؟
فكم من صحيح مات من غير علةٍ وكم من سقيم عاش دهراً الى دهرِ ؟
وكم من فتى يمسي ويصبح آمناً وقد نسجت أكفانه وهو لا يدري ؟

---

(١) نهج البلاغة ج٢ ص٥١ .

لماذا لا نعتبر بالذين سافروا قبلنا ، وأمام اعيننا ، وتركـو الدنيـا وراءهم بينما راحوا يدفعون حسابات اعمالهم ، وما تركوا أمام الله . ؟

« كيف غفلتم عما ليس يغفلكم ؟ »

« و (كيف)طمعكم فيمن ليس يمهلكم ؟ »

«فكفى واعظاً بموتى عاينتموهم » .

« حملوا الى قبـورهم غيـر راكبين ، وأنـزلـوا فيهـا غيـر نـازلين . . **(لم** يحملوا الى قبورهم بطوع إرادتهم ولم ينزلوا فيهـا بملء اختيـارهم بل **اجبـروا** على ذلك) فكأنّهم لم يكونوا للدنيا عمّاراً ، وكأن الآخرة لم تزل لهم داراً . . (نسيهم الجميع ، ولكن الآخرة لم تنسهم) » .

« أوحشوا ما كانوا يوطنون (هجروا المكان الـذي اتخذوه وطنـاً وهو **الـدنيا)** وأوطنوا ما كانوا يوحشون » .

« واشتغلوا (في الدنيا) بما فارقوا ، واضاعوا ما اليه انتقلوا » .

« ازدياداً » .

« أنسوا بالدنيا فغرّتهم ، ووثقوا بها فصرعتهم . فسـابقوا - رحمكم الله - إلى منازلكم التي أمرتم أن تعمروها ، والتي رغبتم فيهـا ، ودعيتم اليها ، واستتمـوا نعم الله عليكم بـالصبر عـلى طاعتـه والمجـانبـة لمعصيتـه ، فـإن غـداً من اليـوم قريب ، ما أسرع الساعات في اليوم ، وأسرع الأيام في الشهر ، وأسرع الشهور في السنة ، وأسرع السنين في العمر » . ؟[1] .

---

(١) نهج البلاغة ج ٢ ص ١٢٨ .

إن الدنيا كقطار سريع السير . يتجه بالانسان نحو . . الموت سواءاً أراد الانسان أم لا . .

ولكن المشكلة أن بعض الناس ينسون أنهم في قطار لأنهم ينشغلون بما في داخله من معالم الزينة وملاذ الفتنة .

فما أكثر الذين لا يذكرون أنهم في القطار إلا حينما يتوقف بهم على الجانب الآخر من الموت ؟

ما أكثر الذين يبنون حساباتهم على بقاء الدنيا ، حتى إذا داهمهم الموت وهم في سكرة يمرحون تندّموا ، وبكوا ، على ما فرطوا في جنب الله . ولات ساعت مندم ؟

ما أكثر الذين تحدثوا لأنفسهم عما سيبنون ، وعما سيأكلون ، وعما سيشترون ، ولكن الموت خيّب آمالهم ، فدفنوا مع آمالهم العراض في قبر واحد .

ما أكثر الذين التصقت قلوبهم بالبنين والأموال فانتزعها الموت فجأة وبلا سابق انذار ؟

يقول الإمام علي (عليه الصلاة والسلام) «أيّها الناس . . إنّما أنتم في هذه الدنيا غرض تنتصل فيه المنايا مع كل جرعة شرق ، وفي كل أكلة غصص، ولا تنالون منها نعمة إلا بفراق أخرى ، ولا يعمِّر معمر منكم يوماً من عمره إلا بهدم آخر من أجله ، ولا تجدد له زيادة في أكله إلا بنفاد ما قبلها من رزقه ، ولا يحيا له أثر إلا مات له أثر ، ولا يتجدد له جديد إلا بعد أن يخلق له جديد ، ولا تقوم له نابتة إلا وتسقط منه محصودة .

« وقد مضت أصول (وهم الأباء) نحن فروعها ، فما بقاء فرع بعد ذهاب

أصله »[1] ؟

أليس مات آبائنا الذين انحدرنا من اصلابهم ؟ وإذا كان آباؤنا الذين جائوا إلى الدنيا قبل أن نأتي اليها قد ماتوا جميعاً فهل يمكن أن نبقى نحن أبديين ؟

إن الدنيا ـ ولا شك ـ مجرد ممرّ ينتهي بالانسان إلى مصيره وهو إما أن يكـون « حفرة من حفر النيران » أو « روضة من رياض الجنة » .

« أيها الناس . . » .

« إنما الدنيا دار مجاز ، والآخـرة دار قرار . فخـذوا من ممركم لمقـركم ، ولا تهتكوا استاركم عند من يعلم أسراركم . وأخـرجوا من الـدنيا قلوبكم من قبـل أن تخـرج ابدانكم ، ففيهـا اختبـرتم ولغيـرهـا خلقتم . إن المرء إذا هلك قـال الناس : ما ترك . ؟ وقالت الملائكة : ما قدّم ؟ » .

« لله آبـائكم فقدّمـوا بعضـاً يكن لكم قـرضـاً ، ولا تخلّفـوا كـلاً فـيكـون عليكم »[2] .

ألم تر أنّ الدهرَ يوم وليلة   يكرّان من سبتٍ جديد إلى سبتِ
فقل لجديد الثوب: لا بد من بلى   وقل لاجتماع الشمل: لا بد من شتِ

إن على الانسان ـ ما دام وجوده موقتاً ـ أن يحسب في كل خطوة من خطواته حسـاب الله ، فالـدنيا منـطقة حـرة أوضح الله فيهـا طـريق الهـداية ، وطـريق الضيـاع ، وترك حـرية اختيـار أي الـطريقـين لـلانسـان ، فـاليـوم ـ عمـل ولا حساب . وغداً ـ حسـاب ولا عمل . فـلا بد من حسـاب « يوم الحسـاب » من « يوم العمل » وإلا كان الخسران المبين .

---

(١) نهج البلاغة ج ١ ص ٢٥٠ .

(٢) نهج البلاغة ج٢ ص١٨٣ .

على الانسان أن يضع كل إمكـاناتـه في خدمـة الله ، فلا يبخـل بعمل ، أو بمال ، أو بزوجة أو بأولاد في سبيل الله ، لأن كل ما يملكه الانسان إنما هو أمانـة عنده . أعطاه الله ليختبره هل يضحّي به في سبيله ، أو يعبده من دون الله ؟

وتلك هي صورة عن اليوم الموعود ، يصفهـا الله (تعالى) في كتـابه العـزيز قائلاً :

﴿القارعة * مـا القارعـة * ومـا أدراكَ ما القـارعة * يـوم يكون النـاس كالفراش المبثوث * وتكون الجبال كالعهن المنفوش * فأما من ثقلت موازينه * فهو في عيشة راضية * وأما من خفت موازينه * فامه هـاوية * وما أدراك مـا هيه * نار حامية﴾[1] .

---

(١) سورة القارعة الآية ١ ـ ١١ .

رَاءٌ
كَيفَ نَعُودُ إِلَى الحَيَاة ..؟

« خلقتم للبقاء ، لا للفناء . ! » .

بهذه البساطة يكشف لنا الرسول الأعظم عن مصير الانسان ولكن كيف يمكننا قبول هذه الحقيقة ؟

في الحقيقة ان كل انسان يجد في اعماق نفسه انه لم يخلق ليفنى ، بل ان مجرد تصور الفناء يبدو أمراً مستحيلاً .

فهل يمكنك مثلاً أن تتصور انك ستصبح لا شيئاً في يوم ما ؟ .

قد تستطيع أن تتصور لا شيئية جسمك ، ولكنك لا تستطيع أن تتصور لا شيئية نفسك وروحك . وهذا دليل واضح على أنك لا تفنى .

صحيح أن الجسم يموت ، ولكن هذا لا يعني أن الروح أيضاً تموت . فالروح تبقى حية بعد الموت ، ولا يعتريها بالموت إلا تبدل المقاييس لديها .

ان الانسان مركب من روح وجسد !

والجسد هو مجموعة من الخلايا[1] التي تعمل ضمن « مصنع » وهي في تجدّد

---

(١) عبارة عن الذرات الصغيرة الحية التي يتألف منها الجسم ، ويمكننا تشبيه هذه الذرات بالطابوق الذي يؤلف البيت مع فارق أن الطابوق ميت ، بينما الخلية حية ، فكل قطعة من جسمك يتشكل من ملايين الخلايا الحية التي إذا ماتت تخرج من الجسم في صورة « أوساخ » .

وموت مستمرين .

أما الروح فهي الآمـرة الناهيـة لهذا « المصنـع » فإذا قلت : انـا فلا تقصـد بالطبع جسدك ، وانما تقصد ذلك« الآمر الناهي » بدليل انك إذا قلت : يـدي فلا تقصد منها جزءاً من ذاتك وانما تقصـد هذا الشيء الـذي تملكه ، وتحـركه ، وتعمـل به ، فيـدك ليست أنت . أنت شيء آخر وراء اليـد . أنت هو « الأنـا » الـذي تقولـه عشرات المـرات في اليوم والليلة . وهـذا « الأنا » لا يمـوت بمـوت الجسـد . وانمـا يجـد نفسـه ضمن مقـاييس أُخـرى تختلف عن مقـاييس الجسـد الفعلية . تماماً كما ان هـذا « الأنا » لا يتغـير بتغير الخـلايا ، ولا يمـوت بموتهـا . بدليل أن الخـلايا تبـدل نفسها بنفسهـا باستمـرار فكل سبـع سنوات تتبـدل كل خلايا الجسم بحيث لا تبقى اية خلية أكثر من هذه المـدة ، وهذا يعني أن الـذي عمره ٢١ ـ عاماً قد مات جسمه ثـلاث مرات . ومـع هذا فـإن « الأنا » فيـه لا يتغير فهو هو من دون أن يجد أي تغيير جذري في ذاته .

ولو كان الانسان يموت بموت الجسد ، لكان من اللازم أن يتغير الذي عمره ٢١ ـ عاماً ثلاث مرات . مع اننا لا نجـد أنه قـد تغير منـذ الطفـولة ، فصفـاته تبقى على حالها تقريباً .

في كـل لحظة يمكن أن يجـد الانسان « القيـامة » التي اخبـرنا الله عنهـا ففي النبات والشجر والتراب ، يجد الانسـان أن التراب يتحـول إلى نبات ، وعنـدما يموت النبات يتحول إلى تراب .

فالتراب يتحول رغم ارادته إلى جسـد شجر ، مـع أنه هـو هو ، فعنـاصره الأوليـة تبقى عـلى حـالتهـا الأولى . ولكنهـا تختلف من نـاحيـة المقـاييس التي تكتنفها .

وهكذا الانسان . . انـه سيعود إلى الحيـاة بنفسه ، ودون أن يتغـير ، ولكن

ضمن مقاييس أخرى تختلف عن المقاييس المعاصرة .

وكما أن التراب لو كان له عقل وفكر ، وكان يقال له انك تتحول إلى حياة أخرى ، تختلف من ناحية المقاييس مع حالتك الحاضرة ، لم يكن يقبل الفكرة بسهولة بالرغم من أنها حقيقة قائمة . كذلك الانسان فإنه قد لا يقبل الحياة بعد الموت نظراً لضيق أفق تفكيره وضحالة مقاييس حياته .

وأيضاً . .

فان الانسان يجد دليل الآخرة في ماضيه الذي خلفه وراءه عندما كان جنينا . . فإنه لو كان يقال له : انك ستتحول إلى إنسان كامل عندما تخرج من الرحم ، وتعيش ضمن مقاييس أخرى ، قد كان يجد بعض الصعوبة في قبوله ، كذلك فإنه يجد بعض الصعوبة في قبول حقيقة الآخرة بينما هي حقيقة لا تقبل الانكار .

يقول الله تعالى :

﴿يُخرج الحي من الميت ويُخرج الميت من الحيّ ويحيي الأرض بعد موتها وكذلك تُخرجون * ومن آياته ان خلقكم من تراب ثم إذا انتم بشر تنتشرون﴾[1] .

﴿ومن آياته انّك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزّت وربت ان الذي أحياها لمحيي الموتى انّه على كل شيء قدير﴾[2] .

إن الموت عبارة عن الخروج من مقاييس ، والدخول تحت مقاييس أخرى ، تماماً كما ان نموَّ النبات يعني ذلك . . وتماماً كما ان الولادة هي مثل ذلك .

---

(١) سورة الروم الاية ١٩ - ٢٠ .

(٢) سورة فصلت الاية ٣٩ .

ونستطيع أن نعبر عن الموت بالولادة تحت شرائط معينة . . وفي ظروف معينة .

أما الذين ينكرون البعث لمجرد أن « عقولهم » ! لا تدرك كيف يمكن لميت أن يتحول إلى حي ، فانهم ينسون ابسط الحقائق وهو : انهم احياء بينما كانوا لفترة طويلة لا شيئا ، وان الذي خلقهم من اللاشيء قادر بلا شك على اعادتهم إلى الحياة بعد الموت .

أليس الذي يصنع من القطع الحديدية العادية سيارة كاملة قادراً على اعادتها مرة ثانية بعد تلاشي اجزائها ؟

يقول الله تعالى :

﴿وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده ، وهو (أن يعيده) أهون عليه وله المثل الأعلى في السماوات والأرض ، وهو العزيز الحكيم﴾[1] .

ويقول :

﴿وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم * قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم﴾[2] .

ترى . . انت الذي لم تكن في وقت ما شيئاً ، لا ترابا ولا عظاما ولا أي شيء آخر ، فخلقك الله ألا يمكن أن يعيدك الله مرة ثانية إلى الحياة بعد الموت ؟

﴿فسيقولون من يعيدنا قل الذي فطركم أوّل مرّة﴾[3] .

---

(١) سورة الروم الاية ٢٧ .

(٢) سورة يس الآية ٧٨ ـ ٧٩ .

(٣) سورة الاسراء الآية ٥١ .

وإذا كان البعض لا يقتنع بذلك فإن الله يقدم له أكبر الأدلة وذلك حينما يعرض أمثال هؤلاء على جهنم قائلاً لهم : **﴿هذا الذي كنتم به تكذبون﴾**(1) . ؟

﴿وقالوا : إن هي إلاّ حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين * ولو ترى إذ وقفوا على ربّهم قال (ربّهم) أليس هذا بالحق قالوا بلى وربّنا قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون﴾(2) .

ترى هل يجب علينا أن نرى الآخرة حتى نؤمن بها . ؟

لقد أخبرنا الله عنها ، ولا نجد أية ضرورة لأدلة أخرى ولكن لا بد أن نعرف : ان الذي يبني حساباته على وجود الآخرة ، لن يكون حتماً إلا رابحاً ، إذ لو افترضنا أن الآخرة « فكرة خرافية » فإن المؤمن بها لن يخسر شيئاً من الحياة ، لأنه يعيش ، على أقل التقادير ، حياة عادية تخلو من الجريمة والعصيان ، وتتوفر فيها ما تتوفر في أية حياة عادية مماثلة .

ولكن الكافر لا بد أن يكون خاسراً ، لأن مجرد وجود احتمال صدق القضية ولو بنسبة ١ ٪ يعني أنه لو مات الكافر ووجد أن الآخرة حقيقة وليست خرافة فلن تكون لديه أية فرصة لإنقاذ ما ضيعه ، وتكون عاقبته إذ ذاك النار الأبدية . .

وهناك **﴿الذين آمنوا من الكفار يضحكون * على الأرائك ينظرون* هل ثوّب الكفار ما كانوا يفعلون﴾**(3) ؟

الحق أقول لكم : ان الذين يكفرون بالآخرة مخطئون ، لأنهم في هذا الأمر

---

(1) سورة المطففين الآية ١٧ .

(2) سورة الانعام الآية ٢٩ ـ ٣٠ .

(3) سورة المطففين الاية ٣٤ ـ ٣٦ .

يفكـرون بعـواطفهم التي تقـول لهم : عيشـوا في الأرض فسـاداً . ولا يفكـرون بعقولهم التي تصرخ في وجودهم : قفوا عند حدكم ، هناك حساب وجزاء .

إن الكافر بالآخرة لا يجد في الواقـع أي مبرر لكفـره إلا إرادة الاستمرار في الطغيان والشهوات والملاذ غير المشروعة .

يقول الله تعالى :

﴿ويل يومئذٍ للمكذّبين * الذين يكذّبون بيوم الـدين* وما يكـذِّب به إلاّ كـل معتدٍ أثيم* إذا تُتلى عليـه آياتنـا قال أسـاطير الأولين* كـلاّ بـل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون﴾[1] .

استعبدتهم المادة فقطعت على عقولهم الطريق ، ولهـذا فلم يعودوا يفكـرون في أنفسهـم ألم يكونوا معدومين حيناً من الدهر ؟

من خلقهم ؟

هل يمكن أن يتركهم الله همجاً يفعلون ما يريدون بلا حساب ولا جزاء ؟

هـل يمكن أن يعجـز الـذي خلقهم من العـدم والـلاشيء أن يعيـدهم إلى الحياة ؟

﴿أيحسب الإنسـان أن يترك سـدى * ألم يك نـطفـة من منيّ يمنى* ثم كان علقة فخلق فسوّى* فجعل منه الزوجين الـذكر والأنثى* أليس (صـانع) ذلك بقادر على أن يحيي الموتى﴾[2] ؟

ألا يكفي كل ما سبق من حياة الانسان ابتداءاً من كونـه منياً ، وانتهـاءاً به

---

(١) سورة القيامة الاية ٣٦ - ٤٠ .

(٢) سـورة المـطففـين الآية ١٠ - ١٤ .

وهو انسان سوي ، يفكر وينتج ويعيش ، ألا يكفي كل ذلك دليلا على قدرة الله على اعادته إلى الحياة بعد الموت ؟

﴿فلينظر الإنسان ممَّ خلق* خُلق من ماءٍ دافق* يخرج من بين الصلب والترائب* انّه على رجعه لقادر﴾[1] .

اجل . . فتشوا عن كل الذين يكفرون بالآخرة لتجدوا أن هؤلاء لا يكفرون بها إلا لأنهم لا يرتاحون لها ، تماماً مثل الذي لا يؤمن بوجود قانون العقوبات لمجرد انه لا يرتاح اليه . .

﴿بل يريد الأنسان ليفجر أمامه﴾[2] .

﴿(ولهذا فانه) يسأل (في استبعاد) : أيّان يوم القيامة﴾[3] ؟ .

فاذا ما وقع الذي استهزء به « يقول الانسان يومئذ ـ أين المفر » . ؟

﴿كلّا لا وزر* الى ربّك يومئذٍ المستقرّ* ينبؤا الانسان يومئذٍ بما قدّم وأخّر﴾[4] .

أتريدون دليلا آخر على الحياة بعد الموت ؟

استمعوا إلى كلام النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) :

« كما تنامون تموتون . وكما تستيقظون تبعثون »! السنا ننام كل ليلة . ؟ هكذا سنموت .

---

(١) سورة الطارق ٥ ـ ٨ .

(٢)،(٣) سورة القيامة الاية ٥ ـ ٦.

(٤).سورة القيامة الآية ١١ ـ ١٣ .

ثم السنا نستيقظ كل صباح ؟ هكذا سنعود إلى الحياة .

لقد مات حتى الآن كل من أتى إلى الحياة ، وكالجسم الواحد الذي يبدّل خلاياه ، تبدل الأرض الاجيال . فيموت جيل ويأتي جيل آخر .

وهذه قوافل الموتى تمر أمام الانسان كل صباح ومساء .

وهذه أرواح الموتى تخبرنا عما هنالك . . بعد الموت .

١

لقد قيل لاحدى الأرواح : هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً ؟

فأجابت : نعم بكل تأكيد ، فالعذاب عذاب ، والنعيم نعيم ، كما وصف لنا الأنبياء .

قالوا لها : وكيف هو العذاب ؟ وكيف هو النعيم ؟

فاجابت : لا استطيع أن اشرح لكم ذلك ، يكفي ان تعرفوا ان العذاب موجود ، وان النعيم أيضاً موجود .

٢

وقيل لروح اخرى : هل هناك أرواح عادت منكم إلى الحياة ؟

فأجابت : كلا . الروح التي تأتي لا تعود ، وهناك عشرات الألوف من الأرواح التي تعيش عندنا منذ ألوف السنوات ولا تزال هنا لم تغادرنا . .

٣

وقيل لثالثة : ماذا تجدون من فواكه ؟

فأجابت كل الأنواع .

فقيل لها : مثلاً . ؟

اجابت : في الحقيقة فواكهنا تختلف عن فواكهكم ، كما أن الأشجار تختلف عن اشجاركم ، ولا تستطيعون أنتم أن تفهموا ذلك إلا إذا متم .

٤

وقيل لرابعة : هل يعذب الانسان بعد الموت مباشرة فيما إذا كان مستحقاً لذلك ؟

اجابت : نعم .

قيل لها : فلماذا لا نحس بعذابه ؟

أجابت : مقاييسكم تختلف ، هذا هو السبب . تماماً كما انكم تحسون بالعذاب الذي يتحمله النائم عندما يرى مناماً مزعجاً ، ولكن الفرق : ان العذاب هنا حقيقة وليس حلماً .

وقيل لها : ماذا وجدتم بعد الموت ؟

أجابت : وجدنا أننا كنا غافلين عن . . . الحقيقة[١] .

---

(١) للمزيد من التفاصيل راجع كتاب : « على حافة العالم الاثيري » .

زَيْن

وَوَجدُوا مَا عَملوا حَاضِرًا ..!



أعمال الإنسان ـ كما تثبت التجارب البشرية حتى الآن ـ تحفظ وتسجل بصورة دائمة وبغير توقف .

فكل كلمة يلفظها الإنسان وكل حركة تصدر عنه ، وحتى كل خاطرة تمر في ذهنه يسجل في الأثير (الفضاء) ويمكن عرضه في أي وقت من الأوقات بكل تفاصيلها ، بحيث يمكن إذا كنا نملك الوسائل الخاصة أن نعرف كل ما قاله ، أو فعله أو نواه أي فرد في أي مكان وأي زمان . .

يقول الله تعالى : **﴿إن بعض الظن اثم﴾**[1] . .

تعرف لماذا ؟

لأن الظن عملية تقوم بها النفس البشرية ، وهي لذلك لا تنمحي .

فالأفكار تخطر على بالنا ، وسرعان ما ننساها ، ويبدو لنا أنها انتهت ، ولم يعد لها أي أثر ، ولكننا بعد مرور فترة طويلة نراها رؤيا خلال النوم ، أو نتكلم عنها في حالات الهستيريا أو الجنون دون أن ندري شيئاً مما نقول ، وهذه الوقائع تثبت بشكل قاطع ان العقل والحافظة ليست تلك التي نشعر ونحس بها فحسب ، وإنما هناك اطراف أخرى من هذه الحافظة لا نشعر بها ، وهي ذات وجود مستقل وذات كيان قائم بنفسه .

ولقد أثبتت التجارب العلمية ان جميع أفكارنا تحفظ في شكلها الكامل ،

---

(١) سورة الحجرات الآية ١٢ .

ولسنا قادرين على محوها أبداً ، وأثبتت هذه التجارب أيضاً ان الشخصية الانسانية لا تنحصر فيما نسميه « الشعور » بل هناك أجزاء أخرى من الشخصية الانسانية تبقى وراء الشعور ، وهذه الأجزاء تشكل جانباً كبيراً من شخصيتنا ، بل هي الجانب الأكبر منها ، ومثلها كمثل جبل الجليد في أعالي البحار ، أجزائه الثمانية مستكنة تحت الماء ، على حين لا يطفو منه إلا الجزء التاسع ، وتلك هي ما نسميه « الشعور » الذي يسجل ويحفظ كل ما نفكر فيه ، أو ننويه .

ان مضي الزمن لا يحدث أي تغيير في العمل الذهني فحتى التأملات الخيالية التي تدفن في اللاشعور ، تبقى أزلية في الحقيقة والواقع ، لانها تبقى محفوظة لعشرات السنين وكانها لم تحدث إلا بالأمس .

وذلك لان كل ما يخطر على بال الانسان من الخير أو الشر . ينقش في صفحة اللاشعور ، فلا يزول إلى الأبد ولا يؤثر فيه تغير الزمان ، وتقلب الحدثان ، ويحدث هذا سواء أراد ذلك الانسان أم لا . .

ان هذا الواقع يؤكد ، امكان وجود سجل كامل لأعمال الانسان لدى الله . **﴿لقد خلقنا الانسان ونعلم ما توسوس به نفسه ، ونحن أقرب إليه من حبل الوريد﴾**(١) .

اذن . . فنية الانسان لا تتلاشى كما نتصور ، وانما تبقى رغم ارادته ، لتكون شاهد صدق له ، أو عليه في الآخرة .

والكلام أيضاً يسجل . !

فعندما يحرك واحدنا لسانه ، فانما في الواقع يحرك موجات الهواء ، تماماً كما يحرك الحجر الذي نرميه في الماء موجات الماء .

وهذه الموجات تصطدم ، في الظروف العادية ، بطبلة الأذن ، التي تقوم آلياً بارسال هذه الموجات إلى العقل . فما نفهمه من المعنى يسمى « سماعا » .

---

(١) سورة ق الآية ١٦ .

ولقد ثبت قطعياً ان هذه الموجات تبقى كما هي في طيات الأثير ، وانها لا تزول حتى الأبد بعد حدوثها للمرة الأولى ، ومن الممكن سماعها مرة أخرى ، ولكن العلم الحديث عاجز حتى الآن عن اعادة هذه الأصوات ، أو بعبارة أصح : إن العلم الحديث عاجز عن ضبط هذه الموجات مرة أخرى ، مع انها تبقى تتحرك في الفضاء إلى زمن غير قصير ، ولم يبد العلماء اهتماماً خاصاً بهذا المجال ، بعد أن سلموا نظريا بامكان ايجاد آلة لالتقاط اصوات الأزمنة الغابرة ، كما يلتقط المذياع الأصوات التي تذيعها محطات الإرسال والمشكلة الكبرى تواجهنا في ذلك هي مشكلة التمييز بين الأصوات الكثيرة ـ الهائلة الكثرة ـ حتى يمكن سماع كل صوت على حدة .

والعلم لم ينجح في اختراع آلة تفرق بين أصوات الزمن القديم ولولا ذلك لكنا نسمع اليوم تاريخ كل عصر وزمان بأصواته ، ولو نجح في هذه الآلة المطلوبة ـ كما هو المتوقع ـ فسيكون باستطاعتنا سماع كلمات ابراهيم (عليه الصلاة والسلام) ، وخطب الرسول الأعظم ، ونصائح الامام علي (عليه الصلاة والسلام) ووقائع الطف بأصواتها الحقيقية . .

وهذا يثبت بالطبع أن كل كلمة يلفظها الانسان فإنها في الواقع تسجل على صفحات الأثير .

غير أن ذلك لا يعني أن الكلمات والنيات تسجل على صفحات الأثير وحسب ، وإنما يعني أن الذي اكتشفناه حتى الآن هو ان ذلك يسجل على هذه الصورة ، ولعل هناك كيفيات أخرى تسجل بها النيات والكلمات ، ولكن لم يصل إليها علمنا بعد وقد أخبرنا الله تعالى : **﴿ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد﴾**[1] .

---

(١) سورة ق الآية ١٨ .

والعمل أيضاً . . لا يموت !

ويؤكد العلم الحديث بأن جميع أعمالنا ـ من دون فرق بين ما نباشره في الضوء أو ما نباشره في الظلام ـ تبقى في الفضاء على شكل صور ولكنها صور خاصة بمقاييس خاصة ، ومن الممكن في أية لحظة تجميع هذه الصور حتى نعرف كل ما فعله الانسان من اعمال الخير والشر طيلة حياته ، فقد أثبتت البحوث العلمية ان كل شيء ـ سواءاً حدث في الظلام أم في النور ـ تصدر عنه موجات حرارية بشكل دائم ، وهذه الموجات الحرارية تعكس الأشكال والصور وأبعادها تماماً مثل الأصوات التي تكون صورة كاملة للموجات الهوائية التي يحركها اللسان .

وقد تم حتى الآن اختراع آلات دقيقة لتصوير الموجات الحرارية التي تخرج عن أي كائن وبالتالي تعطي هذه الآلة صورة فوتوغرافية كاملة للكائن حينما خرجت منه الموجات الحرارية . فاللص الذي يسرق في الظلام ، يمكن تصويره متلبساً بالجريمة بعد حادث السرقة ، غير أن الآلات التي تم اختراعها حتى الآن لا تستطيع تصوير الموجات الحرارية إلا بعد صدورها بساعات قليلة من وقوع الحادث ، أما الموجات القديمة فلا تستطيع هذه الآلة تصويرها ـ لضعفها .

وهذا يعني أن أي عمل يقدم عليه الانسان فإنه يسجل على « شاشة الكون » ولا يستطيع الانسان ـ لذلك ـ الهروب من آثاره ، أو انكاره .

وهكذا يكون كما قال الله ﴿ووجدوا ما عملوا حاضراً﴾ . .

هل يعذب الله المخترعين ؟

وهنا لا بد من الاجابة على السؤال الذي كثيراً ما يطرح لدى البحث عن الآخرة والذي يقول : إذا كان الله سيعذب الكافرين به ، والملحدين عن منهاجه ، فهل يعني ذلك أنه سيعذب المخترعين والمكتشفين الذين خدموا

الانسـان خدمـات كبيرة وعـلى سبيل المثـال : هل ان شخصـاً كأديسـون مختـرع الألف والخمسمائة اختراع سيدخل النار لأنـه لم يؤمن بالله ، بينـما يتربـع عامـل بسيط على أرائك الجنة ، لمجرد أنه كان يؤمن بالله ؟

والجواب :

أولاً ـ لا بـدّ أن نعلم أن أهمية الأشيـاء انما تـأتي من حيث مقدار خـدمتهـا لله . فليست هناك أية قيمة ذاتية للاشياء إذا لم تكن موضوعة في خدمة الله .

فالقنبلة الذرية التي قد تساوي في نظر البعض الآن الملايين من الـدولارات مثلاً ـ لا تساوي في الـواقع شيئـاً لأنها لا تخدم طـريق الله ، وانمـا تخـدم طـريق المصالح الشخصية .

وهنا لا بد من التساؤل : ترى هـل يمكن تصور أيـة قيمة للشيء اذا لم تكن له أية فائدة للإنسان في داره الحقيقي وهو الآخرة .

ان الإنسـان مخلوق لعالم آخـر هو عـالم الآخرة ، واشيـاء هذه الـدنيـا انما تكسب قيمتها الحقيقية من وراء مـا تنفع هنـاك ، وليس من وراء ما تنفـع هنا . تماماً كما أنّ العمل الـذي قد يقـوم به الإنسـان في السفر لا يكـون ذا قيمة لـو لم ينفع عند الانتهاء من السفر . فأي قيمة يمكن أن نتصـورها مثـلاً ، لحجر ثقيـل يحمله الإنسان في اسفاره من دون أن ينتفع به عندما يحط الرحال ؟

ثانياً ـ أن قيمة أي عمل يقوم به الفرد ، تكون بحجم القصـد الذي حـركه اليه ، فاذا كان القصد منه طيبا فـان العمل يكـون بالـطبع طيبـا ، بينما لـو كان القصد خبيثا فان العمل ـ وان بدى في الوهلة الأولى طيبـا للبعض ـ لا يكون إلا خبيثا .

فالذي يمـد اليك يـده اليمنى مصافحـاً ، لو كـان يقصد من عمله هـذا أن

---

(١) سورة الكهف الآية ٤٩ .

يسرق بيده اليسرى من جيبك ، لا يستحق سوى صفعة جيدة من الطراز الرفيع ، بينما الذي يصفعك خطأ وهو يريد أن يمد اليك يده لمصافحتك في الزحام ، يستحق كل تقدير واحترام .

اذن فالعمل ، لو لم يكن « لله » أي « باخلاص » فلن تكون له أية قيمة . فلو فرضنا أن اديسون مخترع الالف والخمسمائة اختراع كان يخترع ويكتشف لمصالحه الخاصة بحيث لو لم تخدم اختراعاته تلك المصالح لما أقدم عليها فهل يمكننا أن نتصور له أي اجر على الله ؟ والمفروض انه لم يعمل له أي شيء ؟

ثالثاً ـ إن عمل أي انسان هو الذي يكتنفه يوم القيامة أي إن الذي يقدم له يوم القيامة ليس شيئاً « فوق العمل » وانما هو العمل نفسه فان الجريمة ذاتها هي التي تلتف حوله يوم القيامة ، فهو الذي يجازي نفسه عن طريق اعماله .

وإذا كان أمثال أديسون هم الذين اختاروا لانفسهم المصير السيء فهل يمكن أن نحمل الله مسؤلية ذلك ؟

إذا كان أمثال هؤلاء هم الذين يطلقون النار على أنفسهم فهل يجوز لنا أن نعاقب الله لان الرصاصات التي تخرج من فوهة « المسدس » تمزق جدران صدورهم ؟

ان الله يضع مسلك الحق ، ويسلط عليه الأضواء ، فإذا لم يسلكه البعض بملء ارادتهم فانهم هم الذين سيخسرون أنفسهم ولا ربط لذلك بمكانتهم أو نبوغهم الفكري .

رابعاً ـ ان الذي لا يمكن الترديد فيه هو ان للكون إلهاً خالقاً لا بد ـ بحكم سلطته وحقه الطبيعي على الانسان ـ ان يطاع من قبل الجميع ، وإذا ما تخلف واحد منهم عن ذلك فان لله الحق ـ كل الحق ـ ان ينزل عليه العقاب العادل ، ولا يفرق في ذلك ما إذا كان هذا « الواحد » صاحب اختراع أو صاحب

اكتشاف أو مجرد عنها .

ان الناس سواسية أمام الله ، وأقربهم اليه اتقاهم ، هذه هي الحقيقة وعلى أساسها تقوم القيامة ، ويجازى الناس .

انتهى .

في ١٣٩١/٨/٨ هـ .

الفهرس